المحتوى

كلمة

٢ لملكوتِ أنبياء.. لا لليلةِ قُرعة - جورج مغامس

مَدارات الجامعة

٥ رسالة الرئيس
١١ بروتوكول منح مع جامعة مادونا
١٢ الجامعة تكرّم رعاتَها
١٦ في تكريم رؤساء المدارس
١٧ الشبيبة في المجمع البطريركي المارونيّ - حلقة بحثيّة
٢٢ المجتمع المدنيّ بين أزمة الهويّات والعولمة - دورة تثقيفيّة
٢٤ المواطنية بين الهويّة والعولمة - مؤتمر
٢٧ التنشئة على مواجهة العنف - ندوة
٢٨ الاصلاح الديمقراطيّ في العالم العربيّ - د. أمين أ. الريحاني
٣٠ دوستويوفسكي - حلقة بحثيّة
٣٢ تعليم اللغة العربيّة - تدريب لقاء مع إملي نصرالله
٣٣ الحاقلاني إلى «بانثيون الجامعة»
٣٤ نشاطات العمل الرعويّ

في منطقة تَسودُها أنظمةٌ عسكريّةٌ أمنيّةٌ قابضةٌ، عانى لبنانُ منها ومن مواليدها، منذ ثلاثين وأكثر.. لا. لا يحلو لعاقلٍ جادٍّ شجاعٍ أن يُلدَغَ من جُحرٍ مرّةً أخرى. ولكنْ مَن ذا الذي يدّعي أنّ قيامةً تقومُ لوطنٍ قويٍّ من دون مؤسّساتٍ عسكريّةٍ وأمنيّةٍ قويّةٍ، تمحضُها السلطاتُ السياسيّةُ رؤيا وطنيّةً نيّرةً قويّةً، يَحتضنُها الرأيُ العامُّ احتضانَ الواثقِ المطمئنِّ؟

إذًا، فَلنكنْ مع هذه المؤسّسات دون سواها، لتكونَ معنا.. لنا دون سوانا! والسلامُ على أرواحِ شهدائها.. شهدائنا.. شهداءِ لبنان.

التّحرير

حزيران ٢٠٠٧ | عدد ٤٠

مباحث

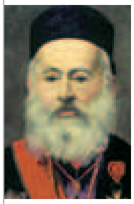

٤٠ الديمقراطيّة الإعلاميّة المركّبة - د. جورج كلاّس
٤٦ المطران يوسف الدبس من مفاخر مارون ولبنان - د. دياب يونس
٥٣ رشيد نخله أمير الزجل والوطنيّة - د. عصام الحوراني
٦٥ نجيب محفوظ والإيمان - الأب د. باخوس طنّوس
٦٩ ليبانوراما قلَميّة - جورج مغامس

مقالات

٧٢ دور المجتمع المدنيّ - د. نعيم سالم
٧٥ الديموقراطيّة المتعثّرة والاقتصاد المهمل - د. لويس حبيقة
٧٧ المسنّون.. - الأب بولس وهبه

مراجعات

٧٩ «وقفات ومواقف» لدياب يونس - ندوة
٨٣ «النموّ والاستقرار» لروك - أنطوان مهنّا - ندوة
٨٥ عبدو القاعي يسأل عن مصير المجتمع اللبنانيّ - د. ميشال كعدي
٨٧ احتفاءً بروايتين ومسرحيّتين لمنصور عيد - ندوة
٨٩ سهيل مطر... في زمن الجفاف - د. جان توما
٩٠ من منشوراتنا

NDU Spirit دوريّة حول علامات الحياة في عالم جامعة سيّدة اللويزة

هاتف:٢١٨٩٥٠(٠٩) - مقسّم: ٢٤٧٧
فاكس: ٢٢٤٨٠٣ (٠٩)
بريد الكترونيّ: nduspirit@ndu.edu.lb
موقع الكترونيّ:
www.ndu.edu.lb/newsandevents/nduspirit

رئيس التّحرير
جورج مغامس

التّحرير بالانكليزيّة
كينيث مورتيمر

تَتبُّع أنشطة
غادة معوّض

تنضيد بالعربيّة
ليديا زغيب

تصوير
عبدو بجّاني

تصميم وإخراج
تكنوبوب

طباعة
مطابع معوشي وزكريّا

جورج مغامس

لملكوت أنبياء.. لا لليلة قُرعة

في وقتٍ يَمضي فيه كلُّ نافذٍ في سياسةِ نفوذِه، من دون أن يُسهِمَ في نسجِ حالةٍ وطنيّةٍ جامعة، متناغمةِ المكوِّنات والسياقات، إنّما هو يتيحُ تقويضَ ما تبقّى من حيويّةٍ في مختلفِ البُنيات...

وما يَحدثُ، بَعدُ، في لبنانَ، من تفجيراتٍ أمنيّةٍ وعسكريّةٍ متماديةٍ، إنْ هو إلاّ بجريرةِ التناقضاتِ السياسيّة، وبالتالي الفراغاتِ الوطنيّة. وقديمًا قيل: البِطالةُ من الشيطان!

فنحن في الفوضويّة: شعبٌ.. سلطتُه معطّلةٌ، بلا رأس؛ ومن حولِه رؤوسٌ وأقدام!!

فلماذا لا نتفاوضُ في أمرنا؟

أي نتحادثُ شركاءَ متساوين.. نتطلّعُ إلى تسويةٍ، يحمي، فيها، كلٌّ منّا نفسَه بالرؤيةِ لا بالحصّة، وبالثقةِ المتبادلةِ حتى التفويضِ المتبادل.. حتى الايمانِ بأنّا نُعطَى بقدْرِ ما نُعطي.

أليستِ الفوضى، وهي عنفٌ صامتٌ حينًا وصائتٌ حينًا آخر، من اللاتفاوض، وهو بسببٍ من تداخلِ حساباتٍ وارتباطاتٍ ومآربَ داخليّةٍ وخارجيّة؟

ثمّ.. أنريدُ أن نتعايشَ حقًّا، أم أن نتعاملَ فحسب؟ وهل شروطُ التعايشِ كشروطِ التعامل؟!

فَالْيقظةَ اليقظةَ.. لِلنهضةِ النهضة. وَلْيكفَّ هذا الصراع؛ لأنّ الصراعَ بين حقّين وأكثرَ أو على حقّين وأكثرَ هو مصرعٌ للحقّ. أمّا الفتاوى فحذار. فالأوطانُ لا تُحكَم بالفتاوى، بل بما تواضعَ عليه الناسُ من نُظُمٍ وقوانين.

أما علّمتنا التجاربُ أنّ استقواءً أو استزلامًا لخارجٍ يستدعي استقواءً أو استزلامًا آخرَ لخارجٍ آخرَ، وأنّ استكبارًا واستئثارًا فتنةٌ كامنةٌ، تُستثارُ فتثورُ وتنشرُ كبريتًا ونارًا؟

نعم. ما من خَشيةٍ، بَعدُ، لا من قَضمٍ ولا من ضَمّ. ولا سبيلَ، بَعدُ، إلى امتحانِ تقسيمٍ أو كَنْتنة. بل إنّ كلَّ ما يُرجى هو تحقّيقُ لامركزيّةٍ إداريّةٍ موسّعةٍ في إطار دولةٍ مدنيّةٍ ،أمميّةِ الروحِ والفضاء، منفتحةٍ على محيطِها والعالمِ في ما يُغني ويُعلي ويُبدعُ جوامعَ خيورٍ وآفاقَ حياة، ويحمي كراماتٍ وحُرُمات.

فهلاّ صَببنا جهدَنا في هذا الاتّجاه، بدلَ أن نُطيلَ أيّامَ الآلام حول أعناقِنا وأرزاقِنا بلا طائل؟ ومَن منّا يؤمِّلُ نفسَه حقًّا بمَفازةٍ، دون سواه، ونحن جميعًا على هذا التلاحمِ العضويِّ الموضوعيِّ حتمًا في كلِّ مسارٍ ومصير؟!

في هذا الوطنِ الصغير، قدرُنا أن نكونَ كبارًا في رؤانا وأساليبِ عيشِنا!.. وإلاّ استُبِحنا بالمؤامراتِ والغزوات، وصرنا مَكبًّا للنفيّات.. نفيّاتِ الأنظمةِ البوليسيّةِ والشموليّةِ والاستعماريّة، ونفيّاتِ المنظّماتِ الأصوليّةِ والإرهابيّةِ وسائرِ المرتزقة. وإنّ الذي نعانيه حجّةٌ بليغةٌ ممهورةٌ بدموعِ الأيامى واليتامى والثكالى.. ورمادِ الحرائق.

جورج مغـــامس

في هذا الوطنِ الصغير، قدرُنا أن نكونَ كبارًا في رؤانا وأساليبِ عيشنا...

○ | فعلى قادةِ الرأي، ولاسيّما منهم مَن في أوساطِ الشبابِ، وتحديدًا على مستوى التعليم والإعلام، أن يتطهّروا من آثام الماضي، ويتوبوا إلى القيم الانسانيّةِ والوطنيّةِ والدينيّةِ والمعرفيّة، ويلبَسوا لباسَ القيامةِ المجيدة.. القيامةِ القائلةِ والعاملةِ لأجل مستقبلٍ أكيدٍ وطيد.

بلى. لا يُخرجُنا من الأنفاقِ إلاّ الأنوارُ.

فإلى ملاعبها نحن مدعوّون. ولن نبرحَها حتّى نغيّرَ ما بأنفسِنا من كذبٍ ورياءٍ وادّعاءٍ وضلال، ونجدّدَ الانتماءَ إلى قداسةِ أرضِنا وعراقةِ تاريخِنا وأصالةِ حضورنا المبدعِ البهيّ في هذا الشرق، لنكونَ حقًّا شعبَ وطنِ الرسالةِ.. رسالةِ حضارةِ المحبّةِ.

وَلْنؤمنْ برجاءٍ، وعيونُنا وقلوبُنا مرتفعةٌ إلى مثالِ جبالِنا، أنّ العواصفَ تستطيعُ أن تَهزَّنا، لكنّها لا تستطيعُ أن تهدَّنا. فثمّةَ فينا من الطاقاتِ والقدراتِ ما يكفي ليُنميَ ويُزهرَ نخيلَ برارينا!

إنّ قادةَ الرأي أولئك، إنْ صنعوا اليوم ما عليهم أن يَصنعوا اليوم، فإنّما تَرفلُ الأجيالُ بنعيمِ صنيعِهم غدًا، ثمّ تصنعُه لذكرِهم أبدًا.

○ | ولكنْ، ألَيس حقًّا سؤالُ سائل: وأين همُ الشبابُ يقولون قولتَهم ويقفون وقفتَهم؟ أما فيهم مَن يَرتجلُ بطولةً ويَترجّلُ قائدًا؟ أَفيبقَون إمّا ولائمَ أو غنائمَ أو شَتيتًا في الأرضِ مَقيتًا؟

الشباب! كمثلِ بعضِ الزهورِ نريدُهم، يَشُقّونَ الصخورَ.. ويَشِعّون!!

.. وإنّا نؤمنُ إيمانًا بطرسيًّا أَنّ جبلاً، أُمّيّوه شعراء وفقراؤه علماء، هو جبلٌ يُطلِعُ بَعدُ ماءً.. وأنبياء.

○ | فإلى الربّ نَضرعُ أن يكونَ لنا موعدٌ قريبٌ مع ملكوتِ أنبياءٍ، لا ملكوتِ زعماءٍ ورؤساءٍ.. من ليلةِ قُرعة!

في أوّل الطريق إلى الجامعة أمِّ الكلمةِ المعلّمة ارتفعت السيّدةُ العذراء أمُّ الكلمةِ المعلّم (٦ م.) .. في غرّة أيّار ٢٠٠٧

أمُّ الله، أمُّ الكلمة، ترفعُ الصليبَ عاليًا وكأنّها تجهرُ باليقين البليغ: «هذا ما أردتُ أن أقولَه لكم».

يساعدُها في إظهار شموخ هذا الصليب، الخطوطُ المستقيمةُ التي تعطي دفعًا سريعًا نحو السماء.

أمّا الانحناءاتُ الحلزونيّة، فهي تساعدُ هذه الخطوطَ على بروزِ رشاقتها.

وهكذا، أطلّتْ علينا عذراءُ البَدءِ بمسحةِ القرن الواحدِ والعشرين مَشفوعةً بالخطوطِ والكلمة، لترفعَ بيمينها صليبَ ابنِها من زواريبِ أرضِنا الضيّقةِ إلى رحاب السماء.

٥ | بيار كرم

▲ النّحات والمنحوتة في المَشغل.. العامر!

الرئيس للطلاّب في الذكرى العشرين للتأسيس:
اعتنقوا العقيدة التي تريدون، ولكن..
ليس على حساب القيم والدراسة

بين فيلمين وثائقيين عن الجامعة، قديمًا وحديثًا، توجّه رئيس الجامعة الأب وليد موسى إلى أهل الجامعة وأصدقائها ومدعوّيها بكلمته السنويّة في ذكرى التأسيس العشرين، فحيّا الذين أطلقوا وطوّروا وجسّدوا أحلامَ الرهبانيّة المارونيّة المريميّة. ثمّ سأل: وهل دور الجامعة يقتصر على التعليم والتخريج وتوزيع الشهادات؟ وبالتالي، كيف تكون الجامعة إطارًا للوعي السياسيّ الوطنيّ ومركزًا للبحث والحوار، من دون أن يؤدّي ذلك إلى استغلال الحريّة لتنفيذ مآرب شخصيّة ومصالح حزبيّة ضيّقة؟

وبعد بسطه رأيَه في هذه المسألة المحوريّة، قال للطلاّب: اعتنقوا العقيدة التي تريدون، ولكنْ إيّاكم أن يكون ذلك على حساب قيمكم ودراستكم. أنتم طلاّب في الجامعة، ولستم مندوبين لأحزاب سياسيّة. نحن ننظر إليكم كطلاّب، لا كحملة شعارات سياسيّة.

وانتهى إلى خمس ثوابت في السياسة والوطنيّة تؤمن بها الجامعة، وتدعو أسرتَها إلى الالتزام بها بعيدًا عن التعصّب والفئويّة والعنف.
وهذا نصّ الكلمة كاملةً:

أيّها الأصدقاء

إنّها الذكرى العشرون لتأسيس جامعة سيّدة اللويزة، وهي الذكرى الثلاثون، إذا شئتم، لانطلاقة رهبانيّتنا في التعليم العالي، من خلال تعاونها مع كليّة بيروت الجامعيّة BUC، في إنشاء مركز اللويزة للتعليم العالي (LCHE).

مبارك هو العيد، تحيّة تقدير لكلّ الذين ساهموا في انطلاقة هذه الجامعة وفي تطوّرها، وصولاً إلى ما هي عليه اليوم من برامج وأبنية وتجهيزات وعقول إنسانيّة تفعل

وتنفعل، وتتطلّع إلى المستقبل بعيون الشجاعة والرجاء.

ليست الجامعة، أيّها الأصدقاء، وليدةَ فرد، ولا وليدة لحظة تاريخيّة، أو صدفة أو مغامرة أو حدث أمنيّ؛ إنّها وليدة أحلام وطموحات وتراث تاريخيّ تجسّد في رهبانيّتنا المارونيّة المريميّة، التي، ومنذ نشأتها (ثلاثماية سنة وأكثر)، اتّخذت من التربية والتعليم هدفًا أساسيًّا لها. وتلتقي هذه التأوّهات الداخليّة في قلوب وعقول الآباء الرهبان، مع أحلام بعض العلمانيين وطموحاتهم وذخائرهم العلميّة الثمينة، فتكون الجامعة نواة صغيرة لأفكار كبيرة، وما تلبث أن تنمو وتتطوّر، وصولاً إلى ما هي عليه اليوم من موقع مرموق ومستوى حضاريّ مميّز.

الجامعة اليوم: خمسة آلاف طالب، ثلاثة فروع: زوق مصبح، برسا الشمال، دير القمر الشوف؛ وكلّها أبنية مميّزة ومجهّزة بأحدث المعدّات، وإجازات، وإجازات تعليمية ودراسات عليا ومئات الأساتذة والموظفين، وألف خرّيج تقريبًا في كلّ سنة، وحضور لافت ومضيء على صعيد الثقافة والبحث وإعداد الانسان الاجتماعيّ المؤمن الأخلاقيّ والحرّ...

وماذا بعد؟

ماذا ينفعنا إن خرّجنا المئات وبنينا أفضل العمارات واستقبلنا سنويًّا آلاف الطلاّب ونشرنا الفروع في لبنان والخارج؟ ومتى كانت الأرقام هدفًا أو معلمًا حضاريًّا؟ ماذا ينفعنا إن ربحنا العالم كلّه، ونشرنا خرّيجينا في جميع أقطار المعمورة، وخسرنا لبنان؟

وهل دور الجامعة يقتصر على التعليم والتخريج وتوزيع الشهادات؟

ويبرز السؤال الأساسيّ: ما كان دورنا على صعيد الشأن الوطنيّ؟ وهل نجحنا أم سقطنا؟

وكيف نفسّر هذا التشنّج الذي يسيطر على بعض الطلاّب في جامعاتنا؟ وهذا القلق الذي يتسلّل إلى القلوب والنفوس، في كلّ لبنان؟

منذ اتفاقيّة الطائف سنة ١٩٨٩، وعودة الاستقرار الأمنيّ إلى البلاد، اتّخذت جامعة سيّدة اللويزة قرارها بمعالجة قضايا الشأن العامّ، والمساهمة مع السلطات الرسميّة في وضع تصوّرات واقتراحات لمعالجة المشاكل التي يعاني منها الوطن على جميع الصعد: السياسيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة...

لا يمكن لأحد، أيّها الأصدقاء، أن يحيّد الجامعة أو أن يبعدها عن الهموم الوطنيّة. ولا يمكن لأحد أن يدّعي أنّ وظيفة الجامعة هي التعليم، بعيدًا عن الشؤون السياسيّة والوطنيّة والاجتماعيّة. وحرام أن نقيم حاجزًا أو جدارًا بين الجامعة والمجتمع: فالاثنان يتفاعلان، وكلّ منهما يؤثّر في الآخر، وبينهما صلات رحم لا يمكن أن تنقطع.

كانت نظرتنا أنّ دور الجامعة يجب أن يتعدّى التعليم إلى إعداد جيل جديد، يتمتّع بثقافة سياسيّة، ويمارس الحوار، ويلجأ إلى القلم، بعد أن سكتت البندقيّة وظهر فشل استخدامها.

لهذا، ومن هذا المنطلق، تحوّلت الجامعة، على مدار سنوات، إلى منبر مفتوح للمؤتمرات والندوات والمحاضرات والحوارات التي لها أبعاد سياسيّة ووطنيّة.

وتأتي أحداث وتطوّرات السنتين الأخيرتين، وتتعرّض الجامعات إلى مشاكل، وتتكاثر الانقسامات الطالبيّة، وتتّخذ أحيانًا أشكالاً سياسيّة وطائفيّة بغيضة، وتتحوّل الانتخابات الطلاّبيّة إلى صراعات وحزازات فئويّة، وترتفع أصوات تقول: لا للسياسة في الجامعات. إمنعوا الطلاّب من العمل السياسيّ. وبدلاً من أن تكون الأجيال الجديدة عامل تجديد وتغيير، اذا ببعضها يتحوّل إلى شرارات لتفجير الأوضاع ومشكلة إضافيّة من مشاكل المجتمع اللبنانيّ.

وبرز السؤال الكبير: ما هو الحلّ؟

كيف تكون الجامعة إطارًا للوعي السياسيّ الوطنيّ، ومركزًا للبحث والحوار، من دون أن يؤدّي ذلك إلى استغلال الحريّة، لتنفيذ مآرب شخصيّة ومصالح حزبيّة ضيّقة؟

هل نجعل من الجامعة سجنًا؟ هل المطلوب هو كبت حريّة الطلاّب وقمعها؟ هل نخضع للمثل العاميّ القائل: ابعد عن الشرّ وغنّيلو... معنى ذلك أن تكون الجامعة مجموعة صفوف وطلاّب وأساتذة. وهذا يكفي. كيف يمكن التوفيق بين النظريّة المؤمنة بحريّة الطلاّب ونبضهم التغييريّ وطموحهم الوطنيّ، وبين الواقع السياسيّ المأزوم الذي يقود البلد نحو التفرقة والخراب والانهيار.

■ هل يمكن التوفيق بين السياسة الملوّثة وبين الوطنيّة الشريفة؟

أيّها الأصدقاء

جاء في المجمع البطريركيّ المارونيّ الأخير، النصّ التاسع عشر، تحت عنوان: **الكنيسة المارونيّة والسياسة**، جاء ما يلي:

«السياسة نضال متواصل وممارسة يوميّة للأفراد كما للجماعات، تنتقل من جيل إلى جيل، لإيجاد الحلول لمشاكل المجتمع ولتأمين حقّ الانسان في الحريّة والعدالة والسلام والعيش الكريم بعيدًا عن الأوهام وتبسيط الأمور، لأنْ لا شيء في السياسة مُعطى، بل هو قابل للتطوّر باستمرار. السياسة هي الاهتمام بالآخرين، والالتفات اليهم، والاستماع إلى مشاكلهم ومساعدتهم، احترامهم ومحبّتهم».

ويستطرد قائلاً: «إنّه لأمر ملحّ أن يعيد الموازنة الاعتبار للعمل السياسيّ».

وكان الإرشاد الرسوليّ قد أكّد على واجبات اللبنانيين تجاه وطنهم، وأنّ غايته الأساسيّة هي إعادة بناء لبنان ماديًّا وروحيًّا، وهذا شأن جوهريّ لا يمكن تحقيقه إلاّ بمشاركة نشطة من الجميع. والمشاركة تبدأ بالحوار والمحبّة والغفران واحترام الآخر، وأنّ غاية الحوار هي «العيش معًا، وبناء المجتمع باحترام حساسيّات الأشخاص والفروقات الجماعيّة وبالتغلّب على الحذر المتبادل».

وبالعودة إلى الأدوار الجامعيّة في هذا العالم المتغيّر، نتوقّف عند ثلاثة عناوين:

١- إنّ القرن الواحد والعشرين يحتاج إلى صدمة تغييريّة تنتزعنا من بؤر التوتّر التي خلّفها القرن العشرون. أليس دورنا في الجامعة إحداث هذه الصدمة؟

٢- كيف تتصدّى الجامعات لوحشيّة العنف والارهاب؟ أليس بالحوار والحريّة والديمقراطيّة؟!

٣- دور الجامعة هو في تجهيز المجتمع لكي يتلاءم تطوّره وقدراته وإمكانيّاته مع التطوّرات العالميّة.

وكيف نجهّز المجتمع بالعنصر الانسانيّ إن لم ندرّبه على العيش معًا واحترام الآخر. لقد انتهى زمن الجماهير التي تقود الناس إلى الانتحار، وحان وقت القيادات التي تفكّر وتحلّل وتستشرف المستقبل. ولكن من يخرّج هذه القيادات؟ إنّه دور الجامعات ومراكز الفكر. لا يجوز أبدًا أن نبقى على الواقع الأسود كما هو، رغم اعترافنا «أنّ الأشخاص الأشرار يصنعون تاريخ هذه المنطقة، اليوم». (فريدمان)

هذه هي المفارقة الكبرى التي نتعرّض لها في الجامعات: من جهة: دور الجامعة هو تدريب الطلاّب على الانتخاب والقيادة والحوار وتحقيق المصلحة العامّة، وهذا يعني ممارسة العمل السياسيّ والوطنيّ. ومن جهة أخرى: استغلّ البعض أجواء الجامعات وقاعاتها وملاعبها، لممارسة الألاعيب السياسيّة ولإثارة النعرات والغرائز، وكأنّ الحريّة هي الفوضى، وكأنّ العمل السياسيّ هو الابتزاز والفوقيّة وإلغاء الآخر.

وتختلط المفاهيم: فبين الفكرة النظريّة لمفهوم السياسة الحقيقيّة، وبين الواقع العمليّ للمارسة السياسيّة اليوميّة، فروقات كثيرة ودماء ودموع.

ما هو العمل؟ هل نضحّي بالفكر الجامعيّ الحرّ على مذبح الشهوات الضيّقة عند بعض القيادات السياسيّة؟ هل يدفعنا الخوف من تنافس الطلاّب، بعضهم ضدّ بعض، إلى إلغاء كلّ مظاهر الانتخابات والحياة الجامعيّة الاجتماعيّة؟ هل نمنع أيّ نشاط سياسيّ داخل أسوار الجامعة، خوفًا من استغلاله واستثماره لغايات شخصيّة؟ أليس في هذه القرارات تنازل عن أهدافنا في التربية والتنشئة الوطنيّة؟

يؤكّد المجمع البطريركيّ المارونيّ: أنّ السياسة في نظر الكثيرين مرادفة للمناورات والخصومات والممارسات المشبوهة واستعمال النفوذ. هي الدوس على المبادىء للاستيلاء على السلطة، وهي الوسيلة الأسهل لتحقيق الثروات الخاصّة على حساب المصلحة العامّة. غير أنّ السياسة، في العلم والقانون، هي شأن نبيل لا بل فنّ شريف. وهي خدمة من أجل الخير العامّ.

كيف نؤمّن المصالحة مع السياسة؟ كيف نستطيع أن نتغلّب على واقع مريض لا ينتج سوى التعصّب والتخلّف، لندخل إلى المجتمع الجديد حيث الحضارة تعتمد على الأنسنة والديمقراطيّة والحريّة؟

إنّه التحدّي الذي تعيشه الجامعات، في المرحلة الحاليّة، والذي يفرض علينا اتّخاذ القرارات الضروريّة، ولو كانت موجعة أحيانًا، بهدف تنقية العمل السياسيّ والسموّ به إلى العمل الوطنيّ النبيل والشريف.

إذا كانت جامعتنا، من حيث هويّتها الرهبانيّة المارونيّة المريميّة، تستلهم، في عملها وأهدافها، المبادىء الكاثوليكيّة، فإنّ الإرشاد الرسوليّ يؤكّد على:

- لا يمكن الدمج بين الكنيسة وبين الجماعة السياسيّة.
- لا ترتبط الكنيسة بأيّ نظام سياسيّ.
- لا تقترح الكنيسة، لا الأنظمة، ولا البرامج الاقتصاديّة والسياسيّة.

من هنا، دورنا في الابتعاد عن العمل السياسيّ، في جزئيّاته وممارساته الصغيرة، وتوعية طلاّبنا على حقيقة العمل السياسيّ، ومحاولة تربيتهم على الحوار والثقافة والعيش المشترك والقبول بالآخر.

نعم، إذا كانت السياسة هي فنّ الخدمة، فنحن مع أيّ نشاط سياسيّ. ولكن، إذا كانت السياسة فنّ المناورة والكذب وضرب الآخر وإثارة الغرائز، فلن تكون الجامعة أبدًا مسرحًا لذلك. ونحن نؤمن أنّ الأكثريّة المطلقة والغالبة، من الطلاّب، هي من هذا الرأي وفي هذا الموقع.

أجل، أيّها الطلاّب الأعزّاء،

اعتنقوا العقيدة التي تريدون، ولكنْ إيّاكم أن يكون ذلك على حساب قيمكم ودراستكم. أنتم طلاّب في الجامعة، ولستم مندوبين لأحزاب سياسيّة. نحن ننظر إليكم كطلاّب، لا كحملة شعارات سياسيّة.

أجل، أيّها الأصدقاء الطلاّب، أنا أخاطبكم، بالنيابة عن أساتذتكم وأهلكم، لأقول لكم: مارسوا العمل الوطنيّ الشريف، كيفما شئتم في هذه الجامعة. تثقّفوا سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، ما شئتم، ونحن في خدمتكم وتصرّفكم. أنبذوا التفرقة. اعرفوا أنّ الدولة ليست هي السلطة، وليست هي المعارضة او الموالاة، بل هي الإطار القانونيّ الدستوريّ

الذي يجمعنا جميعًا ويظلّلنا بعلم واحد. لا يمكن أن نكون مسيحيين، ونكره إخوتنا وزملاءنا. لا يمكن أن نكون مسلمين، ونظلم ونقهر الآخرين. لا يمكن أن نكون موارنة، ونحن نغلّب مبدأ الانغلاق والفصل على مبدأ الانفتاح والوصل.

القيم الدينيّة التي نؤمن بها لا تجيز أبدًا القتل والعنف والإلغاء واحتقار الآخر. المعرفة المجزّأة خطيرة. الأصوليّون، في كلّ الأديان، هم من أهل الاختصاص الآحاديّ أو الثقافة المشوّهة. نحن مع حوار العقل وحوار الحياة. سلوككم الوطنيّ يحمّلكم المسؤوليّة، وأنتم مسؤولون مثلنا تمامًا عن الجامعة وعن رفاقكم وعن الوطن. لا تنجرفوا مع العواصف التائهة التي تهدّد لبنان.

إن كنتم بصدق تحبّون هذا الوطن، فغلّبوا، كما جاء في المجمع البطريركيّ، المنطق على الغرائز والانفعالات الآنيّة، وابتعدوا عن العنف والكذب في سلوككم اليوميّ، وتذكّروا دائمًا رفاقكم الشهداء: ألا تسألون لماذا استشهدوا؟ وتذكّروا أيضًا رفاقكم المهاجرين أو المهجّرين: لماذا هم في الخارج؟ لماذا يتركون الأهل والأرض والبيت ليبحثوا عن لقمة الخبز في ديار الغربة؟

نحن في الجامعة، ومهما كانت الظروف سلبيّة، سنبقى نقوم بدور التوعية على المواطنيّة الصالحة، لأنّنا مؤمنون بأنّكم الخميرة الصالحة التي يُبنى عليها الوطن. كلّ عمل يؤدّي إلى التنشئة الوطنيّة السليمة والوعي السياسيّ الهادئ، نؤيّده وندعمه وندعو إليه. أمّا الأعمال التي نعرف وتعرفون أنّها أدّت بالوطن إلى الكوارث، فلن نغفرها، ولن نسمح بها.

تأكّدوا، أيّها الطلاّب الأعزّاء، وأنتم دعاة الثورة والتجديد، أنّ الثورة ليست إنتاجًا سياسيًّا، بل هي إنتاج إنسانيّ يطول الشخص في عمقه الروحيّ والثقافيّ. نحن معكم في هذه الثورة، لعلّنا بها ننقذ وطننا من هذه الآفات والجراح التي تنزف دمًا، وتسبّب الحرقة والدمع.

صحيح أنّ لبنان وطن صعب. إنّه رسالة. إنّه مختبر. إنّه بلد الثمانية عشر مذهبًا. بلد صغير، ولكنّه بلد الحوار والتوافق والتنوّع. إنّه وطن صعب، ولكنّه غير مستحيل. هو، على حدّ قول غسّان تويني، وطن الخطر الدائم، ولكنّه الوطن الجميل الذي نستطيع، نحن وإيّاكم، أن نبني فيه دولة تظلّلنا جميعًا، أو أن نهدمه على رؤوسنا.

أيّها الأصدقاء

في خاتمة هذا العرض، أختصر الثوابت التي تؤمن بها جامعة سيّدة اللويزة، نتيجة أبحاثها ودراساتها، لموضوع: السياسة والوطنيّة، أختصرها بخمسة:

١- «كلّ شيء يبدأ بالتربية، العمار والدمار، وقد اختبرنا كلّ ذلك»، هذه العبارة لرينيه ماهو (مدير أسبق للأونسكو)، ترسم توجّهاتنا المستقبليّة.

٢- «لا يمكن أن يكون للمسيحيين حياتان متوازيتان: إحداهما مسمّاة روحيّة، والأخرى علمانيّة، ولكلّ منهما قيمهما المختلفة» هذه العبارة المأخوذة من الإرشاد الرسوليّ، تؤكّد أنّ الازدواجيّة التي يعيشها معظم السياسيين، وتنعكس على طلاّبنا، هي مرفوضة ويجب الاشارة إليها بكلّ وضوح وجرأة.

٣- «إنّ الثقافات لا العصبيّات هي قاعدة عملنا الجامعيّ». هذه العبارة المختصرة لغبطة أبينا البطريرك مار نصرالله بطرس صفير، تعبّر عن دورنا وقرارنا بكلّ ما له علاقة بالنشاطات السياسيّة في الجامعة. كلّ ما يخدم الثقافة، نحن معه. كلّ ما يثير العصبيّات والغرائز، نحن ضدّه. لا نريد

سياسة وسياسيين نخجل بهم (البطريرك صفير).

٤- «إنّ الشبيبة التي تواجه الصعوبات، وهي تحمل آمالاً وأحلامًا وتطلّعات، مدعوّة لكي تعطي الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة إنطلاقة جديدة، فلها الحقّ في المراقبة والمحاسبة والتعبير»، هذه العبارة المأخوذة من المجمع البطريركيّ المارونيّ (النصّ التاسع عشر) تعرض علينا تأمين الجوّ الديمقراطيّ السليم، لا المريض ولا الخائف، لممارسة الشبيبة دورها الوطنيّ.

٥- «التمييز الصريح، حتى حدود الفصل، بين الدين والدولة، بدلاً من اختزال الدين في السياسة، أو تأسيس السياسة على منطلقات دينيّة لها صفة المطلق». هذه العبارة المأخوذة من المجمع البطريركيّ المارونيّ (النصّ التاسع عشر)، تدفعنا أكثر فأكثر إلى بلورة قرارنا بأنّ الجامعة جامعة لكلّ الفئات والأديان، وهي تطمح لأن تجعل من حرمها مختبرًا للعيش المشترك، للعيش معًا، ولا تمييز مناطقيًّا أو مذهبيًّا أو حزبيًّا...

أيّها الأصدقاء

إنّنا إذ نلتزم، ونحن نحتفل بعيدنا العشريني، بهذه المفاهيم الأساسيّة، التي لا نرفعها كشعارات، بل كمبادئ لحياة جامعيّة يوميّة، فإنّنا ندعو أسرتنا الجامعيّة: الأساتذة، الموظّفين، الطلاّب، الخرّيجين، إلى الالتزام بها. وإذا كان شعارنا لهذه السنة: «**من الانتساب إلى الانتماء**»، فإنّ انتماءنا لن يكون صحيحًا وصادقًا، إن لم نجعل من هذه الجامعة مرآة لايماننا الوطنيّ البعيد عن التعصّب والفئويّة والعنف.

أيّها الأصدقاء

إلى جانب احتفالنا بالعيد العشرين لتأسيس الجامعة، فإنّها صدفة كريمة أن نحتفل اليوم بالذات، بالذكرى العاشرة لزيارة البابا يوحنّا بولس الثاني إلى لبنان وإطلاقه «الإرشاد الرسوليّ».

من واجبنا أن نعود إلى هذا الإرشاد، وأن نقوّم مسيرتنا الوطنيّة، وأن نصحّح المسيرة؛ ولن يغفر لنا المستقبل إغفالنا هذه الوثيقة التاريخية.

معًا، سنتابع الطريق، ومعًا، وفي كلّ عام، سنبقى نردّد: عاشت جامعة سيّدة اللويزة، عاش لبنان.

بروتوكول منح طالبيّة بين جامعة مادونا الأميركيّة وجامعة سيّدة اللويزة

في جامعة سيّدة اللويزة، في ١٦ نيسان ٢٠٠٧، وقّع رئيس الجامعة الأب وليد موسى ونائبة رئيسة شؤون الطلّاب في جامعة مادونا الأميركيّة د. نانسي جمروز يرافقها رئيس العلاقات الدوليّة في الجامعة د. جوناثان سويفت، بروتوكول منح طالبيّة، قضى بتبادل الطلّاب لمدّة سنة دراسيّة كاملة، على أن ينال المتفوّقون منهم منحة تؤمّن تغطية النفقات الدراسيّة والإقامة في الجامعة المضيفة خلال العام الدراسيّ الذي ينتقل فيه الطالب إلى الجامعة الأخرى لمتابعة دراسته.

وقد تمّت مقابلة الطلّاب، لاختيار المتفوّقين والمستحقّين لهذه المنحة، على أن يبدأ تنفيذ هذا البروتوكول في شهر أيلول المقبل، أي مع مطلع العام الجامعيّ ٢٠٠٧-٢٠٠٨. والجدير بالذكر أنّ هذا التعاون العمليّ بين الجامعتين سيفسح في المجال لطلّابهما، ليس بإمكانيّة الدراسة والإقامة لمدّة سنة في الجامعة الأخرى فحسب، ولكن أيضًا من دون التأخير أو التغيير في البرنامج الدراسيّ الذي تسجّل فيه الطالب لنيل شهادته الجامعيّة المقرّرة.

الجامعة تكرّم رعاتَها.. صُنّاعَها القدامى

مع بدر ١٤ حزيران ٢٠٠٧، أطلّ على الجامعة صنّاعُها القدامى، رعاةُ مسيرتها منذ ولادتها إلى يومَ عُهدت أمانتُها إلى الأب وليد موسى... فكانوا على التوالي: المطران بشاره الراعي والأباتي أنطوان صفير والأب بطرس طربيه والمطران فرنسوا عيد.

وفي الاحتفال بهم، عُرضت أفلامٌ وثائقيّة عن عهودهم، وقُدّمت لهم الأوسمةُ التقديريّة، وقيل فيهم وقالوا بعضَ واقعاتٍ ومزايا... ثمّ رُفعت الستارةُ عن لوحةٍ بأسمائهم الذهبيّة عند رِتاج الإدارة... وكان رفعُ أنخابٍ ولقمةٌ رهبانيّة...

| ومما قاله الأستاذ **سهيل مطر** في تقديمه:

لم يحدث أن احتكر أحدهم القرار أو تنكّر لعميد أو موظّف أو مستشار، هم الذين مثّلوا حقيقة الكنيسة أنّها فعل شراكة بين العلمانيين والإكليروس، وحرصوا على تحقيق هذه الشراكة، لا في الكلام، بل بالعمل والفعل.

| **الأب الرئيس وليد موسى** اعتبر أنّ حكاية الجامعة مكتوبة بثلاثة أقلام:

- الأوّل حبره مسيحيّ رهبانيّ مارونيّ، لأنّ الجامعة وليدة تراث عميق، هو تراث الرهبانيّة.
- والثاني حبره سماويّ روحانيّ مريميّ، لأنّ الجامعة أعجوبة النشأة والطلعة والانتشار.
- والثالث طبيعيّ، الحبر والكلمة يتوازيان فيه ويتناغمان، من الآباء الأطهار إلى العلمانيين الأبرار، الذين بأقلامهم معًا أصبحت الجامعة منارة إشعاع وتربية ووطنيّة.

وانتهى مصلّيًا: يا ربّ، أعطني أن اتابع طريق هؤلاء الرعاة. صُنْ رهبانيّتي. قوِّ جامعتي، وكن لها معينًا وحاميًا. إحفظ أسرة الجامعة، وامنحها الطمأنينة والسلام. وكن للبنان نور المحبّة، كي يحيا مستقلاً واحدًا حرًّا.

| والرئيس العامّ للرهبانيّة **الأباتي سمعان أبو عبده**، وفي ختام كلمته، توجّه إلى المكرّمين بقوله:

نُكرّم فيكم الصبر والعزم والإقدام،

نُكرّم فيكم الصمت والوجع والألم،

نُكرّم الحكمة والتروّي والوعي،

نُكرّم سَعة صدوركم وقلوبكم،

نُكرّم علمكم وثقافتكم وشموليّة معرفتكم،

نُكرّم تجرّدكم وعطاءكم وتفانيكم

نُكرّم الراهب المريميّ الساكن في أعماق كلّ منكم

نُكرّم شغفكم بالعمل والتطوّر والتقدّم

نُكرّم الليالي والنهارات التي أمضيتموها مفكّرين عاملين لرهبانيّتكم وجامعتكم،

نُكرّم تلك المساحات في أعماقكم وقلوبكم وضمائركم، التي أسكنتموها الله والانسان ولبنان...

المطران بشاره الراعي أكّد على القول إنّ يدًا خفيّة بنت الجامعة هي يدُ السيّدة العذراء ويدُ رهبانيّتها ويدُ المجتمع اللبنانيّ.

وإذ أشار إلى أنّ كلّ شيء يحتاج إلى بداية، إلى وجود، أوضح أنّ كذلك كان أمرُ الجامعة؛ فهي فكرةٌ وُجدت في قلب المعاناة اللبنانيّة. بدأت واستمرّت، وصارت ما تصيره النطفةُ أو حبّةُ الخردل... ولولا بيت لحم لما كنّا اليوم هنا كما نحن هنا. بل إنّ كلَّ الآلام، بعد المسيح، هي آلامُ المخاض، لا آلامُ النزاع- كما يقول الكاتب الفرنسيّ بول كلوديل. وإنّا على هذه الحقيقة يجب أن نتطلّع إلى مستقبل لبنان المعذّب المستشهد كلَّ يوم. فينبغي إذًا أن يولد لبناننا الجديد!

الأباتي أنطوان صفير حرص على التذكير أوّلاً بأنّ هذه الجامعة لم تسقط من السماء بمظلّة، ولم تولد بسحر ساحر، بل عانت مخاضًا عسيرًا جدًّا دام تسع سنوات.

وأضاف، بعد بعض التوقّف عند مسار الترخيص: بعد الحصول على الرخصة، بات علينا لزامًا بأن نعمل معًا على تحدّي جميع العقبات والصعوبات والمشاكل الطارئة على سير الأمور من أجل رفع مستوى هذه الجامعة الإداريّ والأكاديميّ والثقافيّ والروحيّ والاجتماعيّ، في سبيل تحقيق غايات وأهداف الجامعة التي من شأنها أن تجمع ولا تفرّق، أن توحّد ولا تشرذم، أن توجّه، ترشد، تنوّر، تحرّر، لترفع من كرامة الطلاّب، ولتزوّدهم بالعلم والمعرفة والأخلاق السامية حتى ينموا ويتساموا ويمتلئوا حكمة فيغدوا أشخاصًا راشدين وناضجين ومثمرين...

الأب بطرس طربيه استعرض بوجدانيّةٍ حقبتين من عمره، هما من عمر الجامعة، يومَ كان في عين الإعصار والنارُ تلتهم الأخضر واليابس والوطنُ مقطّع الأوصال، ويومَ واصل تحدّيات البناء والانتشار وهيكلة الشؤون الإداريّة والأكاديميّة...

وانتهى إلى القول: بالايمان والحبّ والثقة مددت يدي للعاملين في الجامعة.

معًا تقاسمنا الحلو والمرّ. تشاركنا الربح والخسارة.

وفي كلّ شيء كنت أعود إلى ذاتي وأردّد: أنا كاهن. والكاهن خادم الجميع.

وحده التخلّق بأخلاق المعلّم الإلهيّ يشدّني صُعُدًا.

في الذكرى العشرين لتأسيس الجامعة، فرحتي من فرحة من سبقني ومن عمل معي ومن أحبّ هذه الجامعة.

المطران فرنسوا عيد، آخرُ المتكلّمين، قال في أوّل كلامه: إنّ الشعار الأغوسطينيّ الذي أطلقناه على جامعة سيّدة اللويزة: Gaudium de Veritate- فرح التفتيش عن الحقيقة: يحثّ هذه الجامعة الحبيبة وعائلتها على أن تكتشف دعوتها المميّزة كلّ يوم. فهي لم تكن حدثًا مرتجلاً في تاريخ الرهبانيّة، ولا وليدة قرار مزاجيّ، بل خلاصة مسيرة طويلة قامت على توارث المعرفة وتنميتها ونقلها.

بهذا نفهم أنّ قيام هذه الجامعة الحبيبة، تأسيسًا وبناءً وتطويرًا واستمرارًا كان- ولا يزال- جزءًا من صناعة التاريخ، لكن من منطق الله.

لذا، أضاف، إنّ فرحة تكريم رؤساء الجامعة السابقين تكمن في أن نقرأ، بتواضع وتجرّد كاملين، عمل الروح فيهم ومن خلالهم. فالـ NDU كانت موعدًا من مواعيد الروح... وستبقى!

في تكريم رؤساء المدارس ومديريها

في ١٢ أيّار ٢٠٠٧، أقام مكتب القبول في جامعة سيّدة اللويزة حفل استقبال على شرف رؤساء ومديري المدارس الكبرى في لبنان بهدف تأمين التفاعل بين الجامعة والمدارس المختلفة، بمشاركة حوالى ١٥٠ مسؤولاً من مختلف المدارس اللبنانيّة. حضر اللقاء وزير التربية د. خالد قبّاني، والأب المدبّر سليم الرجّي ممثّلاً الرئيس العامّ للرهبانيّة المارونيّة المريميّة ورئيس الجامعة الأب وليد موسى.

بداية رحّب المدير العامّ للعلاقات العامّة في الجامعة **سهيل مطر** بالحضور، مشيرًا إلى أنّ هذا اللقاء «هو جميل بوجوهه المضيئة التي لم يشوّهها دخان العنف والحقد»، مؤكّدًا أنّه «رغم الصعاب، ورغم شقاوة الأيّام، ورغم الأوضاع النفسيّة، لا تزالون، يا أهل التربية، تحافظون على الجوهر، وهو أن لا قيامة لهذا الوطن إلاّ بالتربية».

وألقى رئيس الجامعة **الأب وليد موسى** كلمة نوّه فيها بالجهود التي يبذلها التربويّون، وفي طليعتهم الوزير قبّاني، وبخدماتهم التربويّة ودورهم الثقافيّ في سبيل الخدمة الوطنيّة. وقال: «أنتم والأهل، معًا تعملون، لتقدّموا لنا شبابًا وصبايا، نسعى، بكلّ صدق وعقل، أن نمنحهم الكفاءة والقدرة، على دخول المجتمع، وعلى الانتساب إلى سوق العمل، وعلى قيادة المؤسّسات الاقتصاديّة، وعلى بناء وطن أفضل.

واعترف الأب موسى بأنّ هناك صعوبات كثيرة تعترض طريقنا، في طليعتها الأوضاع السياسيّة والأمنيّة والاقتصاديّة؛ إنّها مفارقة كبيرة نعيشها في لبنان اليوم: جدار كبير يقوم بين ما نعلّمه لأولادنا، وبين ما يرونه ويسمعونه في وسائل الاعلام، وضمن الساحات والقصور». وشدّد على أنّ «دورنا، في هذه الأجواء، أن نلتقي، أن نتعاون، أن نضاعف الجهد، لنرسم طريق التربية الحقيقيّة، لعلّنا نستطيع أن ننقذ أجيالنا الجديدة من هذا التلوّث ومن هذه الأجواء السامّة». وتوجّه إلى الوزير قبّاني قائلاً: «رغم الأجواء الملوّثة، استطعتَ أن تترفّع وتبعد نفسك ومعاونيك، عن هذه البشاعات، وعن هذه المفاسد. معك، نأمل أن تبقى للتربية حرمتها، وأن يتوجّه التعليم العالي نحو التميّز، وأن توضع الأسس الصحيحة للاعتماد والمعادلة والجودة. نعرفك رجل قانون، ولكنّنا نعرف أكثر أنّك رجل محبّة وفكر وإنسانيّة، فليعطك الله العافية والتقدّم».

من ناحيتها، شبّهت مديرة مكتب القبول في الجامعة د. **فيفيان نعيمة** مسؤولي المدارس بـ «الزارع الأوّل حتى مرحلة متقدّمة من النموّ» ومسؤولي الجامعات بـ «الزارع الثاني حتى يوم الحصاد»، مؤكّدة «إنّنا في الجامعة لا نكمل من دون بداية، وأنتم في المدرسة لا تبدأون من دون أمل الوصول؛ إنّها شراكة إنسانيّة بامتياز». وأضافت: «ما جامعة سيّدة اللويزة التي نحتفل بعشرينيّتها اليوم مع اطّراد في النموّ، سوى الدليل الساطع على الأرض الطيّبة المعطاء التي نغرس فيها سويًّا».

وباسم إدارات المدارس المشاركة، شدّد رئيس مدرسة الايست وود كولدج **أمين خوري** على أهميّة التعاون بين الجامعة والمدرسة بهدف تنشئة الطلاّب وتخريجهم ودفعهم إلى الحياة مزوّدين بسلاح المعرفة. ثمّ أشاد بكلمة الأب موسى في الذكرى العشرين لتأسيس الجامعة حيث قال للطلاّب: «مارسوا العمل الوطنيّ الشريف، كيفما شئتم في هذه الجامعة. تثقّفوا سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، ما شئتم، ونحن في خدمتكم وتصرّفكم. أنبذوا التفرقة. إعرفوا أنّ الدولة ليست هي السلطة، وليست هي المعارضة أو الموالاة، بل هي الإطار القانونيّ الدستوريّ الذي يجمعنا جميعًا ويظلّلنا بعلم واحد».

وختامًا، ألقى **الوزير قبّاني** كلمة هنّأ فيها جامعة سيّدة اللويزة على نموّها المطّرد ودورها التربويّ والوطنيّ البنّاء. ثمّ تحدث عن دور الجامعات في بناء المواطن الصالح، لأنّ الجامعة هي أحد المقوّمات الأساسيّة لبناء المجتمع، شرط أن تكون مساحة للحريّة والانفتاح والتفاعل والحوار. واعتبر الوزير قبّاني أنّ ما نسمعه اليوم في الشارع ومن بعض القيادات السياسيّة لا يعبّر أبدًا عن حقيقة لبنان، الوطن الذي لا يحيا إلاّ بالوفاق والحوار والمحبّة. كما رأى أنّ الوطن، وإن كان صعبًا، فهو سيبقى عنوان حضارة لا تموت.

الشبيبة في المجمع البطريركيّ المارونيّ

حلقة بحثيّة

إعداد: الأب جوزف شربل ، د. أنطوان سعد، الأب فادي بو شبل

بدعوة من جامعة سيّدة اللويزة، وبالتنسيق مع الجامعات الشقيقة: الروح القدس والأنطونيّة والحكمة، أقيمت في هذه الجامعة، وبتاريخ ١٢-٣-٢٠٠٧ حلقة بحثيّة حول النصّ الحادي عشر من المجمع البطريركيّ المارونيّ. برعاية البطريرك مار نصرالله بطرس صفير ممثّلاً بالمطران سمير مظلوم. وشارك فيها المطران چي- بولس نجيم وأكاديميّون وباحثون وطلاّب من العمل الرعوي الجامعيّ.

هدف اللقاء إلى توجيه الطلاّب للبحث عن الحقيقة وعن الله؛ وهذا هو الدور الأساسيّ الذي يتقدّم على الدور التعليميّ على ما قال رئيس الجامعة **الأب وليد موسى** في كلمة الافتتاح.

وقد أثنى غبطة **البطريرك**، في رسالته إلى المجتمعين، على اجتماعات الشبيبة برعاية مرشدهم، ما يشجّعهم على القيام بسخاء بما يطلب منهم من تضحيات ويحبّب إليهم العمل في بيئتهم.

الأب جوزف نصّار، المرشد العامّ للعمل الرعويّ في لبنان، الذي طرح الأسئلة الأساسيّة التي تعيشها الشبيبة اليوم والمشاكل التي تعاني منها مثل الفوضى الثقافيّة والضياع على الصعيد الأخلاقيّ والبحث الدائم عن الهويّة والانتماء وفقدان روح النقد العلميّ البنّاء وفقدان الثقة بالنفس والسطحيّة في الأمور وفقدان روح المحاسبة، حذّر من خطر التغرّب على المستوى الثقافيّ الذي يفقد الانسان المسيحيّ دوره

في العالم المحيط به ويصبح في مجال الانحطاط والغربة والتراجع...

وبعد عرض مختصر لمفاصل النصّ الرئيسيّة، قدّمه الأستاذ **سهيل مطر**، تحدّث المشاركون في جلسات ثلاث عن:

١- الشبيبة الموارنة والايمان

الأب كميل مبارك (نائب رئيس جامعة الحكمة) افتتح الجلسة مركّزًا على مسألة الاهتمام بالشبيبة من قبل الكنيسة منذ المجمع اللبنانيّ، منوّهًا بعمق هذه العلاقة، ما يتطلّب التحرّك من جديد لتعزيز وسائل التواصل بين السلطة والقاعدة ... وهذا ما يحاول الجميع القيام به.

الأب هاني مطر الذي تكلّم على التزام الشبيبة، دعا هؤلاء إلى البحث عن الحقيقة وإعلانها وعيشها والتفتيش عن فهم سرّ محبّة الله العظيمة اللامتناهية، مؤكّدًا أنّ شبيبتنا هديّة من الله ونعمة، وهم مدعوّون ليكونوا قدّيسي الألف الثالث.

أمّا انتماء الشبيبة فيتركّز، بحسب **د. يوسف كمال الحاج**، على إنجيل حوار يسوع مع الشابّ الغنيّ، حيث الدعوة إلى ترك كلّ شيء لربح الكنوز الأخرى، ومنها: كنز العمر حيث الأسئلة الصعبة المصيريّة والضمير (وهو المستوى الذي يتلاقى فيه الزمن بالأبديّة- من رسالة البابا يوحنّا بولس الثاني إلى الشبيبة ١٩٨٥)، والدعوة المسيحيّة، ورسوليّة الشباب، والنموّ بأبعاده الثلاثة: القامة والحكمة والنعمة.

ولبلوغ هذه الأهداف، لا بدّ من التنبّه إلى الآفات التي تهدّد الشبيبة، وقد توسّع فيها **الأب جان بول بو غزالة**. ومن هذه الآفات: الانغماس في العالميّة والبدع والتيّارات والتفلّت الجنسيّ والنكسات العاطفيّة وعدم النضوج والفوضى الداخليّة والمخدّرات والالحاد المقنّع وما تحمله وسائل الإعلام، بالإضافة إلى ضآلة فرص العمل والمعاناة الاجتماعيّة والهجرة. فدعا إلى تعزيز حضور الكنيسة إلى جانب الشبيبة.

٢- تحدّيات الشبيبة الموارنة

إنّ قراءة نصّ الشبيبة ينبغي أن تتقاطع مع مختلف نصوص المجمع، باعتبار أنّ الشبيبة لا يشكّلون جسمًا مستقلاً لا في الكنيسة ولا في المجتمع، وإن كنّا نميّزهم فنحن لا نفصلهم. بهذا الكلام استهلّ **الأب بول روحانا**، عميد كلّية اللاهوت في جامعة الروح القدس، رئاسة الجلسة الثانية التي حاولت رصد التحدّيات التي تواجه الشبيبة الموارنة، ومنها:

الانقسامات الكنسيّة، التي رأى فيها الأستاذ **جورج ناصيف** جرحًا في جسد المسيح، وأنّ تجاوز الانقسامات هو رغبة مباركة، وأنّ المحبّة ليست رهينة الوحدة، مضيفًا: وإذا كانوا قد اقترعوا على ثياب المسيح فلا نختلفنّ على جوهره. ودعا، عمليًّا، إلى لقاءات مشتركة بين المنظّمات الشبابيّة الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة في سبيل تحقيق التزام مشترك بينهما على الصعيدين الاجتماعيّ والثقافيّ، مشيرًا إلى أهميّة أن يكتسب الشباب وعيًا مسكونيًّا وليس محليًّا ومحدودًا، فالانقسام يعالج بحوار جدي مسكونيّ متواصل.

الكنيسة بين الاصلاح والثورة: حيث رأت الدكتورة **ميرنا مزوّق** أنّ المرحلة الشبابيّة هي مفصليّة وليست انتقاليّة، وتفتقر إلى مرافقة مسيحيّة بنيويّة ومتخصّصة. ودعت إلى إحياء البعد الانسانيّ والرعويّ في المؤسّسات الكنسيّة، وإلى تعزيز التثقيف الدينيّ وأهميّة الانتقال مع شبابنا من الايمان الطائفيّ إلى الطائفيّة الايمانيّة.

الدكتور **أنطوان سعد** الذي قرأ في تجلّيات العولمة، في إيجابيّاتها وسلبيّاتها، تساءل عن كيفيّة العمل على قبول هذه الايجابيّات في حياتنا وفي نظامنا القيميّ من جهة، وعلى مواجهة تهديداتها ومخاطرها من جهة أخرى. وقال إنّ المطلوب وحدة لا أحاديّة، من دون تقوقع يؤدّي بنا إلى الاختناق، ومن

دون تنازع يؤدّي بنا إلى الانقسام. فالمطلوب التشبّث بالقيم فنسهم من خلال إنجيلنا- وهو أوّل وأهمّ وأصدق مظاهر العولمة- في تحويل ديناميّتها إلى مشروع بناء الانسان والمجتمع.

٣- الشبيبة الموارنة والسياسة

موضوع السياسة وخدمة الشأن العامّ يتقاطع مع ما أورده بطاركة الشرق الكاثوليك في غير رسالة رعويّة، على ما لاحظ **الأب أنطوان راجح** رئيس الجامعة الأنطونيّة.

هذا النصّ وضع إصبعه على جراح اختصرها **الأب جوزف بو رعد** بثلاثة: الفوضى الثقافيّة، أي: إتباع موضة العصر من دون تمييز؛ الخلط بين العلم والثقافة حيث كثر المتعلّمون وقلّ المثقّفون؛ وعدم تناسب ثقافة الشباب المثقّفين مع عملهم، والمطلوب أن يكون عندنا علم يسمح لنا أن نكون أبناء عصرنا وثقافة تخرجنا من الظرفيّة والآنيّة.

وفي الحديث عن الشبيبة والعيش المشترك، رأت الأستاذة **باسكال لحّود** أنّ العيش المشترك ليس قيمة جماليّة ولا هو حالة تجاوريّة، بل هو تفاعل أساسيّ بين المسيحيّة والإسلام. وتساءلت: إذا كانت الشبيبة المارونيّة ستستمرّ في مقاربة الوضع اللبنانيّ ككهول الموارنة وشيوخها ومراهقيها، فما نفع كونها شبيبة؟ قوّتها وفرادتها في قدرتها على إعادة صياغة المسائل والمفاهيم واختراع الحلول من خارج «المرّ والأمرّ منه».

وعالج الأستاذ **داود السويدي** الوضع الاقتصاديّ من خلال النصّ المجمعيّ. وسلّط الأضواء على رسالة الكنيسة ودورها في هذا الملفّ، والجهود الحثيثة التي تبذلها من أجل حدّ الأزمة الاقتصاديّة، وتوفير الفرص من خلال إقامة مشاريع إنمائيّة واجتماعيّة واستثمار الأوقاف الكنسيّة من أجل مساعدة الشبيبة للبقاء في الوطن والتعاون في الحقل التطوّعيّ داخل المنظّمات والحركات الرسوليّة.

وكان للشبيبة موقف عبّروا فيه عن تطلّعاتهم وآمالهم وانتظارتهم.

الطالبة **جيزيل نجيم**، من جامعة الحكمة- كليّة اللاهوت، تحدّثت عن أهميّة ودور العقل في مسيرتنا الايمانيّة، التي يجب أن تعتمد عليه أكثر من العاطفة، لندرك مفهوم إيماننا.

أمّا الطالبة **باميلا شمالي** من جامعة سيّدة اللويزة فتحدّثت عن محبّة الله لنا والكنيسة التي هي أمّ ومعلّمة وخادمة لأحلامنا، معتبرة أنّ العمل الرعويّ الجامعيّ يساعدنا

لندرس أكثر أعمال المجمع البطريركيّ وللانتقال من التتلمذ النظريّ إلى العيش الفعليّ. ودعت الرعاة الكنسيين ليكونوا قريبين من الشبيبة أكثر فأكثر.

وكانت مداخلة للدكتور **سمير خوري** حول إحصائيّات وأرقام تظهر نسبة الانتماء إلى الكنيسة والرغبة من التقرّب من رعاتها. وطالب المسؤولين في الكنيسة أن يثقّفوا شعب الله بحقيقة الايمان، مبتعدين عن السطحيّات والقشور والعواطف ومتغاضين عن الجوهر. ورأى إلى الانقسامات في الكنيسة بأنّها كانت على ثياب المسيح، وليس على جسد وحقيقة المسيح «الذي لم يكسر له عظم».

وآخر المداخلات كانت للشاب **ماريو أبو زيد** من جامعة الحكمة، الذي شدّد على الربط بين الايمان والأعمال بحيث ننتقل من الأنا إلى النحن داخل الجامعة المسيحيّة الواحدة. وأكّد على الركائز الثلاث لرسالة المسيحيّ اليوم وهي: الحريّة والانتماء والمسؤوليّة تجاه الكنيسة والوطن. لأنّنا كشبّان مسيحيين لنا صخرة في هذا الوطن هي صخرة الايمان الذي هو غاية وأساس وجودنا ورسالتنا في هذا الشرق. وأمام المسؤوليّات الكبرى التي تواجه الشبيبة اليوم للبقاء والاستمرار، الدعوة للمحافظة على هويّتنا التاريخيّة ودورنا في رسالتنا كشهود حقيقيين للربّ في هذا الشرق.

وفي الختام، نستعيد ما جاء في كلمة **المطران چي- بولس نجيم** من «انّ التقدير الذي ينعم به وطننا على الصعيد العالميّ يعود إلى كونه أرض تلاق، ما يدعونا نحن المسيحيين، أبناء الرجاء والأخوّة الشاملة، إلى عدم الاستسلام لليأس. فلبنان الذي هو درّة ثمينة في فسيفاء الدول، لا عجب إن تتطلّب تحقيقه ونموّه تضحيات جسامًا».

وتوجّه إلى الشباب الجامعيين قائلاً: «لا تتعبوا من لبنان ومن رسالته، ولا تقبلوا أن يؤمن به آخرون أكثر ممّا تؤمنون أنتم به وتحبّونه».

وختم قائلاً: «كونكم لبنانيين يعني أنّ الله اختاركم لمسؤوليّة تاريخيّة كبيرة وصعبة وجميلة في آن. إنّه وضع ثقته بكم، وهو يناضل بقربكم وفيكم من أجل محبّي السلام في العالم، وهم يترقّبون بشغف نجاحكم».

توجّهات مبدئيّة

- دور المؤسّسات التربويّة الكاثوليكيّة في مساعدة التلامذة الطلاّب على البحث الدائم عن الحقيقة «الله» أكثر من البحث العلميّ المحض. ولهذا تجب إعادة النظر في سبل تدريس التعليم المسيحيّ وبالوسائل الآيلة إلى الارتباط بالكنيسة بدل الابتعاد عنها.
- مرافقة المرشدين للشبيبة يحثّهم على تقديم المزيد من التضحيات في سبيل الكنيسة والوطن.
- حثّ الشبيبة على عدم التغرّب الثقافيّ الذي يفقدهم دورهم الأساسيّ في العالم المحيط بهم.

▪ التفاعل الدائم بين السلطة الكنسية والقاعدة الشعبيّة من خلال دور الشبيبة. وذلك يستوجب إزالة علامات الاستفهام القائمة.

▪ الشبيبة هديّة من الله ونعمة. ودعوتهم الدائمة تكمن في التفتيش عن فهم سرّ محبّة الله اللامتناهية لهم.

▪ الدعوة الحقيقيّة لكلّ شابّ وصبيّة هي في اكتشاف كنز العمر، حيث الأسئلة الصعبة المصيريّة، والضمير حيث يتلاقى الزمن بالأبديّة، والنموّ في القامة والحكمة والنعمة على مثال الربّ يسوع.

▪ تعزيز اللقاءات والأنشطة المشتركة بين مختلف أبناء الكنيسة (الشرقيّة والغربيّة)، لأنّ المحبّة ليست رهينة الوحدة، والمسيح أهمّ من الطوائف، والايمان أصدق من الدين.

▪ المرحلة الشبابيّة هي مفصليّة وليست انتقاليّة، وهي تفتقر إلى مرافقة مسيحيّة بنيويّة ومتخصّصة.

▪ إحياء البعد الانسانيّ والرعويّ في المؤسّسات الكنسيّة وأهميّة الانتقال مع شبابنا من الايمان الطائفيّ إلى الطائفيّة الايمانيّة.

▪ فيما يخصّ العولمة، المطلوب الوحدة لا الاحاديّة لتفادي التقوقع والتنازع، وللعمل على بثّ روح الانجيل في الثقافات والحضارات المتنوّعة، لأنّ الانجيل أهمّ وأصدق مظاهر العولمة.

▪ المطلوب أن يكون عندنا علم يسمح لنا أن نكون أبناء عصرنا وثقافة تخرجنا من الظرفيّة والآنيّة.

▪ العيش المشترك ليس قيمة جماليّة ولا حالة تجاوريّة، بل هو حالة تفاعل أساسيّ بين أبناء الوطن الواحد.

▪ إنّ قوّة الشبيبة وفرادتها تكمن في قدرتها على إعادة صياغة المسائل والمفاهيم واختراع الحلول من خارج «المرّ والأمرّ منه».

▪ دعوة ملحّة لاستثمار أوقاف الكنيسة وإقامة المشاريع الانمائيّة للحفاظ على الشبيبة في أرض الوطن.

▪ تغليب العقل على العاطفة في مسيرة الايمان ضمانة للاستمراريّة، وللوصول إلى اعتناق الحقيقة كما هي.

▪ تركيز الرعاة على حقيقة الايمان وعقيدته في تثقيف الناس بعيدًا عن السطحيّات والقشور.

▪ الانتقال من الأنا إلى النحن داخل الجماعة المسيحيّة الواحدة.

▪ صخرة المسيحيّ في هذا الوطن هي صخرة إيمانه.

▪ لبنان أرض التلاقي، ومسيحيّوه أبناء الرجاء والأخوّة الشاملة مدعوّون إلى عدم الاستسلام لليأس، لأنّ بلدنا درّة للعالم؛ وهذا ما يفرض علينا موجبات جسامًا.

▪ الدعوة إلى عدم التعب من لبنان ومن رسالته، لأنّ الله اختارنا لمسؤوليّة تاريخيّة كبيرة وصعبة وجميلة في آن، وهو يناضل قربنا وفينا لنحقّق الدور الأساسيّ في وطن الرسالة لبنان.

دورة تثقيفيّة

المجتمع المدنيّ بين أزمة الهويّات والعولمة

الأب بولس وهبه

ما تزال جامعة سيّدة اللويزة منشغلة في مقاربة موضوع هو أقرب إلى الإشكاليّة، عنيت به "المجتمع المدنيّ"، أو، كما يحلو للبعض أن يسمّيه "المجتمع الأهليّ". وفي هذا السياق، نظّم المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة دورة تثقيفيّة بتاريخ ١٥ و١٦ و١٧ آذار ٢٠٠٧ حول المجتمع المدنيّ بين أزمة الهويّات والعولمة، تنادى فيه بعض الاختصاصيين والمنشغلين في قضايا المجتمع الأهليّ وقضاياه إلى سبر أغوار هذه المسألة ومناقشتها.

أنطوان قربان

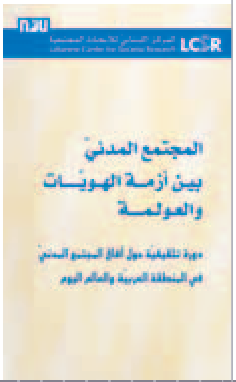

شملت المناقشات عرضًا لنشوء وتطوّر المجتمع المدنيّ الأهليّ في الغرب كما في العالم العربيّ، وصولاً إلى لبنان ومقاربات لبعض إشكاليّاته، إضافةً إلى خبرات بعض الذين يحاولون لعب دور فاعل فيه من خلال عملهم الشخصيّ أو عبر المؤسّسات التي يمثّلون.

افتتح المؤتمر مدير المركز **عبدو القاعي** بطرح إشكاليّة الوصول إلى المجتمع المدنيّ، داعيًا إلى الارتقاء بالثقافات إلى الحيّز المدنيّ الديمقراطيّ. وفي هذا السياق شدّد د. **أنطوان مسرّة** على أنّ العرب هم في انتظار دائم لحلٍّ أو لحدثٍ ما، ملقيًا بعض اللوم على الأنظمة العربيّة التي ساهمت في تعميم هذا التبرير، داعيًا إلى تنمية ثقافة المساهمة عبر بثّ القيم المدنيّة في كلّ شرائح المجتمع، إضافة إلى بثّ الوعي في الناس لناحية حقوقهم المدنيّة. وقد تلاقى معه د. **فريد الخازن** في تسليط الضوء على الصراع بين المجتمع المدنيّ والدولة في العالم العربيّ، كاشفًا أنّ مؤسّسات المجتمع المدنيّ لم تستطع فعل الكثير بسبب غياب التراكم المعرفيّ. ولفت الخازن إلى أنّ حالة لبنان الخاصّة جعلته دولة ليبيراليّة، هي مصدر غنى وخلل في الوقت عينه لناحية حيويّتها التي تحاول الانتقال به إلى أن يكون مجتمعًا مدنيًّا فاعلاً.

وقد تلاقى د. **ميشال نعمه** ود. **شاهين غيث** على ضبابيّة تحديد المفاهيم والمدلولات والتعابير المتعلّقة بالمجتمع المدنيّ الأهليّ. فيما قال د. **نعمه** إنّ المجتمع المدنيّ يتوجّه إلى الأفضل في مواطنيّة لخلق مجتمعات عادلة عبر قيم التسامح والتعاون التي تبثّها الجمعيّات غير الحكوميّة (NGO's) بناء على الذاكرة المتراكمة الجماعيّة، لفت د. **غيث** إلى أنّ التضارب بين الانتماء المواطنيّة إلى الدولة وغيرها من الانتماءات، يجب أن يزدوج مع التنمية الاقتصاديّة التي تؤدّي إلى مجتمع مدنيّ فاعل. وشدّد نعمه على أنّ الثقافة المدنيّة تؤدّي إلى مجتمع المدنيّ في لبنان ينبغي أن يعمل على تطوير مناعته من خلال

فريد الخازن

ثقافة الاتّفاق والتآزُر. وقد علّق القاعي على هذا بالقول إنّ الديموقراطيّة، تعريفًا، هي تحدّي الوضع القائم.

○ | د. **سامي مكارم** غاص أيضًا في تعريف المفاهيم، مشدّدًا على أنّ الإنسان الحرّ هو من خلق العبوديّة فيما الحقّ هو إحكام الشيء وصحّته، مستخلصًا أنّ الحقّ مرتبط بالحريّة، وأنّ الإنسان يكتمل ببلوغ الحقّ والحريّة فيما التعدديّة هي حركة التكامل لا التآمر. وقد طرح مكارم مفهومًا جميلاً بقوله إنّ كمال الفرد هو المجتمع، وأنّ كمال المجتمع هو الدولة؛ فالمجتمع يحقّق كماله عبر ضمان حريّاته، فيما وظيفة الدولة هي خلق المواطن الحقّ الحرّ.

○ | وقد تآلف مع هذا الطرح ما عرضه د. **نديم سالم**، الذي شدّد على أنّ المجتمع المدنيّ هو طريق العبور إلى التشاركيّة الوطنيّة بعيدًا عن الولاءات الدون-وطنيّة، التي تُضعِف الانتماء إلى الأمّة، ويساهم فيها الضعف والفقر.

○ | أمّا د. **مصطفى أديب** فقد لفت إلى أنّ حيويّة المجتمع المدنيّ تقاسي من خلال مؤشّرات العمل المدنيّ العامل من خلال المنظّمات المدنيّة، التي هي المؤشّر على تطوّره، والتي يشكّل تنافُسها دليلاً على هذه الحيويّة. وكدليل على هذه الحيويّة، قدّم د. **ملحم خلف** عرضًا، اغتنى بتجربته الهامّة والفاعلة على مستوى لبنان من خلال منظّمة «فرح العطاء»، التي ساهم في تأسيسها. شدّد خلف على أنّ تربية الإنسان اللبنانيّ (والعربيّ عامّة) تعيده دائمًا إلى الخوف والقلق، ولا تُعلّمه المواجهة والنظر إلى الأمور في أحجامها الحقيقيّة. وقد سأل، في هذا الإطار، عن كيفيّة إرساء الرجاء لمحاربة الخوف الذي لا يمكن التغلّب عليه إلاّ من خلال تفكيك التقنيّات الخاصّة به. كما لفت خلف إلى أنّ المعنى الأساسيّ للوجود هو عبر الالتقاء بالآخر، داعيًا إلى اكتشاف ما هو جميل فيه عبر تخطّي الاحترام نحو الحبّ، وإلى استحداث مشروع مشترك معه يساهم في التغيير المتبادل ويكبح جماح الخوف. وقد ختم عرضه بالتشديد على أنّ التربية يجب أن تكون مرتكزة على التجربة المعاشة التي تتعامل مع تجارب الآخرين المُعاشة.

○ | د. **أنطوان قربان** لفت إلى أنّ مشروع المدنيّة هو ظهور لمشروع عقلانيّة الإنسان المفتوحة على كلّ الاحتمالات. وقال إنّ هاجس الهويّة يتعاظم عندما تكون الألفة مع الماضي أكثر في الألفة مع الحاضر، مشدّدًا على أنّ المدنيّة هي عبور بالإنسان إلى أن يكون كائنًا سياسيًّا، وأنّ هذا هو المعبر لكي يصير الإنسان كائنًا روحيًّا. أمّا **السيّد هاني فحص**، فقد أكمل التحدّي الذي طرحه قربان بالتشديد على انّ التحدّي هو أن تمارس الدولة دورها كأداة اجتماع، داعيًا إيّاها إلى أن تكون حاضنة من حيث هي جامعة. كما دعا فحص إلى ضرورة اكتشاف الجوامع بين المختلفات، وهو ما أشار إليه د. **وجيه قانصو** بقوله إنّ الآخر هو البعد الوجوديّ للإنسان، وأنّ فضاء وجود الآخر هو فضاء إنسانيّ يقوم على الاختلاف. كما أشار قانصو إلى أنّ فضاء المدينة هو فضاء الاختلاف، وإلى أنّ للقيم قيمة ومعنى في المدينة حيث تتجسّد أخلاق الفرد من خلال الآخر الذي يتعامل معه، منتهيًا إلى أنّ الحاجة الماسّة تكمن في «تمدين الأخلاق وتخليق المدينة».

نستخلص من مجمل ما عرضناه وعورةَ السلوك في إشكاليّة «المجتمع المدنيّ الأهليّ»، وفي ما يؤدّي إلى توضيحها أو ما ينتج عنها من تضارب في التعريفات أو المقاربات. إلاّ أنّ اللافت في هذه الدورة التثقيفيّة هو تآلف المحاضرين ضمن سياق أو نسق متقارب لناحية الاعتراف بهذا الغموض كما لناحية التشديد على أهميّة العمل على تفعيل ديناميّات المجتمع المدنيّ الأهليّ. فهم اتّفقوا على ضعف الدولة الديموقراطيّة التي يُحدث غيابها الكثير من العلل والنواقص، لا تستطيع منظّمات المجتمع المدنيّ الأهليّ سدّها أو التعويض عنها.

وقد لفت في هذا السياق نقاش دار بين الحاضرين من الطلاّب وسواهم حول الوضع الطائفيّ أو الطوائفيّ في لبنان لناحية الاعتراف به أو بدور له سلبيّ أو إيجابيّ أو لناحية العمل على ترسيخه أو العمل على إضعافه في سبيل التواصل إلى المزيد من المواطنيّة والعدالة. وقد أشار هذا النقاش، الذي نسوقه كمثل، إلى أهميّة الاستمرار في طرح ومقاربة موضوع الدورة على مختلف المستويات في لبنان والعالم العربيّ، بغية تعميق الثقافة والوعي، وتفعيل التربية على أهميّة دور الفرد والمنظّمات التي يساهم الأفراد في إنشائها أو الانضواء تحت لوائها. وما المثال الذي قدّمه لنا د. ملحم خلف من خلال مساهمته في جمعيّة «فرح العطاء»، إلاّ دليل على أنّ للفرد الملتزم طاقة لا حدود لها.

▲ هاني فحص، وجيه قانصو

▲ مصطفى أديب، ملحم خلف

▼ سامي مكارم، شاهين غيث، نديم سالم

مؤتمـر

أين ذهب المجتمع.. اللبنانيّ؟
المواطنيّة بين الهويّة والعولمة

الأب وهبه

يدأب المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة في توظيف طاقاته البحثيّة في مختلف الجوانب المتعلّقة بالمجتمع والمواطن والمواطنيّة، محاولاً صقل تصوّر عمليّ للولوج في هذه الإشكاليّة المثلّثة الأبعاد، المتكوّنة في إطار العلاقات المتشابكة بين المواطنيّة والهويّة والعولمة، بالتعاون مع باحثين واختصاصيّين وعاملين في هذا الإطار. وفي هذا السياق، نظّم المركز، في ٢٩ و٣٠ و٣١ آذار ٢٠٠٧، مؤتمرًا تحت عنوان «**أين ذهب المجتمع... اللبنانيّ، المواطنيّة بين الهويّة والعولمة**»، اكتسب بعدًا دوليًّا باشتراك إينياسيو رامونيه رئيس تحرير جريدة موند ديبلوماتيك، والبروفيسور جاك بوشار من جامعة باريس ٢، إضافة إلى نخبة من أهل الاختصاص والخبرة من الجامعة، حاضنة المركز والمؤتمر، ومن خارجها.

اللافت الأوّل في المؤتمر عنوانه، حيث فصل بين كلمتي «المجتمع» و«اللبنانيّ» نقطتان أوحيتا بإشكاليّة الإطار، الذي حاولت كلمات وأبحاث المؤتمر تلمّسه وملأه. هاتان النقطتان أشارتا إلى إبهام المصطلح، وإن لم تشيرا إلى إبهام الكلمتين، وإن لعبتا على صعوبة الوصول إلى المعنى النهائيّ لهما. هل هناك «مجتمع لبنانيّ»؟ وما هو المقصود بكلمة مجتمع؟ وما هو تحديد كلمة لبنانيّ؟

هذه العبارة وهاتان النقطتان كانت بارزة في كلّ ما طُرح ودار في المؤتمر، والتي لخّصها مدير المركز **عبدو القاعي** في مقدّمته بالقول إنّه يحاول طرح الارتباكات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، التي تخلّ بالتوازنات المجتمعيّة في عالمنا المعاصر، في

▲ دميانوس قطّار، شاهين غيث، فرنسوا فرح

▼ جاك بوشار، إينياسيو رامونيه

تفاعلها مع التوجّهات التي تنحى إليها كلٌّ من الدول التي نهجت أسلوب الحداثة، والدول التي التبس عليها هذا النهج والتي تتلمّس توازنات جديدة، مع العلم أنّ مجمل هذه الدول هو في وضع يتغلّب فيه التفكّك الاجتماعيّ على التلاحم البنيويّ.

وامتدادًا لهذا، طرح القاعي مشروعًا طموحًا في محاولة للتوصّل إلى تصوّر الرؤى والمنظورات الإنسانيّة: المدنيّة والروحيّة... لفهم حركيّة النزاع القائم في هذا المجتمع اللبنانيّ.. بغية التطرّق إلى الوسائل والصيغ الملائمة لمواجهة الديناميّات الجماعيّة القائمة في العالم المعاصر، توصّلاً إلى إعادة بناء دولة ومجتمع الغد.

○ | وبعد شحذ المؤتمر بثورةٍ دعا القاعي جميعَ الباحثين إلى تبيّنها بقوله إنّ «الباحث هو ثوريّ» من حيث هو في امتداد مستمرّ إلى الآخر وإلى المعرفة، طرح **إينياسيو رامونيه** إشكاليّة المجتمع والعولمة بسؤاله: «هل المجتمع عائق أمام العولمة؟»، التي صارت تمسّ كلّ شيء في المجتمع من حيث هي اعتماد متبادل وتبادل مستمرّ، العاملُ الأساسيّ فيها هو الاقتصاد الذي يطرح السوق بدل الديموقراطيّة والمنافسة كحالة دائمة، بحيث تحكم الأسواق السياسة وتؤدّي إلى استعمار اقتصاديّ؟! رامونيه دعا إلى إعادة صياغة النموذج الديموقراطيّ لكي يتكيّف مع هذه المتغيّرات بحيث يمكن للمواطن إيجاد طريقة وسطى تسمح له بأن يكون مواطنًا مشاركًا.

○ | **د. أمين أ. الريحاني** سأل: «هل فكرة الإنتماء محصورة بالهويّة؟»، ودعا إلى عدم الاستقالة «من العولمة بحجّة أنّنا نحن الضعفاء وهم الأقوياء»، مشدّدًا على وجوب إثراء الحسّ المدنيّ العامّ بحيث يقوى على الصمود أمام العواصف السياسيّة المحليّة والإقليميّة والدوليّة، قائلاً إنّ «مسألة المطابقة أو المعادلة بين الهويّة والعولمة هي بالدرجة الأولى مسألة أخلاقيّة»، وإنّ «الشأن الخلقيّ هو شأن عقلانيّ في آن». كما شدّد على أنّ للحريّة بعدًا جماعيًّا إلى جانب بعده الفكريّ. تلا الريحاني البروفسور جاك بوشار، الذي سلّط الضوء على اللحمة أو الوحدة السياسيّة «للموازين»، التي تآلفت مكوّناتها لتصبح «الدولة»، قائلاً إنّ الحدود الجغرافيّة لا تصنع وحدة أو هويّة أو تضامنًا، وإنّ غياب الخطاب المتعلّق بالنظام المُدُنيّ أدّى إلى ضعضعة البناء المدينيّ التقليديّ، داعيًا إلى إعادة تكوين اللحمة الاجتماعيّة إنطلاقًا من كلمة العناصر المكوِّنة للمدينة المعاصرة التي سمّاها هو «المدينة – العالم».

○ | «الانصاف شرط، والعدالة ممارسة»، صرخة أطلقها **د. فرنسوا فرح**، مشدّدًا على أنّ الاقتصاد يجب أن يكون مبنيًّا على سياسة اجتماعيّة واضحة وعادلة، تسعى إلى تعزيز التنمية وإلى معالجة التهميش في النظام الاقتصاديّ-السياسيّ، بحيث تتأمّن سهولة الحصول على الخدمات والاجتماعيّة وإلى الفرص التي يجب أن تكون متاحة للجميع

▼ عبدو القاعي، جوزف عجمي، جورج مغامس

▲ ڤيڤيان نعيمة

ضمن ضوابط عادلة. **د. دميانوس قطّار** أكمل في هذا الاتّجاه، مشدّدًا على أنّ العولمة هي كسرٌ لحدود الدولة الوطنيّة، داعيًا إلى التشديد على أهميّة الوطن الذي يغلب الانتماء إليه مجرّد الانتماء إلى الدولة، من حيث أنّه حاضن لجميع أبنائه بطريقة عادلة.

وفي حلقة أخيرة ركّز **الأستاذ جورج مغامس** على المفاصل القلميّة التي شذّبت المفهوم المواطنيّ اللبنانيّ في إطارية المشرقيّ والعالميّ، مشيرًا إلى الملامح الفنيّة، الأدبيّة منها والشعريّة، التي رُسمت من خلالها صورة لبنان المحاور بين مشرق الأرض ومغربها، والداعي إلى إقامة وطن يتلمّس الخَلقَ طريقًا والعنايةَ الإلهيّةَ رجاء. واستطرد متفائلاً لمصير الوطن رغم التناقضات والتفجّرات القائمة حاليًّا.

أمّا **د. ڤيڤيان نعيمه** فقد تناولت تجربة أبحاث الشأن العامّ في جامعة سيّدة اللويزة، كما وتوجّهات الأبحاث المجتمعيّة اللاحقة، فأظهرت المفاصل التي مرّت بها هذه التجارب البحثيّة مشيرة إلى المنافذ التطبيقيّة التي يمكن الولوج منها إلى إعادة بناء المجتمع اللبنانيّ في السنوات المقبلة.

وفي نظرة إلى الحالة المدينيّة الراهنة في لبنان، إنطلاقًا ممّا يحدث في وسط بيروت، حاولت **البروفسورة ليليان بوكيانتي بركات** تحليل الواقع الأليم الذي يمرّ به المجتمع اللبنانيّ راسمةً إيّاه كمرآة للنظام المدينيّ الجديد الذي يعبره.

وفي ما يعود لحالات النزاع ولديناميّة التكتّلات الاجتماعيّة التي رافقتها خلال الحروب في لبنان منذ ١٩٧٥ وإلى الآن، فقد شارك في التحليل كلّ من السادة: **د. ميشال نعمه، ود. منصور عيد، ود. أنطوان مسرّة، ود. نصري الصايغ**، فتطرّقوا إلى التحوّلات التي مرّ بها النزاع اللبنانيّ من أجل بناء تسويات موقّتة في إطار النزاعات القائمة منذ أكثر من ٣٥ سنة بوجهيها الشرق الأوسطيّ والعالميّ.

أنطوان مسرّه

منصور عيد

ليليان بوكيانتي بركات

ميشال نعمه، نصري الصايغ

التنشئة على مواجهة العنف

ندوة

«العنف حالة الإنسان، والسلام مبتغاه»

عنوان ندوة نظّمها المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة في جامعة سيّدة اللويزة، بالتعاون مع كليّة العلوم الإنسانيّة - قسم العلوم السلوكيّة والاجتماعيّة في الجامعة والتجمّع النسائيّ الديمقراطيّ اللبنانيّ، حول التنشئة على مواجهة العنف، في ٢٠ نيسان ٢٠٠٧.

في افتتاح الندوة، أشار **د. منصور عيد** إلى أنّ أهميّة الطاولة المستديرة هي في المشاركة الطلاّبيّة في الحوارات والمناقشات، وفي إبداء آرائهم بصراحة ووضوح وثقة. وتطرّق **السيّد عبدو القاعي** إلى أنّ مسألة العنف هي حالة إنسانيّة متجذّرة في الطبيعة البشريّة، تجعل من الإنسان كائنًا عدائيًّا يحاول أن يكتسب القوّة لذاته، وأن يسلب الآخر هذه القوّة. لكنّ العنف هذا، المتأصّل في الإنسان، تواجهه في عمق الذات الإنسانيّة دعوةٌ إلى تحقيق إنسانويّة الإنسان عبر تفهّم الآخر ومصالحته ومحبّته.

ثمّ انعقدت الجلسة الأولى حول إشكاليّات العنف في لبنان والعالم وسبل ومعالجته، فتناول فيها **د. بولس سرّوع** ثلاثة مشاهد عنفيّة من الكتاب المقدّس عن ثلاث نساء، هنّ: هاجر المصريّة التي تعرّضت للطرد وإمكانيّة الموت في الصحراء، ومريم المجدليّة التي رُجمت، ومريم أمّ يسوع التي عُذِّب ابنها وصلب أمام ناظريها. وخلص من ذلك إلى أنهنّ يمثّلن ظلم المجتمع للمرأة. وتطرّق **الأب د. أكرم خوري** إلى الناحية القانونيّة في الكنيسة الكاثوليكيّة، فأكّد أنّ القوانين تبطل الزواج بالاكراه وتعتبره غير صحيح، وأنّ المحاكم الكنسيّة تبقى المدافع الأوّل عن المظلوم والمعنّف. كما نبّه إلى مخاطر الزواج المبكر وفارق العمر بين الزوجين، واعتبر أنّ المسبّب الأوّل لمشكلات العنف الأسريّ إنّما هو الأوضاع الاجتماعيّة والضغوط النفسيّة والمعيشيّة.

وتناولت الجلسة الثانية موضوع العنف ضدّ المرأة في لبنان وسبل معالجته، فشارك فيها د. ضومط سلامة والسيّدة كارولين صليبي والأب د. بولس وهبه. **سلامه** تحدّث عن الاتفاقيّة الصادرة عن الأمم المتّحدة سنة ١٩٧٩ تحت عنوان «اتفاقيّة القضاء على جميع أنواع التمييز ضدّ المرأة»، فأبرز النواحي التفصيليّة فيها، مشيرًا إلى أنّ لبنان تحفّظ عليها، قبل أن يعود ويقرّها عام ١٩٩٦ أي بعد أن نفّذتها أكثر الدول العربيّة. أمّا **الأب بولس وهبه** فشدّد على أنّ للعنف أسبابًا اجتماعيّة تتعلّق بالتربية التي يتلقّاها الانسان في صغره؛ فالعنف يتولّد من داخل الانسان عندما يعجز عن مواجهة الأمور بالحوار، مشيرًا إلى أنّه قد يكون بالصمت كما قد يكون بالكلام والجسد. ودعا الطلاّب إلى التحلّي بالروح النقديّة والانفتاح على الآخرين والتفاعل مع ما تغتني به نفوسهم من الجمال والأخلاق.

أمّا السيّدتان **كارولين صليبي وبريجيت شالبيان** فأشارتا إلى أنّ حالات العنف تمظهرت عبر التاريخ وكأنّها متركّزة حول ضحيّة كبرى هي المرأة. وقد تمّت مواجهة هذه النـزعة المتأصّلة في الإنسان إنطلاقًا من النشاطات التي قامت بها المجتمعات البشريّة، وبخاصّة منذ منتصف القرن العشرين، من أجل تحرير المرأة من قيود الذكوريّة، ومن كبت المجتمعات البشريّة لها كعنصر فاعل ومنجّ وكفوء وقادر على التساوي مع الرجل في مجالات الحياة.

وفي الأبحاث والمناقشات أعطيت أمثلة عديدة تمثّل هذه النزعة الانفعاليّة في الإنسان، وتظهر الإمكانيّات المتاحة فرديًّا وجماعيًّا لمواجهتها. وقد أشار **السيّد عبدو القاعي** إلى أنّ المواجهة هذه تسمح بإظهار صفحة أخرى من صفحات الطبيعة الإنسانيّة، وهي الصفحة الاندفاعيّة التي يتبلور الإنسان من خلالها كمجاهد من أجل بناء إنسانيّته عبر التمرّس بآخَريّته وأخلاقيّته في مختلف مجالات الحياة.

وفي خلاصة الطاولتين، أظهرت المناقشات أنّ العنف الذي يمارسه الإنسان دفاعًا عن أنانيّته، لا تمكن مواجهته إلاّ بعنف أكبر، على الإنسان أن يلتزم ممارسته، وهو العنف على الذّات الإنسانيّة التي تكبّله، للانفتاح على الذات الآخريّة التي تحييه، والتي هي ذات الحبّ والسلام لصالح الضعفاء والمكبّلين في حقوقهم ومصالحهم.

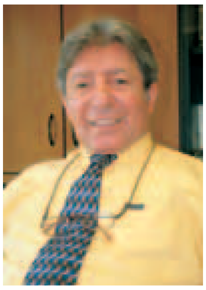

Kawakibi Democracy Transition Center
مركز الـكـواكـبي للتحولات الديمقراطية

د. أمين البرت الريحاني

الاصلاح الديمقراطيّ في العالم العربيّ (١)

تتنامى المنظّمات العربيّة الباحثة عن تطوير المواطنيّة، وحقوق الانسان، والاصلاح الديمقراطيّ ودور المؤسّسات الحكوميّة وغير الحكوميّة في هذا المجال. لكنّ ورشات العمل، ضمن هذا الاطار حتى اليوم، ما تزال تواجه عددًا من الاشكاليّات، أبرزها: الاكتفاء بطرح الشعارات من دون التطبيق، ضعف التواصل بين القطاعين العام والخاص في هذا الاتجاه، كيفيّة الانتقال من مستوى الشعارات إلى مستوى التنفيذ، وكيفيّة توليد الثقافة الديمقراطيّة وتفعيلها.
ويبدو أنّ محورًا رئيسًا من محاور المعالجة الفعليّة للاصلاح الديمقراطيّ في العالم العربيّ يكمن في توحيد لغة التعامل، ولغة التواصل، والاصلاح، وصولاً إلى لغة التغيير المنشود في تحقيق ديمقراطيّة النموّ الطبيعيّ في المجتمعات العربيّة. وتقتضي اللغة المقترحة الموحّدة الاتفاق على المعنى المشترك للمفردات الرئيسة التي تتشكّل منها ورشة العمل الديمقراطيّ. من تلك المفردات: العدالة، السلم، استقلاليّة القضاء، الأمن الانسانيّ، حقوق الانسان، المنظّمات غير الحكوميّة...
وقد يكون مفيدًا اليوم الدعوة إلى الكفّ عن تكرار الشعارات، والكفّ عن تكرار التوصيات المتشابهة والمتوازية في مؤتمرات المجتمع المدنيّ، ولاسيّما أنّ أحدًا لا ينكر أو لا يناهض أهميّة تلك الشعارات أو تلك التوصيات. أين إذًا يكمن السؤال؟ السؤال في البحث عن آليّة التطبيق: ما هي تلك الآليّة؟ كيف يمكن المباشرة في تنفيذها؟ وأين تمكن المباشرة في هذا التنفيذ؟ الأين هنا لا تنحصر بالمعنى الجغرافيّ، إنّما تشمل أيضًا المعنى الاجتماعيّ، والثقافيّ، والاقتصاديّ، والمهنيّ، ومستويات القطاعين العامّ والخاصّ العاملة على تسهيل هذا التطبيق وإزالة العوائق الذهنيّة والنفسيّة في سبيل هذا التطبيق والتأكّد من صحّته وسلامته. وإذا كان ثمّة من تقاطع بين المنظّمات الاقليميّة والأخرى الدوليّة في هذا المجال، فلا بدّ من تعزيز أهميّة التواصل بين تلك المنظّمات على المستويين الداخليّ والخارجيّ.
ولا بدّ هنا من التأكيد على أهميّة الأدوات المعرفيّة في مجال حقوق الانسان والعمليّة الديمقراطيّة. وهنا يدخل الدور الجامعيّ في هذا الاتجاه، وتحديدًا مراكز الأبحاث وكليّات العلوم الانسانيّة من أجل تطوير البرامج الملائمة التي يمكن أن تكون فاعلة في فضاءات المعرفة المتمحورة حول قيم الديمقراطيّة، ومبادئها، وإشكاليّاتها، والآليّات التي تتطلّبها على المستويين الثقافيّ والتطبيقيّ.
إلى أيّ مدى يمكن للجامعات الإعداد للمناخ الملائم أوّلاً لتعزيز المعرفة الديمقراطيّة وحقوق الانسان، وثانيًا الانتقال من مستوى المبادئ إلى مستوى تطبيق المبادئ. ومن أبرز الأمثلة على أهميّة دور الجامعة في هذا المجال ما يتعلّق بإشكاليّة الديمقراطيّة بمعناها المستورد والديمقراطيّة النابعة من الحاجة الداخليّة والممارسة الداخليّة والقناعة الداخليّة الكفيلة بتطوير الأطر الاجتماعيّة والسياسيّة القائمة.
وقد يكون البحث عن تطوّر الاصلاح الديمقراطيّ في العالم العربيّ مرتبطًا إلى حدّ كبير مع البحث عن مستقبل هذه المنطقة من العالم وعن طبيعة المستقبل المرتجى لهذه المنطقة. وقد يؤدّي ذلك إلى سؤال من نوع آخر: هل سائر شعوب العالم سبقتنا إلى الاصلاح الديمقراطيّ؟ هل سبقتنا سائر الشعوب إلى السير في الممارسة الديمقراطيّة التي من شأنها تعزيز حقوق الانسان وتعزيز مفهوم العدالة الانسانيّة والأمن الاجتماعيّ ولو بصورة نسبيّة؟
ثمّة رأي يقول إنّ الاصلاح الديمقراطيّ لا يوجّه فقط للأنظمة ولأهل السلطة، بل يوجّه أوّلاً للقطاع الخاصّ وللقيمين عليه، تمهيدًا للتوجّه إلى أهل السلطة.
وثمّة رأي آخر يشدّد على أهميّة التوافق على معنى الديمقراطيّة في الممارسة العامّة والخاصّة، وليس في مجرّد التنظير.
أمّا الربط بين الآليّة ودور الجامعة فيكمن في مبادرة الجامعة في طرح أسئلة من النوع التالي:

- هل تبقى الأحزاب لتعاني من قيادة واحدة لا تتغيّر في ظلّ انتخابات دوريّة شكليّة؟
- هل تبقى النقابات لتعاني من قيادة واحدة لا تتغيّر في ظلّ انتخابات دوريّة شكليّة؟
- هل تبقى الجمعيّات والمنظّمات لتعاني من قيادة واحدة لا تتغيّر رغم انتخابات دوريّة شكليّة؟

ويكمن دور الجامعة في أن يرتكز على التأسيس لدور:
المعياريّة determining standards
والمراقبة والتقويم observation and assessment
ومؤشّرات التطبيق indications of implementations

(١) مستوحاة من مؤتمر استراتيجيّات المجتمع العربيّ للاصلاح الديمقراطيّ، عمّان، الأردن، ١٧-١٩ حزيران ٢٠٠٧؛ حيث كان للجامعة حضورٌ مشارك.

النموذج الديقراطيّ للمنظّمات غير الحكوميّة

ويدور النقاش حاليًّا في معظم المؤسّسات والمنتديات العربيّة العاملة على الاصلاح الديمقراطيّ في العالم العربيّ حول ما يُسمّى بمقياس المُنتج، أو معيار الأثر، الذي يمكّن المهتمّين بالشأن الديمقراطيّ من تقويم المقاييس المتعارف عليها دوليًّا في جمعيّة من الجمعيّات، أو نقابة من النقابات، أو حزب من الأحزاب، ما إذا كان هذا التنظيم تنظيمًا ديمقراطيًّا أم لا.

يتساءل سموّ الأمير الحسن بن طلال عن صدقيّة البحث عن الإصلاح الديمقراطيّ في العالم العربيّ، في زمن تزداد فيه الصدامات الدمويّة في كلّ من فلسطين والعراق ولبنان. فالحديث عن الديمقراطيّة يواجه مجموعة من التحدّيات في طليعتها تحدّي الجهل وتحدّي عدم الاكتراث أو اللامبالاة. ولئن ارتبطت الديمقراطيّة بمفاهيم العدالة والأمن والسلام، فلا بدّ من فضاء معرفيّ يبدّد الجهل ويعزّز الكرامة الانسانيّة والثقة بالنفس بحيث يمكّنها من مواجهة العثرات والانخراط في ثقافة الانضواء ضمن إطار القوانين الدوليّة للسلم الأهليّ وحقوق الانسان التي أجمعت عليها دول العالم.

والسؤال الكبير المطروح: كيف يمكن الحديث عن أيّ إصلاح ديقراطيّ في العالم العربيّ، وهذا العالم يترجّح بين «الطغاة والغلاة والغزاة»، بين المرَضين الأوّلين الداخليين والمرَض الثالث الآتي من الخارج. وقد أكّد مؤتمر جوهانسبرغ أنّ التنمية المستدامة لا تتصدّى فقط للفقر المادي، إنّما تعالج، وبالأهميّة نفسها، الفقر العلميّ، والفقر الثقافيّ، والفقر الاجتماعيّ، والفقر الاقتصاديّ وما إليها.

يتحدّث آل غور عن الحقيقة غير المريحة كمسألة الاحتباس الحراريّ بكونه مشكلة بيئيّة، ويمكن بالتوازي الحديث عن الاحتباس الحراريّ الانسانيّ الذي تندرج تحته الهجرات القسريّة أو موجة لاجئي الحروب الصغيرة والكبيرة حول العالم.

الحديث عن الديمقراطيّة في حقيقة أمره هو حديث عن الخروج من دوّامة الصراعات المقيتة والصدامات الدمويّة للوصول إلى حسن إدارة الصراعات وحسن فضّ النزاعات سواء بين دول أو مجموعات أو أفراد. وهو حديث عن انتقال السلطة، في الجمعيّة أو النقابة أو الحزب أو الدولة، بصورة دوريّة سلمية شفافة وعادلة. من أجل ذلك، نحن بحاجة لايجاد عقول خلّاقة حرّة ذكيّة، كما يقول الأمير الحسن بن طلال، إذ لا يمكن الحديث عن أيّ تحوّل ديمقراطيّ في العالم العربيّ من دون عقل عربيّ حرّ خلّاق. وهذا يقتضي أوّلاً الانتقال من لوم الآخر إلى لوم الذات، ومن نزعة هروبيّة إلى نزعة المواجهة وتحمّل المسؤوليّة.

ويلاحظ سعد الدين ابراهيم، المفكّر المصريّ المعاصر، أنّ البلدان الديمقراطيّة في القرون الثلاثة الأخيرة تميّزت بالآتي: أوّلاً تلك البلدان لم يحارب بعضها بعضًا، ثانيًا أنّها لم تعرف المجاعة، ثالثًا أنّها تشكّل البيئة الصالحة للتنمية المستدامة، ورابعًا أنّها تكوّن البيئة الصالحة لتعزيز حقوق الانسان. في هذا السياق يُعتبر إعلان وارسو للديمقراطيّة الذي وقّعته مئة وسبع دول عام ٢٠٠٠ بمثابة الذراع الأقوى التي تدعم الدول ذات الأنظمة الديمقراطيّة حول العالم. وتتالت مؤتمرات الديمقراطيّة في سيول عام ٢٠٠٣ وفي سنتياغو عام ٢٠٠٥ حيث جلس، ولأوّل مرّة، ممثّلون عن المجتمع المدنيّ مقابل ممثّلي الحكومات المختلفة. وقد نتج عن هذه الحركة الدوليّة إنشاء المركز الدوليّ للتحوّلات الديمقراطيّة، وغايته تسهيل عمليّة التحوّل المنشود لكلّ مجتمع يرغب في مثل هذا التحوّل.

ويبدو أنّ معظم هذه المؤتمرات قد أكّدت، مرّة تلو الأخرى، العلاقة العضويّة بين الديمقراطيّة والحريّة، الديمقراطيّة والتنمية، الديمقراطيّة والأمن الانسانيّ، الديمقراطيّة والسلام، الديمقراطيّة والعدالة، الديمقراطيّة وصحّة التمثيل في مؤسّسات القطاع الخاصّ والقطاع العامّ، الديمقراطيّة والشفافيّة في الأداء والانتاج، الديمقراطيّة والثقافة المعرفيّة، وأخيرًا الديمقراطيّة والمحاسبة. هذا جميعًا يؤدّي إلى تكوين مؤشّر ملموس، أو معيار للديمقراطيّة قابل للقياس، وبالتالي يؤدّي إلى إضفاء صفة الديمقراطيّة على مؤسّسة من المؤسّسات أو نفيها عن تلك المؤسّسة.

وسط هذه الأفكار يُطرح السؤال حول دور العلمانيين في حقيقة الصراع بين الديمقراطيين وسواهم في العالم العربيّ، أو هل فشل العلمانيين العرب حتى اليوم عائد إلى سبب قائم في طبيعة قيامهم بالدور المطلوب أم إنّ ذلك الفشل عائد إلى الرفض المتواصل لأيّ نشاط علمانيّ في أيّ مجتمع من المجتمعات العربيّة؟

في خِضمّ هذا الحراك المتنامي لدفع المجتمع المدنيّ ومكوّناته السياسيّة باتجاه ديمقراطيّ في العالم العربيّ، أرى لزامًا على العاملين من أجل التحوّلات الديمقراطيّة بداية تحقيق الخطوات العمليّة بهذا الاتجاه. وهذا العمل الدؤوب يقتضي التحوّل التدريجيّ من المثلّث القاتم والحزين، والذي اصطلح على تسميته بمثلّث «الطغاة والغلاة والغزاة»، إلى مثلّث حيويّ يشقّ الطريق نحو حكم من نوع آخر، سبقنا العالم إليه، ونحن مدعوّون للالتحاق به أكثر من أيّ يوم مضى. هو حكم يتولاّه العادلون من العاملين في الشأن العامّ والمسؤولين في الشأن السياسيّ، بحيث يعتمدون مبدأ العدالة ضمن المسؤوليّة المهنيّة والاجتماعيّة والسياسيّة. هو حكم يتولاّه المنفتحون، سلوكًا، وتفكيرًا، ومنهجًا على اختلاف مستويات العلاقات البشريّة. وهو حكم يتولاّه المشاركون، أي الذين يؤمنون بالشراكة الانسانيّة في مجالاتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة والعلميّة والثقافيّة والسياسيّة.

خلاصة القول، والقول ذو وَفرة في هذا السياق، أنّ العمل الجادّ في سبيل تحقيق الديقراطيّة في مجتمعاتنا هو سعي حثيث للانتقال من كابوس «الطُغاة والغلاة والغزاة» إلى رحاب جديدة، يرسم لنا معالمها العادلون والمنفتحون والمشاركون؛ العادلون بين الناس، والمنفتحون على الآخرين، والمشاركون البنّاؤون لصداقات حيويّة ثابتة مع سائر الشعوب والأمم.

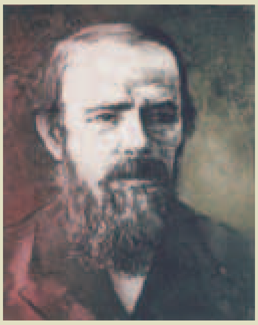

حلقة بحثيّة

دوستويوفسكي بعد ١٨٥ سنة على ولادته

شهدت الجامعة، في ٢٠٠٧/٥/١٢، حلقة بحثيّة حول «أسئلة الدين والحضارة في أدب الكاتب الروسيّ فيودر دوستويوفسكي» لمناسبة مرور ١٨٥ سنة على ولادته، برعاية وزير الثقافة د. طارق متري، وبمشاركة رئيسها الأب وليد موسى، ورئيس البيت الروسيّ- اللبنانيّ المتروبوليت جورج خضر، وممثّل بطريرك موسكو وسائر روسيا الأرخمندريت ألكسندر يليسوف، ومنسّق المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة في الجامعة عبدو القاعي، وعدد من الباحثين اللبنانيّين والفرنسيّين والروس.

بداية، رحّب عريّف الحلقة **د. سهيل فرح** بالمشاركين، وهو أحد الأعضاء المؤسّسين للبيت اللبنانيّ- الروسيّ في أنطلياس، شاكرًا للجامعة مبادرتها إلى هذه الحلقة حول فكر دوستويوفسكي.

أمّا **الوزير متري** فتمثّل بالدكتورة **مارلين كنعان** التي قالت: «لقد عوّدنا هذا الروائيّ العظيم، منذ أواسط القرن التاسع عشر، أن نرى سرّ العالم ممثّلاً بروسيا، وأن نتحسّس، من خلال ذلك البلد، الانسان، بجميع مشاكله ومواجده، في صراعه مع الحياة، خاصّة صراعه بين الإيمان والتفلّت. ولعلّ دوستويوفسكي وعى، منذ ذلك التّاريخ، أنّ خلاص بلاده لا يكون إلاّ باستعادة ذلك الوجه الروحيّ الذي أعطاها ماهيّتها ومبرّر وجودها ومؤدّى مصيرها في انتساب صريح إلى الماضيات. وإذ أشارت إلى أنّ دوستويفسكي ترهّب للكتابة الروائيّة الواقعيّة فأصدر كتابه الأوّل بعنوان «الفقراء» سنة ١٨٤٤، أوضحت بأنّ هذا الكتاب عرف نجاحًا باهرًا، لفت إليه كبار شعراء العصر ونقّاده ومفكّريه أمثال الشاعر نيكراسوف والناقد بيلينسكي. واعتبرت أنّ إيمانه المسيحيّ النابع من تحسّسه لعذابات الناس، شكّل منعطفًا في حياته ككاتب؛ فهو في أصل كلّ روائعه إنطلاقًا من «الجريمة والعقاب»، مرورًا بـ «الأبله»، و«الشياطين»، ورائعته العالميّة «الإخوة كرامازوف» التي نشرها في الستّين من عمره. ولا عجب في أنّه شاء أن يكتب «بوشكين» شاعر روسيا الأكبر ومتحسّس آلامها ليجعل منه بطلاً قوميًّا.

وأضاف: «ولبنان المنفتح على كلّ الثقافات والحضارات، لن ينسى إسهام روسيا في الحضارة الإنسانيّة الأرحب؛ ولن ينسى على وجه الخصوص دوستويوفسكي الذي يشارك لبنان ذلك الهيام بالله وبالمسيح وبالحريّة التي أساسها الإيمان. ولئن ابتلي هذا البلد الصغير بحروبه البشعة، فإنّ نتاجه الفكريّ وحيويّة أبنائه سوف تعينه على استعادة بريقه الثقافيّ. وفي شخصيّات دوستويوفسكي كزوسيما الشيخ الروحانيّ والأمير ميشكين، ما يؤكّد للبنان أنّ عذاباته لن تذهب سدىً».

الأب موسى أشار إلى «أنّ الكاتب لم يكن يدخل الكنيسة، ولا كان الكهنة يروقون له، ولكنّه كان يخاف الله، الذي من دونه كلّ شيء مباح؛ فقد كان يحمل للمسيح تقديرًا عميقًا في كلامه». ورأى أنّ «قضيّة الأنانيّة» شغلت بال دوستويوفسكي، فسعى إلى حلّ هذه المشكلة الأخلاقيّة الاجتماعيّة الرئيسيّة، و«كأنّ هذا العالم الاجتماعيّ يكتب عن واقع لا يحدّه مكان ولا يختصره زمان. وكأنّه يعيش معاناة وطني لبنان، حيث الطموحات الشخصيّة المغرضة تستبيح قدسيّات الانسان وقيمه»، لافتًا إلى أنّ الكاتب كان يدعو دائمًا للتحلّي بالرجاء، إذ إنّ «العيش من دون رجاء هو توقّف عن الحياة». وأضاف: «كم نحن اليوم في لبنان بحاجة لكي نتعلّم كيف نخرج من التقوقع على الذات ومن الانغلاق في حجم الفئويّة، ونعمل بجهد في سبيل الانفتاح على الآخر، والتشارك معه في أمور الحياة والوطن. وكم نحن اليوم بحاجة لكي نفتح قلوبنا لشعاع من شمس محبّة الله يعمل فينا ومن خلالنا، وكم نحن بحاجة إلى فسحة رجاء».

ووصف **المطران خضر** دوستويوفسكي بـ «حامل المسيح كما يقرأه الشعب الروسيّ؛ ومن هذه الزاوية كان لسان حال الأمّة الروسيّة المقدّسة». فكان «رسولاً للمهانين»، عرف القلب البشريّ في ذروة طهارته وفي قاع قذاراته. وما صوت المعصية في قيامتها عنده إلاّ لينكشف وجه الله في سطوع كلّ مجده. وأضاف: دوستويوفسكي يبدو وأنت تقرأه أنّه يحكي حكايا هذا العالم، ولكنّها خدعة عرفت أن تقرأ. القدّيسون هم

من اليمين الى اليسار: نيكيتا ستروفه، ڤاليري ألكسييف، جورج مسّوح

من اليمين الى اليسار: يوسف يعقوب، جورج ناصيف، بولس وهبه

أعظم من تحدّث عن المعاصي، لأنّهم عرفوا خبث معالمها إذا قابلوها بالحقّ الذي كانوا يختبرون. ولفت المتروبوليت خضر إلى أنّ «دوستويوفسكي ورث نورانيّة كنيسته وفصحيّتها وغلبتها على الموت، فينزل وينزل حتّى يشعرك أنّك مخطوف لتقرّ في سماء لا يسوّغ النطق بكلماتها». وأكّد خضر أنّ «الله في الانسان بديع قلبه، إذ كيف يقول مجرم غارق في المعاصي لصاحبته الغارقة في المعاصي: تعالي نسافر إلى سيبيريا لنوزّع الإنجيل على المساجين. من عرف الأدب النسكيّ عندنا لا يتعجّب للرقّة والحنان القائمين في الأبرار، ولكن أن يقوما في العصاة في انقضاض النعمة، فهذا أمر تربّى على دوستويوفسكي ليتراءى لك». وختم خضر كلامه بالقول: «لعلّ هذا عطف الله على روسيا. هذا ليس سجلّها في جليدها أو في سهوبها، ولكن في شعبها ومنه المشرّدون والسكارى. وإذا أقمنا ذكرى دوستويوفسكي اليوم نكون دخلنا قلب روسيا ورفعنا راية روحها وفكرها، ذلك لأنّ الروائيّ الكبير أدرك عبقريّة شعبه وترجمها بأروع سطور بما فيه وفيها من عمق وبيان الاحساس المسيحيّ الملتهب حبًّا بالملتاعين في إنسانيّة جدّدها وجلاّها جمالاً لنتوقها بهروبنا من الظلمات إلى نور إلهيّ عجيب. نفس دوستويوفسكي المستنيرة أمسكت بنا لنسير في الضياء ابتغاء للفرح».

ممثّل بطريرك موسكو وسائر روسيا **الأرخمندريت ألكسندر يليسوف** الذي نقل إلى الحضور بركة البطريرك وتحيّاته، رأى في روايات دوستويوفسكي صورًا حقيقيّة للفكر الروسيّ، لافتًا إلى أنّه كان «يحذّر دائمًا من قلب الحقائق. ولو كان صوته مسموعًا في ذلك الوقت لما اندلعت المآسي في روسيا». وأضاف: لقد «تميّز فكر دوستويوفسكي بالتحليل العقلانيّ الواعي» وهو كان ولا يزال «حجر زاوية في هذا الإنبعاث الجديد في روسيا اليوم. إنّه حاضر بيننا اليوم».

أمّا **القاعي** فتحدّث عن «ابن إقطاعيّ من الاقطاعيّين الذين تحكّموا بالشعب الروسيّ بطغيان سلطتهم، فقُتل على يد أحد الفلاّحين الذين استعبدهم حتّى القهر الكامل، فكان المؤلّف أوّل المتأثّرين سلبًا من طغيانه، وقد دفع به تأثّره إلى حبّ المغامرة من أجل تحرير نفسه من رغبات السيطرة على الآخرين، وبخاصّة الضعفاء، ومن أجل العمل الفكريّ والسياسيّ سعيًا لتوفير الشروط الليبراليّة اللازمة للتحرّر الشعبيّ في بلده الحبيب روسيا». كما أشار القاعي إلى أنّ فيودر دوستويوفسكي عندما «شعر بأنّ الكلمة لا تكفي لمواجهة الواقع المؤلم الذي كان يعيشه، انخرط في العمل السياسيّ المباشر، من أجل إطلاق الفكر الليبراليّ في المجتمع الروسيّ، فعوقب بحكم بالموت، الذي خفّف إلى نفي إلى سيبيريا، حيث عانى ما عنى من البرد والصقيع والعزلة. وهذه المعاناة أثّرت كثيرًا في مسارات حياته اللاحقة، فإذا به يفشل في زيجاته المتعدّدة، ويبذّر ماله في القمار، ويتوجّع من جرّاء داء العصبيّ الذي لاحقه طوال حياته». وأضاف القاعي: «كلّ هذه المصاعب والعذابات، فضلاً عن موت ابنته، لم تثنِه عن البحث والتدقيق والتحليل في

عبدو القاعي، مرلين كنعان، وليد موسى، جورج خضر، ألكسندر يليسوف، سهيل فرح

تعرّجات النفس البشريّة، ولم يجد إلاّ في الوضاعة سبيلاً يلزم به ذاته المتألّمة لتجاوز تجاربه القاسية، والانطلاق نحو كشف حنايا سرّ الوجود؛ وإذ به يتحسّس في هذه الحنايا أحاسيس الحبّ والإخاء، فتنقشع أمامه طريق بناء المجتمع الروسيّ على قاعدة الأخوّة والمساواة في ظلّ ثقافة ليبراليّة يكون لروسيا فيها دور الجمع والتوليف بين ثقافات وحضارات الشرق والغرب».

وبعد فيلم وثائقيّ قصير عن دوستويوفسكي، تناولت الحلقة البحثيّة الأولى «أسئلة الدين في أدب دوستويوفسكي» فأدارها **الأب جورج مسّوح**، وتكلّم فيها رئيس المؤسّسة الدوليّة لوحدة الشعوب الأورثوذكسيّة **ﭬاليري ألكسييف** عن دوستويوفسكي والأورثوذكسيّة، وتناول **د. أنطوان قربان** موضوع تقلّبات المزاج الدينيّ في فكر دوستويوفسكي، فيما تحدّث أستاذ الدراسات الروسيّة والسلافيّة في جامعة السوربون **د. نيكيتا ستروﭬه** عن روحانيّة روسيا في أدب دوستويوفسكي.

وأدار الأستاذ **جورج ناصيف** الحلقتي الأخريين حول موضوعي أسئلة الأنا والآخر في إبداع دوستويوفسكي، وأسئلة الحضارة ومخاضاتها النفسيّة والوجوديّة في أدب دوستويوفسكي، وتكلّم فيهما **الأب د. بولس وهبة** و**د. سهيل فرح** عن دوستويوفسكي وفكرة روسيا، و**د. يوسف يعقوب** عن موضوع القلق النفسيّ ومفهوم الطفولة في رؤية دوستويوفسكي للحضارة.

دورة تدريبيّة في تعليم اللغة العربيّة

نظّم قسم العلوم السلوكيّة والاجتماعيّة- كليّة الانسانيّات، في الجامعة، دورة تدريبيّة في تعليم اللغة العربيّة لأساتذة الصفوف الابتدائيّة، على ثلاث حلقات:

الأولى : في ٢٥ نيسان، بموضوع «مهارات الإصغاء والتحدّث».

الثانية : في ٢ أيّار بموضوع «مهارات القراءة والمطالعة».

الثالثة : في ٩ أيّار بموضوع «مهارات التعبير الكتابيّ».

شارك في هذه الدورة عدّة مدارس: ثانويّة الراهبات الأنطونيّات - غزير، والمقاصد الإسلاميّة، والحكمة - الأشرفيّة، ومعهد القدّيس يوسف - عينطورة، والفرير مون لا سال، وبيروت الانجيليّة - الرابية، وراهبات القلبين الأقدسين - السيوفي، والقدّيس يوسف - قرنة شهوان، ويسوع ومريم - الرابية، وسيّدة اللويزة - فرع فيطرون، وعمر بن الخطّاب، وسيّدة الجمهور.

في الافتتاح تحدّث رئيس القسم د. منصور عيد عن دور الجامعة في مجالات تطوير التعليم وفي تواصلها مع المجتمع المدنيّ والثقافيّ والتربويّ، وعن أهميّة هذه الدورة في تعميم الأساليب الحديثة لتعليم العربيّة. وأعلن أنّ القسم أعدّ برنامج «الدورة الصيفيّة» لتعليم هذه اللغة للأجانب، مشيرًا إلى تلقّي رسائل من طلاّبٍ من أصول لبنانيّة، لمتابعة الدورة. ودعا الراغبين في الاطّلاع على البرنامج ليراجعوا رئاسة القسم، أو موقع الجامعة الالكترونيّ.

وفي نهاية الدورة التدريبيّة عقدت طاولة مستديرة نوقشت فيها النتائج والمقرّرات وملاحظات المشاركين، كما اتّفق على وضع برنامج تفصيليّ لدورات تبدأ مع مطلع العام الدراسيّ المقبل.

لقاء

.. مع إملي نصرالله

التقت الأديبة إملي نصرالله طلاّب قسم اللغة العربيّة في الجامعة. وبعد أن رحّب بها رئيس القسم د. منصور عيد مشيرًا إلى ترجمة رواياتها إلى عدّة لغات أجنبيّة، دلالةً على بلوغها المستوى العالميّ، تحدّث د. عصام حوراني عن الكاتبة التي «تربّعت طفلةً فوق عرشها في الكوخ الذي بناه والدها فوق سطح المطحنة، فصارت أميرة الرواية المتربّعة على عرش الأدب الحيّ الذي يبقى خالدًا خلود حرمون حيث تربّت وترعرعت فتزوّدت من بهائه وقدسيّته بنبتة جلجامش الخالدة». ثمّ روت الكاتبة للطلاّب مفاصلَ من تجربتها الأدبيّة ومسيرتها في طريق العلم والمعرفة؛ ففي زمنها كان العلم محرّمًا على الفتاة، والذهاب الى المدينة عارًا، بينما هم يتلقّون المعرفة، شبابًا وصبايا، جنبًا إلى جنب، على مقاعد متجاورة. ولعلّ الثورة التي أطلقتها في مؤلّفاتها حول تحرير المرأة من التخلّف والاستئثار قد أثمرت في وجوه هؤلاء الذين يحاورونها... وتشعّبت أسئلة الطلاّب حول الأدب، والرواية، والشعر الحديث، وموقع المرأة في أيّامنا، وأهميّة الرواية اللبنانيّة ومنزلتها في الأدب العالميّ.

ابراهيم الحاقلاني إلى «البانتيون الوطنيّ» في الجامعة

▲ نايف علوان

يتوالى رفع الستائر في «البانتيون الوطنيّ»، عند مدخل الجامعة، في زوق مصبح.

وظُهر الثلاثاء في ٨ أيّار ٢٠٠٧، وُلد لنا وجهٌ جديد من وجوه النهضة الحديثة هو وجه ابراهيم الحاقلاني من أعمال النحّات **نايف علوان.**

وحول هذا الوجه انعقدت حلقة كلمات، افتتحها رئيس الجامعة **الأب وليد موسى** بقوله:

ابراهيم الحاقلاني، نذكره اليوم، ونعتزّ بدوره المارونيّ اللبنانيّ على مسرح الكنيسة والعالم.

هو، من جهة قريب للشيخ سلهب الحاقلاني الذي وقف دير سيّدة اللويزة والأراضي المحيطة به لرهبانيّتنا المارونيّة، ومن جهة أخرى نموذج للشابّ اللبنانيّ الجرديّ الفقير الذي يترك لبنان حاملاً طموحه إلى جميع العالم، باحثًا عن كتاب أو لقمة خبز أو دور حضاريّ.

ابراهيم الحاقلاني نموذج نقتدي به في رهبانيّتنا وفي مؤسّستنا الجامعيّة، وهو الذي كرّس حياته في خدمة التعليم والتربية والفكر واللاهوت.

نحن اليوم، إذ نرفع نصبًا له على مدخل جامعتنا، فإنّما ليبقى اسمه خالدًا في الأذهان، ولتبقى صورته راسخةً في الأعين، مثالاً لطلاّبنا في سعيهم الدؤوب نحو الأفضل والأرقى والأجمل.

وتوقّف رئيس جمعيّة أصدقاء ابراهيم الحاقلاني المهندس **جوزف طربيه** عند الأدوار التي اضطلع بها الرجل من خلال النقل والترجمة والتعليم والسَفارة لفخر الدين، داعيًا بالتالي إلى نقل أعماله الفكريّة إلى لبنان وإقامة الدراسات حولها في إطار الاستشراف وحوار الحضارات والشعوب.

أمّا المحامي **أنطوان عقل** (مقدِّم النصب) الذي حيّا الجامعة والجمعيّة، راجيًا رفعَ ستارةٍ عن العلاّمة يوسف سمعان السمعاني قريبًا، فممّا قاله: عندما ذاع صيت الحاقلاني ورفاقه في أوروبا، سارع ملوك فرنسا إلى دعوة بعضهم لتدريس اللغات الشرقيّة من: عربيّة، وسريانيّة، وعبريّة، وكلدانيّة، في أهمّ صرح للعلم في فرنسا، (Collége de France)، والذي سمّي فيما بعد الـ (Sorbonne)؛ فأصبحوا أوّل جسر بين الثقافات والحضارات الشرقيّة والغربيّة، وبفضلهم استحقّ أبناء الطائفة المارونيّة اللقب المشهور: «عالم كمارونيّ».

أمّا الذين عادوا منهم إلى الوطن، فلم ينتظروا تعليمات «المجمع اللبنانيّ» - دستور الطائفة - لتثقيف الشبّان والشابّات من مختلف المذاهب والطوائف، في القرى والبلدات اللبنانيّة، بل إنّهم قاموا بهذا الواجب مذ عادت أفواجهم في الجيل السابع عشر، فنشأ ما سمّي: «مدرسة تحت السنديانة»، بحيث غدت مبادئهم هذه محاولة ناجحة لمحو الأميّة لدى هذه الأمّة العريقة.

لخرّيجي المدرسة المارونيّة الفضل أيضًا في تأسيس الرهبانيّات المارونيّة الثلاث، ومنها هذه الرهبانيّة الكريمة التي عقد في ديرها المجمع الإقليميّ لجبل لبنان في العام ١٧٣٦، برئاسة الموفد الرسوليّ العلاّمة يوسف شمعون السمعاني، الذي منح الطائفة المارونيّة دستورًا حديثًا يناسب مقتضيات العصر.

نشاطات العمل الرعويّ في الجامعة

معرض مريميّ وسهرة مريميّة

في ٢٠٠٦/١٢/٨، عرض العمل الرعويّ الجامعيّ في الـ NDU ١٥٠ صورة للعذراء مريم من مختلف أنحاء لبنان. تلا المعرض سهرة مريميّة تكريميّة في الـ REGISTRATION HALL، تضمّنت تلاوة المسبحة، وتراتيل أنشدتها جوقة AVE MARIA بالاشتراك مع جوقة العمل الرعويّ في الجامعة، وتأمّلات مختلفة حضّرها الأعضاء المشاركون عن مريم الأمّ، والأخت، والصديقة، وبنت الناصرة، والقدّيسة، فكلمة للأب المرشد فادي بو شبل للمناسبة ثمّ فعل تكريس للعذراء.

قال **الأب بو شبل**: «إذهبوا إلى مريم وارفعوا لها قلوبكم»

هذه الكلمات، التي وجّهها قداسة البابا بيّوس الثاني عشر إلى المؤتمر المريميّ في لبنان، سنة ١٩٥٤، لا تزال صالحة، بل ضروريّة لنا اليوم، نحن الذين نعيش في مجتمع مضطرب، تكثر فيه الانشقاقات ما بين أفراد الوطن الواحد.

ها نحن وإيّاكم نلبّي اليوم مجدّدًا نداء البابا، ونأتي، نعم نأتي، إلى مريم البريئة من دنس الخطيئة الأصليّة، لنرفع لها قلوبنا أوّلاً ونردّد: يا مريم شبابنا لكِ.

شبابنا لكِ، لأنّ الشباب هم المستقبل.
شبابنا لكِ، لأنّ في الشباب الربيع، وما أحوجنا إليه في وطن يتخبّط بالعواصف المتنوّعة.

شبابنا لكِ ليكون شبيهًا بكِ يا أمّنا.
شبابنا لكِ ليكون كما يريده الربّ.

في يوم عيدِك، المليء بالفرح الروحيّ والنِّعم السماويّة، أتينا نصلّي ونتأمّل، نرنّم ونفرح بكِ أنت، يا من تحبيننا كما يحبّنا يسوع.

أتينا وكلّنا ثقة بأنّكِ ستلاقينا بغمرة أمومتكِ الطاهرة.

أتينا لنقول لكِ مع الحاضرين: جامعتنا التي تفخر بحَمل اسمكِ، هي حقًّا لكِ ولابنكِ، وهي تريدكِ أن تملكي عليها وعلى قلوب من يعملون ويتعلّمون فيها.

أتينا لنستمتع ببنوّتنا لكِ وأمومتِك لنا.

فيا أيّتها البريئة من الخطيئة الأصليّة، صلّي لأجلنا نحن الملتجئين إليك.

السهرة الميلاديّة

تمهيدًا لذكرى ولادة السيّد المسيح، حضّر شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ سهرة ميلاديّة في حرم الجامعة. شارك فيها حوالى ٣٠ شخصًا من أفراد العمل الرعويّ، وأساتذة، وإداريّون ومدعوّون من خارج الجامعة. وتضّمنت تأمّلات عميقة في أجواء خشوعيّة.

رياضة عيد الميلاد

كالعادة كلّ سنة، أقام العمل الرعويّ الرياضة الروحيّة الميلاديّة تحضيرًا لولادة السيّد المسيح. كانت هذه السنة في دير أمّ الله – عجلتون في ١٦و١٧ /١٢/٢٠٠٦. السهرة الميلاديّة كانت مليئة بالتأمّلات والصلوات الخشوعيّة والتراتيل. وما جعلها أكثر تميّزًا هو تبادل المشاركين الشموع دلالة على نور المسيح. ووزّع الأب المرشد زوّادات حياة إلى كلّ مشارك. وفي اليوم التالي شاركنا مع الأب فادي في قدّاس خشوعيّ، قدّم فيه كلّ شخص رمزًا معيّنًا إلى المذبح كهديّة لميلاد المسيح. اختلفت الأفكار، ولكنّها كلّها عبّرت عن علاقة كلّ شخص بالمسيح. كانت هذه الرياضة ناجحة إذ حمل منها المشاركون فرح الميلاد والتجدّد، واستعدّوا لاستقبال المسيح.

وكما درجت العادة بأن نبلسم جراح من قست عليهم الحياة، فقد قمنا بزيارة ميتمين، واستقبلنا الأطفال، وقدّمنا لهم الهدايا التي جمعناها من الطلاّب والموظّفين والأساتذة، وسهرنا معهم في أحد المطاعم بعد الصلاة أمام المغارة. وبمبادرة لا سابق لها، دعونا أيضًا العاملين في حقل التنظيفات في الجامعة إلى لقاء فرح تمَّ خلاله توزيع الهدايا عليهم.

رياضة عيد الفصح

تمهيدًا لعيد الفصح، أقمنا الرياضة الروحيّة السنويّة تحت عنوان «شو بعدك ناطر»، في دير الراهبات الأنطونيّات- بكفيا. على مدى يومين، استعدّ حوالى ٣٠ شابًا وصبيّة للتوبة في زمن الصوم المبارك. سهرة التوبة كانت مميّزة، تخلّلتها تأمّلات حضّرها المشاركون، وتراتيل من زمن الصوم، وموسيقى تأمّليّة أضفت على الحضور جوًّا من الخشوع، فكانت الإعترافات والتقدّم من المذبح للتبرّك بالقربان المقدّس. وفي قدّاس اليوم التالي، أعرب بعض المشاركين، بصلوات الشكر التي قدّموها، عمّا أفادوه من هذه الرياضة.

عيد الأمّ

بمناسبة عيد الأمّ، دعا شبيبة العمل الرعويّ أمّهاتهم وأمّهات أسرة الجامعة إلى سهرة من إعدادهم في ٢٠٠٧/٣/٢١. بعد العشاء الذي حضّره الأعضاء، ألقى **الأب فادي بو شبل** كلمة قال فيها:

كلّ من يحبّ هو من الله، لأنّ الله محبّة. هذا ما يعلّمنا إيّاه الكتاب المقدّس في رسالة القدّيس يوحنّا.

فمن يحبّ مثل الأمّ؟

ومن يشكّ بأنّ الأمّ ليست إلاّ هديّة خاصّة من الله للانسان الآتي إلى العالم؟

عيد الأمّ له مرادف نعرفه كلّنا وهو عيد المحبّة.

وكلمة أمّ تؤكّد قولي هذا:

فإن أخذنا الحرف الأوّل أ = الله
والحرف الثاني م = محبّة.
و كأنّهما بالأمّ حضور حسيّ لله المحبّة.

سمعت الصبايا والشباب كيف كانوا يسكبون قلوبهم، وهم يقولون معايدتهم لكلّ منكنّ. كانت الابتسامة ترتسم بعفويّة على وجوههم، وتضيء عيونهم عندما يتلفّظون: «بحبّك يا ماما».

نجتمع هنا في جامعة لها الفخر بأن تحمل اسم أمّ الله وأمّنا مريم العذراء سيّدة اللويزة، لنرفع أوّلاً شكرنا إلى من أحبّنا ودعانا لنكون من خاصّته، فيصبح ما له لنا وما لنا له؛ حتّى أنّنا توصّلنا إلى الغبطة والسرور لمجرّد تفكيرنا أنّ أمّ الله هي أمّنا وأنّ أمّهاتنا هنّ من خاصّة الربّ.

باسم شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ NDU، أريد أن أحييّ كلّ أمّ على وجه هذه الأرض، وخصوصًا من هنّ حاضرات معنا اليوم قائلاً:

سلام لكنّ أيّتها اللآلئ الغوالي التي زيّن بهنّ الربّ البشريّة.

سلام لكنّ أيّتها الأمّهات لأنكنّ مرآة تعكس جمال الله وحبّه لنا.

سلام لكنّ لأنكنّ أكّدتنّ محبّتكن لنا بدم تضحيتكنّ اليوميّة.

سلام لكنّ لأنكنّ سهرتنّ وتعبتنّ وصلّيتنّ لأجل كلّ منّا، وقد زرعتنّ فينا الايمان والرجاء والمحبّة.

سلام نوجّهه لكلّ أمّ روحيّة وأمّ جسديّة، عرفت أنّ المحبّة عطاء، والخدمة فرح والحضور جمال.

سلام لكلّ متزوّجة ترغب في إنجاب أطفال يساهمون في بناء بشريّة أكثر إنسانيّة، وحضارة تغلب فيها المحبّة والحياة على الموت والظلام.

وصلاتنا إلى الله نرفعها بشفاعة أمّه لكي لا تُحرم أيّ أمّ من هذه النعمة.

سلامنا صلاة حارّة لكلّ أمّ سبقتنا إلى دنيا الحقّ، آملين في أن يكنّ بأجمعهنّ إلى مائدة الحمل السماويّ بقرب الأمّ البتول والأمّهات القدّيسات.

أمّا مفاجأة السهرة فكانت فيلمًا من إعداد العمل الرعويّ تضمّن كلمات من القلب من كلّ شابّ و صبيّة إلى أمّه مباشرةً. كانت سهرة ناجحة جدًّا، أفرحت قلوب الأمّهات وتركت أصداء جيّدة.

محاضرة المطران بشارة الرّاعي

دعت إدارة الجامعة والعمل الرعويّ المطران بشارة الراعي إلى محاضرة حول التنشئة المسيحيّة في ٢٠٠٧/٤/١٩. بثّت من على شاشة TELE LUMIERE وأثير إذاعة صوت المحبّة. وقد شكر سيادته الجامعة والشبيبة على استقباله وإتاحة الفرصة له للتكلّم في التنشئة المسيحيّة في عالمنا اليوم مواجهة للعولمة الحاليّة بعولمة المحبّة.

ومع مطلع أيّار، توالت زيارات السيّدة العذراء إلى كليّات الجامعة، ظهر كلّ أربعاء، حيث كانت تُرفع الصلواتُ مادحةً مستشفعةً.

ومن تلك الصلوات «**صلاةٌ إلى مريم**» بقلم عميد كليّة العلوم **د.يوسف كمال الحاج**:

يا أمّ الكلمة،
يا وحيدةً من جنس الأرض أحنت السماء بانحنائها،
يا ربيع الخير،
يا رحم الكنيسة وتاج البرايا،
يا مليكة لبنان وفخر العالمين،
يا عروس الثالوث،
يا شفيعة صلواتنا البكر،
يا نور عقولنا، ونشوة قلوبنا، وسكينة نفوسنا، ورفيقة دروبنا،
يا ألف الحقيقة، وياء الحريّة، وأبجديّة المحبّة،
يا طريق الطريق، ونشيد الحقّ، وعطر الحياة،
يا حاملة السماء إلى الأرض، وشاقلة الأرض إلى السماء،
نسألك،
في زيارتك الأولى لكليّتنا العطشى إلى وجهك الباسم، وذراعيك الرحيبتين،
وظلّك الطاهر،
أن تدثّري أسرتنا، طلبةً وأساتذةً وأهلَ إدارة، بسماء حنانك،
وتحطّيها عن كراسي الرياء والكسل،
وتحصّنيها من هباء الغوغائيّة،
وتدرئي عنها صواعق الطيش الذي يعكّر صفو جامعتك هذه الأيّام،
وترفعيها إلى تواضع الرجاء الطاهر،
وتصنعي بساعدك عزّ كرامتك،
فتبتهج روحها بعظائم أمومتك المقدّسة،
وتنضج على جمر الاستقامة،
والجودة، والريادة، والقداسة-
وأعظمها القداسة.
يا معلّمتنا إلى كليّة الآب،
ومختبرنا إلى علوم ابنك الفادي،
وموسوعتنا لنفهم طبيعة الروح القدس،
مريمينا بحكمتك،
حكمة الفرح وحكمة الحقيقة،
لنستأهل شعار جامعتنا،
ونستحقّ اسمك المزنبق على جبينها،
فتشمخَ في عين الأرض،
وتحسنَ في عين السماء...
سلام عليك يا أمّي،
سلام عليك يا مريم،
يا والدة الإله،
الآن، وفي ساعة موتنا، وفوق كلّ زمان...
آمين.

وفي ٧ حزيران ٢٠٠٧، يوم خميس القربان، نظّم العمل الرعويّ الجامعيّ (NDU) وجماعة الصلاة المريميّة احتفالاً، محورُه قداسٌ إلهيّ، ترأّسه الرئيس العامّ للرهبانيّة المارونيّة المريميّة الأباتي سمعان أبو عبده، وخدمته جوقة AVE MARIA.

| وقد ركّز **الأباتي أبو عبده** في عظته على ما رأى من تقاربٍ بينَ القربانِ المقرَّبِ فِداءً عن الإنسانِ والجامعةِ الّتي تُقرِّبُ قربانَ العِلْمِ والمعرفة إلى الإنسانِ، فقال: قد يكونُ من أجمل عناوين لقائنا: «قربانٌ وإنسان».

وأضاف: إنَّ رموزَ العهدِ القديم تشير بشكل بارز إلى القربانِ وتُنْذِرُ بِسرِّ الافخارستيّا، بوضوحٍ قبلَ أن يكون. وها تقدمةُ ملكيصادق، والحَمَلُ الفِصحيُّ، والمنُّ، وتابوتُ العَهْدِ، وخبزُ التّقدمَةِ والقوتُ العجائبيُّ الذي أُرْسِلَ للنبيِّ إيليّا، كلّها تقفُ شواهِدَ تُنْبِئُ بالسّرِّ الموعودِ... والله، كما عَهدناهُ دائمًا، أمينٌ يُحقِّقُ مواعيدَهُ ويُثْبِتُ نبوءاتِه، وقد تجلَّتْ واقِعًا وحقيقةً في سِرِّ الافخارستيّا.

في مقابل هذا، يُصرِّحُ يسوعُ المسيح في العهدِ الجديدِ، طَالبًا ألاَّ نهتمَّ للقوتِ الزّائِلِ: «أنا خبزُ الحياةِ... الخبزُ الذي أُعطيهِ هو جَسدي... إنَّ جَسدي مأكلٌ حقًّا». ولقدْ رَسَمَ يسوعُ هذا السِّرَّ بكلماتٍ واضحةٍ، مُظْهِرًا البُعْدَ الأفخارستيَّ المحض: «إنَّ جَسدي مأكلٌ حقًّا، ودمي مَشْرَبٌ حقًّا» (يو ٦/٥٠).

وفي هذا الإطارِ، يقولُ البابا يوحنّا بولسُ الثّاني:

الإفخارستيّا هي نورٌ قَبْلَ كل شيءٍ، إذْ، في كُلِّ قدّاسٍ، تسبقُ ليتورجيا الكلمةِ ليتورجيا الإفخارستيّا، في وحدةِ المائدتين «مائدةِ الكلمةِ ومائدةِ الخُبزِ».

نَعَمْ، الكلمةُ ثُمَّ الكَلِمَة... في «البدءِ كانَ الكلمة» هي ألِفُ الحياةِ وياؤها، بل هي الحياةُ قبلَ أن تكونَ ثُمَّ في كينونَتِها ثُمَّ في الحياةِ الأبديَّةِ...

وها بطرسُ الرسولُ يتوجَّهُ إلى المسيح المعلِّمِ سائلاً: «وإلى من نذهَبُ يا ربُّ؟ إنَّ عندَكَ كلامَ الحياةِ الأبديَّة» (يو ٦/٦٨). وبالفِعْلِ، ففي رواية تلميذَيْ عمّاوسَ يتدخَّلُ المسيحُ نَفسَهُ لِيُظْهِرَ، «إنطلاقًا من موسى والأنبياءِ»، أنَّ «الأسفارَ كُلَّها» تقودُ إلى سِرِّ شخصِهِ (لو ٢/٤-٢٧). فكلامُهُ هو الذي يجْعَلُ قَلْبَ التلميذين «يَضْطَرِمُ» وَيَنْتَزِعُهما من ظُلْمَةِ الحُزْنِ واليأْسِ، ويُذكي فيهما الرَّغبةَ في أنْ يَبْقَيا معَهُ: «إبقَ مَعَنا يا ربّ» (لو ٢٤/٢٩).

وعلى هذا النحو، تابع الأباتي أبو عبده: تبدو جامعَتُنا شبيهَةً بالقربانِ الذي يُقَدَّمُ على مائدتِها لطلاّبِها. إنَّهُ قربانُ الكلمةِ المُغذّيةِ عِلْمًا وثقافةً وتربيةً وَقِيَمًا... وإذا ما ضاعَ هذا

القربانُ –لا سمحَ اللهُ– عن هذه المائدةِ الجامعيَّةِ، تكونُ جامعَتُنا قَدْ فقدَتْ دَوْرَها وأضاعَتْ هوِّيتَها وَغرقَتْ في العِثار والإنزلاق...

نَعَمْ، نُريدُها جامِعَةً مميَّزةً مختلِفَةً، بالقرابينِ التي تُقَدِّمُها لِناسِها وطلاّبها. لذا نطلبُ أَنْ يُمَحَّصَ قُربانُها وَيُنقّى كلَمةً كلمةً، ويُصفّى مَسْلَكِيَّةً وفكرًا وعقلاً منوَّرًا يقودُ إلى النّور والحقيقة. وَهَلْ أفضَلُ من نار الحُبِّ لتنقيةِ هذا القربانِ قبلَ تقديمهِ على مائدةِ الجامعةِ؟!

قربانُ الجامِعَة – الكلمةُ، نريدُهُ صافيًا غيرَ مغشوش بعيدًا من أيِّ تلاعُبٍ، أَمِنْ مسؤولٍ أتى أَمْ من تلمِيذٍ أَمْ من سياسيٍّ أو من عقائديٍّ أو من سواهُم... فالكلُّ يخشى أن يَفسُدَ هذا القُربانُ فَيُصبحَ غيرَ صالحٍ للمائدةِ الجامعيَّةِ.

قربانُ الجامعة – الكلمةُ، هو كالافخارستيّا يجمَعُ ويوحِّدُ. إنَّهُ مشروعُ تضامُن. إنَّهُ فِعْلُ شراكةٍ، وله من دونِ شكٍّ بُعْدُ الوليمةِ. وَيَحْمِلُ في هيكليّتِهِ مَعْنى العيْش والعمل معًا، ضمن أهدافٍ محدّدةٍ لمصلحةِ المؤسّسةِ والوطن.

قربانُ الكلمةِ في جامعةِ سيّدةِ اللويزة نريدُهُ طيِّبَ المذاقِ، يُحيي، لا يُميتُ. هو للنور لا للظُلمةِ. بعيدٌ من المحسوبيّاتِ والسّياساتِ الضّيِّقَةِ، الداخليَّةِ منها والخارجيَّة.

قربانُ الكلمةِ في جامعتِنا هو للحياةِ، هو سِرُّ الحضور الحقيقيِّ للربِّ الإلهِ، وليسَ لحضور أشخاصٍ تُسيطِرُ عليهِم الأنانيَّةُ وحُبُّ الذّاتَ.

قربانُ الكلمةِ في جامعتِنا، نريدُه كالإفخارستيّا يُنبوعَ شَركَةٍ ووَحْدَةٍ: نأكُلُ من خُبزٍ واحِدٍ وَجَسدٍ واحِدٍ.

«خُذوا، كُلوا...ثُمَّ أَخذَ كأسًا... وأعطاهُمْ قائلاً: إشربوا منهُ كُلُّكُم». (متّى ٢٦/٢٩–٢٧). هذا المظْهَرُ يُعَبِّرُ بجلاءٍ عن علاقةِ الشّركَةِ التي يريدُ اللهُ أَنْ يُقيمَها معَنا، والتي تُحتِّمُ علينا بالمقابل أَنْ نطوِّرَها بعضُنا مَعَ بعض، هُنا في هذهِ الجامعة، مِنْ خلالِ ثقافَةِ الحوارِ المُعزَّزَةِ بثقافةِ الإفخارستيّا... الكُلُّ له دورٌ في هذهِ الشركَةِ. فالقربانُ يدعونا إلى تغذيةِ روحانيَّةِ الشّركةِ التي تحمِلُنا على الانفتاحِ المُتبادَلِ وَالتَفَهُّمِ والغُفران.

قربانُ الكلمةِ في جامعةِ سيّدةِ اللويزة هو مصدَرُ ومشروعُ رسالةٍ مقدَّسَةٍ، ألا وهيَ رسالةُ التربيةِ التي أرادتِ الرّهبانيّةُ المارونيَّةُ المريميَّةُ أَنْ تقدِّمَ ذاتَها من خلالِها ومِنْ خِلالِ قربانِ الكلمةِ الذي لا نَسْمَحُ لا لذواتِنا ولا لسوانا بتدنيسِهِ أو بتدنيسِ المائدةِ التي يُقَدَّمُ عليها، أيًّا كانَ هذا الأحَدُ، ولأيِّ فريقٍ انتسَبَ، ولأيِّ حِزْبٍ انتمى؛ فهذِهِ الأرضُ مُقدَّسَة، وللجامعة حرمُها الانسانيّ.

«إخلَعْ نعلَيْكَ من رجليكَ، فالأرضُ أرضٌ مُقَدَّسَة»...

دور الإعلام في التكوين الديمقراطيّ

(الديمقراطيّة الإعلاميّة المركّبة)

النموذج اللبنانيّ

د. جورج كلاّس

مقدّمة

يطرح موضوع الإعلام ودوره في عمليّة التكوين الديمقراطيّ في المجتمعات النامية، في النموذج اللبنانيّ، إشكاليّة ثلاثيّة الأضلاع، تتركّز على ضرورة تحديد مفهوم الإعلام ودوره في المجتمعات النامية، والعمل على قياس نسبة الديمقراطيّة وكيفيّة تطبيقها أو عيشها، ثمّ إقامة موازنة تحليليّة، تبيّن نسبيّة التكامل بين وظيفة الإعلام وفلسفة الديمقراطيّة في التكوينات المجتمعيّة التعدّديّة، بما تحمله تلك التكوينات من تمايز وتباعد أو توافق واختلاف، في طبيعتها وخلفيّتها، على المستوى الدينيّ، أو العرقيّ، أو الحضاريّ، أو الثقافيّ والعقيديّ.

ويبدو من خلال تظهير هذه الصورة المجتمعيّة المؤتلفة، أنّ التكوين الديمقراطيّ في المجتمعات النامية، محكوم بعمليّة تطوير الإعلام، وتوسيع دائرة اهتمامه، وتعميق سلطته الناقدة، وقبوليّة عناصر المجتمع التعدّديّ بالرأي الآخر، عن طريق الإقرار بالحقّ وبالخصوصيّة، والحقّ في التنوّع والحقّ في الاختلاف. هذه المرتكزات، تؤسّس لعمليّة فهم مباشر لمعنى الديمقراطيّة في المجتمعات التي تعيش مرحلة انتقاليّة بين التخلّف والتقدّم، وتساعد على تلمّس المعوّقات المانعة للتطوير وإشاعة المفاهيم الديمقراطيّة، وتعميق فهمها ونشر تطبيقاتها وثقافتها الميدانيّة، وتعمل على تسهيل تكامل الدور بين الإعلام والديمقراطيّة والتعدّديّة، لإنتاج نمط جديد من السلوك الجماعيّ يقوم على قاعدة التشارك بالحقوق والواجبات.

ومن ركائز الإعلام والتكوين الديمقراطيّ، فهم أصول الديمقراطيّة التطبيقيّة، بمعنى الانتقال من القول إلى الفعل، ثمّ تحديد ميادين الديمقراطيّة، عن طريق تركيز مجالات الإعلام في تكوين الديمقراطيّة، وبناء أسس الإعلام الديمقراطيّ، من حيث هو إعلام كلّ الناس لكلّ الناس، خلوصًا إلى تفصيل مواصفات الإعلاميّ الديمقراطيّ، من حيث دوره في رعاية الديمقراطيّة وحمايتها، والتزامه بتطبيقها في مجال عمله، من خلال حياديّته وصحّة مقاربته للأمور، وموازنته المتكافئة بين مختلف الحالات والآراء والقضايا، ورعايته للسلوكيّات المهنيّة الناظمة لعمله.

فمن خلال تمكين الشعوب بالديمقراطيّة، التي هي عمليّة تصنيع للقوى المتكاملة في المجتمع، ينتقل مفهوم الديمقراطيّة في الإعلام، من كونه (صوت الشعب)، إلى مفهوم (قوى الشعب المتكافئة الحضور وصاحبة الحقّ في الحضور).

فالمجتمعات التعدّديّة، التي يصحّ توصيفها بأنّها (فدراليّة قوى) حضاريّة ودينيّة وقوميّة وثقافيّة، تتعايش في ظرف ومكان محدّدين، وتحتضن مجموعة قوى صغيرة، (تكوّنات فرديّة)، تتكامل طوعًا، في إطار منظومة التكامل والمسؤوليّة التكامليّة، حيث يكون لكلّ قوّةٍ نواة حضورها وموقعها الذي يتوافق ونسبيّة مسؤوليّتها المجتمعيّة، وفي ذلك أبسط أشكال انعكاس حضور الجماعات في ديمقراطيّة التمثيل النسبيّ. **لأنّ الديمقراطيّة التمثيليّة** في مفهوم النسبيّة، هي أكثر عدالة وأوسع توضيحًا من **الديمقراطيّة الأكثريّة**، التي يغيب معها (الصوت الآخر) عن الفعل التنفيذيّ، مختبئًا خلف **(الديمقراطيّة المعارضة)** التي يتلخّص دورها بالرصد والمراقبة والانتقاد والفضح والتصويب، بما يتكامل مع **(الديمقراطيّة الحاكمة)** في إطار قيامها بواجباتها، وتنفيذها لمخطّطاتها وبرامج عملها المعلنة في مشاريعها وأفكارها.

هذا الوضع، الشارح للثنائيّة التكامليّة، بين **(الديمقراطيّة الحاكمة)** و**(الديمقراطيّة المعارضة)** في المجتمعات الحرّة، أو التي هي على طريق الحريّة، سواء أكان الوصول إلى الحريّة عن طريق (التحرير) أو عن طريق (التحرّر)، يؤكّد على أن لا حريّة في التفكير والتعبير والتحرّك، خارج نطاق **الديمقراطيّة الضامنة لتعدّديّة الحريّات**، ولمبدأ تداول السلطة والأدوار. والعنصر الضامن للحريّات وأشكال الديمقراطيّة، هو الإعلام بفنونه وأنواعه ووظائفه التوعويّة والنقديّة والإصلاحيّة. فالدور النقديّ والإصلاحيّ للإعلام تتركّز وظائفه بوضوح في المجتمعات الساعية إلى الديمقراطيّة، باعتبار أنّ الديمقراطيّة هي معيار مقاس درجات النمّو في المجتمعات البشريّة والتكوّنات السياسيّة والدينيّة والعرقيّة. فالإعلام الديمقراطيّ من حيث هو لسان الجماعات، بأكثريّتها وأقليّاتها، يعزّز منطلقات المسؤوليّة الفرديّة، ويساعد على تنمية قدرات الفرد وقدرات المجموعة المكوّنة للحالة السياسيّة أو القوميّة أو الدينيّة أو العقيديّة، لأنّ منطق (الأكثريّة) و(الأقليّة) موجود في كلّ هذه الحالات، ولا يمكن إقامة عدالة تمثيليّة في المجتمعات المركّبة والنامية، خارج مبادئ **(الإعلام الديمقراطيّ)** الذي هو أكثر مظاهر الديمقراطيّة التعبيريّة، وضوحًا وإسهامًا بتحويل مبادئ الديمقراطيّة من النظريّة إلى الميدانيّة، بتطبيقاتها المرحليّة.

١- وظائف الإعلام الديمقراطيّ

إذا كان **(إعلام التنمية)** هو أحد وجوه الإعلام الديمقراطيّ، فإنّ لهذا الإعلام أدوارًا ووظائف، منها:

- التربية على قبوليّة الرأي الآخر والإفادة من قدراته.
- تنمية الشعور الفرديّ المنفتح على التلاقي والتكامل.
- تأصيل روح الديمقراطيّة والتشجيع على ممارسة الحضور السياسيّ للتكتّلات المجتمعيّة.
- التشجيع على مقاربة المواضيع الدقيقة ومعالجتها جهرًا، وبجرأة نقديّة.
- العمل على حماية الرأي، وحماية مصادر المعلومة، وحماية الشاهد العيان، لأنّه يسهم في تعزيز ديمقراطيّة تبادل المعلومات وديمقراطيّة المشاهدات، وتعميمها ووضعها في خدمة النفع العامّ.
- فضح المخالفات والتجاوزات وتعريف كلّ الناس بها، من خلال تأسيس مبدأ (ديمقراطيّة المعرفة).
- محاربة الفساد السياسيّ والاقتصاديّ والإداريّ، وإظهار وجوه الفساد وطرقه، والتشجيع على مكافحته.
- التنبيه إلى مخاطر ووجوه **الفساد الإعلاميّ**، والدعوة إلى بناء فكر نقديّ، ينتقي المعلومة، ويفهمها وينتقدها، قبل أن يصدّقها أو يرفضها.
- التربية على **ديمقراطيّة الخبر وديمقراطيّة الصورة**، واعتبار أنّ كلّ معلومة هي (مادّة معروضة أمام الناس) وليست (مرسلة إليهم). ففي حالة **عرض المعلومات**، يكون الإنسان أمام قدرته على الانتقاء والاختيار، والحكم على صحّة المعلومة، لأنّه متلقٍ إيجابيّ. أمّا في حالة إرسال المعلومات، فالإنسان يكون أمام عمليّة تلقٍّ سلبيّ للمعلومات.
- ومن أساسيّات الإعلام الديمقراطيّ أنّه يحوّل عمليّة الإعلام،

من مرحلة (إرسال المرسلة) إلى مرحلة (عرض المرسلة). وهذا التطوّر في نمطيات الإخبار، يفرض على الإعلاميّ، إنطلاقًا من العمليّة الديمقراطيّة، التي يجب أن تقوم بين (المُعلِم) و(المُستعلِم)، أن يتحوّل من (وسيط إخباريّ) يرصد المعلومات وينقلها إلى المتلقّي، إلى (خبير عالم في مجاله) ينتقي المعلومة والقضيّة، ويفتّش عن الجدّة في الخبر والموضوع، ويدرس مادّته، قبل أن يعرضها للناس للإفادة من عناصرها، **كمعلومة مشغولة**، وللإفادة من خبرته كمتخصّص في الموضوع. وهكذا تكون أولى علامات الإعلام الديمقراطيّ، ممارسة عمليّة **(الاستعلام للإعلام)** و**(الاستعلام للعرض)**، وذلك من ضمن قانون توفير كلّ المعلومات الصحيحة والمتقنة والموثوقة لكلّ الناس، وتعميم (المعرفة المشاع) أي ديمقراطيّة المعرفة.

- التشجيع على تقصّي المعلومة، ومسبّبات الحدث ولواحقه ونتائجه، من خلال تأصيل دور الإعلام الديمقراطيّ في مجال (الصحافة الاستقصائيّة).

- توفير حريّة الوصول إلى المعلومة، في أيّ ظرف ووفق الأصول **(ديمقراطيّة الموازنة)**.

- منح الإعلاميّ حصانة مهنيّة، تبعده عن كلّ ما يعوق تحرّكه، في سبيل كشف الفضائح وملاحقة الحقائق، والسعي إلى بناء ثقافة إعلاميّة، ترتكز على قاعدة (ديمقراطيّة التعرّف إلى الأخبار والتعريف بها).

- تشكّل ديمقراطيّة الإعلام ضمانًا للأقليّات للتعبير عن آرائها ومواقفها، من حيث أنّ الإعلام الحرّ هو منبر مفتوح لكلّ الناس.

- يسهم الإعلام الديمقراطيّ، بتوفير **(ديمقراطيّة التفكير)** لشرحات المجتمع كافّة.

- يمكّن **الإعلام الديمقراطيّ** الجماعات من ممارسة سلطة (التقرير)، بمعنى الإسهام في صناعة القرار الجماعيّ، وذلك من خلال توفير (ديمقراطيّة القرار الخاصّ) الذي تتّخذه كلّ جماعة بإرادتها الحرّة، من ضمن عمليّة بناء وتكوين منظومة **(ديمقراطيّة القرار العامّ)**.

٢ – موقع الإعلاميّ، بين ديمقراطيّة المجتمع وديمقراطيّة المؤسّسة الإعلاميّة

يعيش الإعلاميّ في المجتمعات النامية، التي تتّصف بالليبراليّة، والتعدّديّة والحريّة الصحافيّة، أزمة تحرّك وفعاليّة، لأنّه يكون أسير مفهومين:

- مفهوم المجتمع للديمقراطيّة وكيفيّة ممارسته لها، والتربية عليها.

- مفهوم المؤسّسة الإعلاميّة للديمقراطيّة، ومدى توفيرها للإعلاميين العاملين فيها، بمعنى أن توفّر المؤسّسة حالة ديمقراطيّة مفتوحة للإعلاميين، حتّى يتمكّنوا من إنتاج إعلام ديمقراطيّ حرّ، خارج أيّ قيد أو توجيه.

فأولى **وظائف الإعلام الديمقراطيّ**، أن ينتج إعلامًا ديمقراطيًّا فيه مساحة واسعة للنقد وتبادل الآراء المتعاكسة بين مختلف زبائن الإعلام والعاملين فيه والمستفيدين منه، وينتج عن ذلك أن لا إعلام ديمقراطيًّا، من دون إعلاميين ديمقراطيين، ومؤسّسات إعلاميّة توفّر الديمقراطيّة للإعلاميين، في داخلها، إنطلاقًا من مفهوم تعدّد الديمقراطيّات بين الإعلاميين في المؤسّسة الواحدة.

ومن أهمّ شروط **ديمقراطيّة المؤسّسة الإعلاميّة**، أن تكون المؤسّسة حرّة القرار، مستقلّة التمويل، وتتوفّر لديها حريّة الوصول إلى مصادر الأخبار، وأن تبقى خارج **ضغوطات الإعلان**، الذي كثيرًا ما يحيد بالمؤسّسة عن **توجّهاتها الديمقراطيّة**، في ممارساتها الإعلاميّة والإخباريّة والبرامجيّة. **فالإعلاميّ الديمقراطيّ** محكوم بأن يوازن بين الأطراف واتّجاه المعلومات وتنوّع الأخبار، وأن يهتمّ بالخبر الصغير، كما يهتمّ بالخبر الكبير، وألاّ يسقط من اهتمامه أيّ معلومة، لأنّه يتوجّه إلى كلّ أعضاء المجتمع وليس الى فئة دون أخرى. **فالديمقراطيّة في الإعلام**، تُظهر (لا عدالة) **ديمقراطيّة الأكثريّة**، حيث تحجب نسبة الـ ٥١٪، موقع وتوجّهات الـ ٤٩٪ التي تشكّل **ديمقراطيّة الأقليّة**.

٣– نظريّة الديمقراطيّة الإعلاميّة المركّبة

إنّ الحالة الديمقراطيّة في المجتمع، لا يمكن قياسها بمنطق الأكثريّة والأقليّة، بل بمنطق التكامل بين **الديمقراطيّات** المكوّنة للمجتمع التعدّديّ، والتي يعمل الإعلام الحرّ على تظهيرها بواقعها التمثيليّ، والتعاطي معها بوعي ومسؤوليّة، إنطلاقًا من نظريّة خلصت إليها من خلال عمليّ الرصديّ ومتابعاتي الأكاديميّة والمهنيّة في المجال الإعلاميّ. وتتلخّص عناصر هذه النظريّة بالنتائج التالية:

١. **الإعلام في المجتمع الديمقراطيّ**، هو إعلام كلّ الجماعات وإعلام لكلّ الجماعات، وليس هو إعلام الأكثريّة ولا إعلامًا لصالح الأكثريّة دون غيرها من التكوّنات.

٢. **الديمقراطيّة – التوافقيّة**، في المجتمع التعدّديّ، تنتج إعلامًا توفيقيًّا، يبرز نقاط الجمع والتواصل ويقوّم إيجابياتها، ويشير إلى نقاط الافتراق والتمايز، ويعمل على شرحها وتقريب وجهات النظر بين التباينات الحاصلة.

٣. **إعلام الجماعات في المجتمع الديمقراطيّ**، هو مجموعة أنماط ونماذج إعلاميّة تتكامل، وفق الشكل الدائريّ، لإنتاج حقيقة، أو معلومة، أو مقاربة تحليليّة إئتلافيّة وتوافقيّة، حيث تكون **(الحقائق الخاصّة)** بكلّ جماعة، في أساس مكوّنات **(الحقائق العامّة)**، التي هي عنصر الإعلام الديمقراطيّ العامّ.

٤. **إنّ الديمقراطيّة الإعلاميّة**، في المجتمع المركّب،هي **ديمقراطيّة مركّبة**، تجمع عناصرها التمايز والتلاقي في المواقف والآراء والتحليلات، فتدرسها وتعيد إنتاجها، مادّة دائريّة العناصر، حيث تجد كلّ جماعة فيها حقيقتها الخاصّة، ضمن منظومة الحقائق العامّة.

٥. ينتج عن ذلك أنّ **الديمقراطيّة الإعلاميّة**، هي **ديمقراطيّة مركّبة**، تعتمد شكل التكامل الدائريّ، وليست نظام الرأي الأكثريّ ذي الشكل العموديّ، الذي يتحدّث عن هموم وقضايا أغلبيّة الناس، لا كلّ الناس.

٦. **تركّز الديمقراطيّة الإعلاميّة المركّبة**، في شكلها الدائريّ، على علامات التمايز، والخصوصيّات والقضايا الخلافيّة.

٤- معوّقات ديمقراطيّة الإعلام

كون الإعلام علمًا منفتحًا على كلّ الحالات السياسيّة والمستويات الفكريّة، والممارسات السلوكيّة، للمجتمعات المنضوية في أنظمة سياسيّة ودول دستوريّة وكيانات توتاليتاريّة، أو دول ذات نظم انفتاحيّة وحرّة، فإنّه يبقى على تماسّ واضح مع قضايا المجتمع وتفاعلاته وذهنيّات الحكّام وأفكارهم، وتصرّفاتهم التي غالبًا ما تكون **(تصرّفات وقائيّة)**، تكتسب مشروعيّة ظلامتها من مشروعيّة مصلحة الحاكم، الذي غالبًا ما يشرّع لنفسه تسخير النظام السياسيّ والنظام الإعلاميّ لخدمة شخصه، من خلال الممارسات الوقائيّة، التي يوظّف الإعلام لإنجاحها وتجييرها لخدمة مشروعه الخاصّ.

وهذه الظاهرة تفرض النظر إلى حالة الديمقراطيّة في المجتمع السياسيّ، من زاوية مقياس الحريّة الإعلاميّة والحريّة السياسيّة في هذا المجتمع ومحيطه. فالمجتمعات الحرّة هي مجتمعات مفتوحة على كلّ الاحتمالات، في مجال التعاطي مع الوسائل الإعلاميّة، وظائف ومضامين، إذ تظهر التجاذبات الحادّة بين معوّقات الدمقرطة والحوافز المستجدّة على ممارستها. وإذا كانت حوافز التشجيع على **دمقرطة الإعلام** والإفادة منها، هي العلامات الراسمة لمسار أيّ عمليّة إعلاميّة ناجحة ومتماسكة الأهداف والرؤى، فإنّ التركيز على معوّقات دمقرطة الإعلام، في مختلف الأنظمة السياسيّة وأشكالها، يوضح الاشكالات التي تعترض عمليّة النهوض بإعلام ديمقراطيّ سليم، يؤدّي مهامّه بنجاح وحياديّة، ويحرص على تعميم الديمقراطيّة ورعايتها، وتنمية عمليّة **التعاطي الديمقراطيّ السليم** بين قطاعات المجتمع وتنوّعاته، الموزّعة شرحات فكريّة وطبقيّة وعقيديّة ومذهبيّة وانتماءات وانضواءات وولاءات، بما يكفل خلق مجتمع تعدّديّ على مستوى القاعدة والتنوّع، ومجتمع متقارب الرؤى على صعيد القيادة وصناعة الرأي التوافقيّ.

وأبرز معوّقات دمقرطة الإعلام في المجتمعات النامية:

- غياب التربية على الديمقراطيّة ورعايتها.
- غياب الممارسة الديمقراطيّة في الحياة العامّة.
- عدم قيام مؤسّسات المجتمع الأهليّ بعمليّة محو أميّة، على صعيد التعريف بالديمقراطيّة، مبادئ وممارسات.
- عدم تشجيع وسائل الإعلام الناس على ممارسة الديمقراطيّة الإعلاميّة، وديمقراطيّة إبداء الآراء، من خلال إسهامهم في إنتاج موادّ وكتابات إعلاميّة حرّة.
- إحجام الناس عن تقدّم مقاربات للمواضيع السياسيّة والقضايا العامّة، بواسطة وسائل الإعلام.
- عدم معرفة الناس بحقوقهم العامّة، وبحقّ المواطن في الإعلام الحرّ، وبحقّه في **إعلام ديمقراطيّ**، يحمل كلمته ورأيه إلى الناس.
- غياب **التكافل الديمقراطيّ** بين مؤسّسات المجتمع المدنيّ.
- ممارسة بعض وسائل الإعلام مبدأ (احتكاريّة السلطة) **وعدم توفير الفرص الديمقراطيّة** في الإعلام لإبداء الرأي والاعتراض أو النقاش، كممارسة عمليّة للديمقراطيّة الإعلاميّة.

وتتوزّع **أشكال معوّقات الدمقرطة الإعلاميّة**، على نموذجين من الضواغط المانعة: ضواغط داخليّة وضواغط خارجيّة.

أمّا **الضواغط الداخليّة** فتتحدّد في الموانع التي تحدّ من إقدام الإعلاميّ على ممارسة كامل حريّته بالتعبير عن رأيه، والتعبير عن انشغالات الآخرين وهمومهم، والتحدّث باسمهم، والمطالبة نيابة عنهم. ومن أشكال هذه الضواغط:

- الالتزام الحزبيّ والعقيديّ الضيق.
- أحاديّة النظرة إلى القضايا والأمور.
- انصياعه لرغبات ومشيئة وسياسة المؤسّسة التي يعمل لصالحها.
- الرقابة الداخليّة التي تمارسها المؤسّسة على حريّة الإعلاميين فيها، ومقدار ممارستهم للديمقراطيّة.

وبالمقابل نرى أنّ **الضواغط الخارجيّة** التي تعوّق دمقرطة الإعلام، وتحدّ من قدرة الإعلاميّ على إنتاج إعلام ديمقراطيّ حرّ، إنّما تتمثّل بالأشكال التالية:

- سياسة الدولة أو النظام الحاكم ومدى قبولهم للممارسة الديمقراطيّة الحرّة داخل شكل الحكم الذي يمارسونه.
- التمويل والدعم الماديّ للمؤسّسة، وتأثيرهما على حريّة التعبير وممارسة ديمقراطيّة الرأي.
- النظام الاقتصاديّ للبلد، ومدى انعكاس فلسفته وتطبيقاته على حريّة المؤسّسة والإعلاميّ.
- التبعيّة الاقتصاديّة للمؤسّسة، والتي هي أبرز الضواغط المعوّقة للحريّة التعبيريّة.
- ضواغط الإعلان كمموّل للمؤسّسة التي يعمل فيها الإعلاميّ، وتأثير المعلنين على سياسة المؤسّسة وتوجّهاتها.
- الرقابة الخارجيّة على الإعلام، من رقابة الدولة إلى رقابة الحاكم، إلى رقابة (المصالح الخارجيّة).
- رقابة مستهلك الموادّ الإعلاميّة (المتلقّي) الذي يبدي آراءه تصويبًا ونقدًا واعتراضًا، حول مواضيع تثار في الإعلام، وفيها انتقاص للممارسة الديمقراطيّة، التي تقوم بها المؤسّسة والإعلاميّ على السواء، وذلك انطلاقًا من (حقّ المستهلك) في الديمقراطيّة الإعلاميّة.

٥- الإعلام والديمقراطيّة في المجتمعات النامية

يتلازم تطوّر مفهوم الديمقراطيّة في المجتمعات النامية، مع تأصّل مفهوم الحريّة وثقافة ممارستها بين الناس، بالارتكاز على مدى فهم النظام السياسيّ لمعنى الديمقراطيّة، ومدى اتّساع المساحة التي يحدّدها هذا النظام للحريّة، على صعيد التطبيق العمليّ والسلوك الميدانيّ للأفراد والجماعات والتكتّلات، في مختلف مواقعها في المجتمع ومواقفها من النظام، وسياسة الحكم.

فكلّما ارتقى المجتمع درجة في مقاسات سلّم الديمقراطيّة، كلّما خطا خطوة محاذية نحو الحريّة، ما يؤكّد على حتمية العلاقة وطبيعتها، بين الديمقراطيّة والحريّة، إن من حيث تلازمهما، وإن من حيث ارتباطهما بفلسفة النظام السياسيّ، وبفكرة الحريّة عند المواطنين، وطريقة عيشها وتطبيقاتها.

وفي ظلّ حتمية العلاقة بين النظام السياسيّ، ومفهوم الديمقراطيّة ومقاسات الحريّة، في المجتمعات النامية، يبرز دور (الإعلام) كعنصر توفيقيّ، يجمع بين هذه الخصائص والتوجّهات، ويعمل على توضيح الأهداف والتطلّعات، ويسهم إلى حدّ بعيد في تقصير أسس العلاقة التي يجب أن تكون جليّة وسليمة، بين بنية الدولة (المجتمع السياسيّ) ونظام الحكم (ليبراليّ، توتاليتاريّ) وطبيعة الحاكم (عسكريّ، سياسيّ، محافظ، متشدّد) والمستوى العامّ للشعب، وكيفيّة فهمه للحريّة ونظرته إلى تحديث النظام، ومدى قدرته على **استخدام الديمقراطيّة**، وتوظيفها في خدمة الارتقاء الكلّيّ للمجتمع، ضمن (منطق التكافل والتكامل) الذي يحكم علاقة المواطن بالحكم والحاكم، ونظرة هذا المواطن إلى التحديث السياسيّ وتفعيل مكوّنات المجتمع بالإعلام. وغالبًا ما يكون للإعلام دور عمقيّ في بناء المجتمع الديمقراطيّ، حيث يتّخذ بداية شكل **الإعلام التنويريّ**، لينتقل بعدها إلى **الإعلام التحريضيّ**، ومنها إلى **الإعلام الداعم** للأفكار والحركات التحرّريّة، وصولاً إلى **الإعلام الانقلابيّ** الذي يحدث ثورة في المفاهيم والممارسات، ويبدّل المواقع عن طريق تعميم ديمقراطيّة الآراء، وتظهيرها بالإعلام، وجعلها أمرًا واقعًا، له مركزه على الخريطة السياسيّة والاجتماعيّة في البلد.

والإعلام في المجتمعات النامية، يتّخذ صفة الديمقراطيّة، نظرًا لاتّصاله المباشر بهموم التكتّلات المجتمعيّة المكوّنة لتركيبة الوطن الشعبيّة والاتنيّة، ونظرًا لعلاقته العفويّة بالهيئات الدستوريّة والحكوميّة والأهليّة، ونقله لمواقفها وآرائها، من دون أن يهمل حقّ أيّ جماعة أو مجموعة، مهما صغر حجمها، بتوصيل آرائها وإعلان مواقفها والدفاع عنها، ونقض الرأي الآخر ومناقشته والحقّ في

معارضته ورفضه، بحريّة كاملة، وخارج هذه الحريّة، في إعلان المواقف ورفض مواقف أخرى، لا يكون هناك مجتمع ديمقراطيّ، ولا إعلام ديمقراطيّ، لأنّ الديمقراطيّة هي تفاعل بين مستويات فكريّة متقابلة، تحكمها آليّة التنافس بين منطق المعارضة ومنطق الموالاة. ومن هذا المنظور يتمّ طرح علاقة الإعلام الديمقراطيّ بالسلطة غير الديمقراطيّة، وتأثيرات منطق السلطة وممارساتها على الإعلام، من خلال قياس مساحة الحريّة المسموح له أن يتحرّك فيها، أو من خلال مفهوم يتوافق ومنطق السلطة الضيّق، الذي يسمح بتوفير قدر من الحريّة الإعلاميّة، شرط أن يتمّ توظيف هذه الحريّة لخدمة النظام أو الحاكم !!!

وإذا كان الإعلام الديمقراطيّ، بمنطلقه ووظيفته وفلسفته، ملازمًا للحالات الديمقراطيّة في المجتمعات السياسيّة، فإنّ حريّة الإعلام الديمقراطيّ تقاس باحترام الأنظمة للإعلام الحرّ، وبمدى إفادة هذه الأنظمة من النمطيّات النقديّة للإعلام، لأنّ الإعلام الحرّ يقدّم خدمات واسعة للحكّام والسياسيين، ما يفرض على الأنظمة أن تعمل لحماية الصحافيين وتحصين دورهم ومكانتهم، وحفظ حقوقهم، وتمكينهم من الوصول إلى مصادر المعلومات، وإسهامهم في توفير (الحقّ في الإعلام) لكلّ الناس. ومبدأ حقّ الناس في إعلام صحيح يوفّر للناس المعلومات المشاع، المتاحة. وهذا ما يزيد من فرص إنجاح تعميم الديمقراطيّة بواسطة الإعلام، ومواكبة هذه العمليّة بما يكفل خصوصيّات الإعلام، وخصوصيّات المجتمع على السواء. وفي سبيل تحسين مستوى الأداء الإعلاميّ، وتحصين موقع الصحافيّ ودوره، يتركّز العمل على وضع **(ميثاق شرف)** إعلاميّ، تنفتح موادّه ومبادئه على تحديات الإعلام الديمقراطيّ، ويستهلم أفكاره من أجواء الحالة الديمقراطيّة وطرق عيشها وممارستها ميدانيًّا. فمواثيق الشرف الإعلاميّة، هي من العلامات المميّزة للمجتمعات والأنظمة، لأنّها توطّد لكيانيّة مهنيّة، ذات شخصيّة معنويّة، ولها موقعها في تحديث المسار الديمقراطيّ وإغنائه بالتجارب والأفكار العمليّة غير المستحيلة التطبيق.

٦- الإعلام الديمقراطيّ وصيانة العدالة

إنّ الدور النقديّ للإعلام الديمقراطيّ، يجعله إعلامًا نوعيًّا، غنيًّا بالتجارب والخبرات والمتابعات الميدانيّة، التي تخلق منه نوعًا من المرجعيّة الإخباريّة، والمرجعيّة السياسيّة، والمرجعيّة التحديثيّة في البلد، وذلك لشدّة الترابط الحاصل بين ساحة التحرّك السياسيّ، ومقدار الحريّة المتاحة في هذه الساحة. فالإعلام الديمقراطيّ، من حيث مسؤوليّته الاجتماعيّة والحضاريّة، مسؤول عن رعاية العدالة في المجتمع، والعمل على صيانتها، والسهر على تنفيذها بشكل سليم، ولا يحدث أيّ خلل في معايير القوى وموازين السياسة ومجالات التحديث العام.

فالإعلام الديمقراطيّ يعكس آراء ومواقف مختلف التكوّنات، من حيث أنّ هذه التكتّلات هي بطبيعتها مجموعة (ديمقراطيّات صغيرة)؛ وبالتالي، يكون هدف الإعلام الديمقراطيّ خلق **(ديمقراطيّة مركّبة)** تكون بمثابة **(ديمقراطيّة توافقيّة)**، تأخذ باهتمامات كلّ الجماعات، وتعمل على نقل آرائها بموضوعيّة وأمانة. وتشكّل صيانة العدالة عنصرًا أساسيًّا من عناصر الإعلام الديمقراطيّ، حيث العمل الجادّ على مشروع تنمية الرأي الحرّ، والتأكيد على أنّ الحقّ في الاختلاف هو من علامات الديمقراطيّة الاجتماعيّة والسياسيّة، وأنّ استثمار تعدّديّة الآراء هو من وجوه الإعلام الديمقراطيّ ووظائفه الهامّة، فضلاً عن مسؤوليّة الإعلام الديمقراطيّ في التعريف بالتنوّع الفكريّ، وآليّة إدارة هذا التنوّع ومجالات تنميته واستثماره.

والعلاقة المباشرة بين الإعلام والتقصّي، تفرض على الصحافيّ في خلال عمله، أن يبرّر في كتاباته مواقف الفرقاء وآراءهم، وأن يتيح الفرصة لهم للتعبير عمّا يريدون قوله، بدلاً من أن يكثر من التحليلات والقراءات الناقدة. فتحليل المواقف وتفسيرها، يعطّل ديمقراطيّة تعدّد الآراء، ويجعل العمليّة الديمقراطيّة أسيرة رؤية الصحافيّ وتوجّهاته. لذلك، فإنّ الصحافة مدعوّة لإتاحة الفرص أمام الناس لقول ما يريدون قوله، بجديّة مطلقة، بمثل ما هي مدعوّة للابتعاد قدر الإمكان عن (إعلام التحليل والتفسير) حيث يكثر التأويل والتفسير الأحاديّ النظرة.

وإذا كانت **حريّة الوصول إلى المعلومة**، وحماية المعلومات وأصحابها، إضافة إلى **حقّ الشاهد العيان بتوفير الحماية له**، هي أساسيّات الإعلام الحرّ في المجتمعات الديمقراطيّة، فإنّ التطلّعات المستقبليّة للإعلام الديمقراطيّ يجب أن تهدف إلى الأمور التالية:

أوّلاً- إتّباع سياسة ردم الهوّة بين قوى الرأي، عن طريق توفير إعلام مستقلّ وغير ممسوك وغير موجّه.

ثانيًا- إتباع فنّ (تجفيف المستنقعات) الفاصلة بين المواقع، ومحاولة تظهير خصوصيّات الجماعات بما يتوافق والرؤى الشاملة للشعب بتقاطعاتهم وتلاقياتهم.

ثالثاً- التحوّل من إعلام التحليل والنقد والقراءات، إلى إعلام المنابر الحرّة؛ وهذه أبرز تجليّات **الديمقراطيّة الإعلاميّة**، حيث (الأقلام الصغيرة) تتحاور وتتفاعل مع (الأقلام الكبيرة)، لصناعة الحقائق الخاصّة، وإعادة إنتاجها، وفق نمط الحقائق التوافقيّة، التي تحتضن كلّ الآراء والمواقف والطروحات.

المطران يوسف الدبس
من مفاخر مارون ولبنان

د. دياب يونس

كان المطران يوسف الدبس دولةً في ذاته وإنجازاته.

لامَسَتْه يدُ العليّ فتيًّا، وكَلأتْهُ شابًّا، وقذفتْ في قلبه أسقفًا كلمةً قدّوسةً تقول: قُمْ، يا يوسفُ، في شعبكَ إمامًا؛ سرْ به من صحراء التخلّف إلى واحة الرقيّ؛ شُقّ بعصاكَ عِبابَ الصعاب. وكنْ لأُمّتكَ هاديًا وخادمًا ومعلّمًا. ها أنذا مُغْدِقٌ عليكَ عطايا العقل، ومواهبَ الإيمان، وعزيمةَ الجهد الرسوليّ. ألا امضِ إلى صليبكَ، فهو جسرٌ إلى سرّ الصعود. إسألْني أُعْطِكَ.

أمّا يوسف فسألَ. أمّا الربُّ فأعطى.

نشأة الدبس

أَبصرَ يوسف بن إلياس بن حنّا الدِّبس النُّور في ٨ تشرين الأوّل عام ١٨٣٣، في راسكيفا القرية الشماليّة الوادعة التي نزح إليها جدُّه في أواخر القرن الثامن عشر من غزير الكسروانيّة. أمّا أبوه فارتحل إلى قرية كَفَرْزَيْنا الزغرتاويّة وهي مسقط رأس زوجته روجينا عطيّة.

في كَفَرْزَيْنا نشأ الصبيُّ وتربّى وتعلّم في مدرسة «تحت السنديانة» المحاذية للكنيسة مبادئَ القراءة والكتابة بالسريانيّة والعربيّة فضلاً عن الحساب والتعليم المسيحيّ.

الدبس طالبًا

بدت عليه علاماتُ الذكاء والنباهة، فتكفّل الراهبُ البلديُّ (اللبنانيُّ) الأُمّيُّ مارون غندور مدْلج تسديدَ ما يتوجَّب على تعليمه في مدرسة عين ورقة، في غوسطا التي كانت، في تلك الفترة، أرقى مدرسة في لبنان، وجامعةَ الشرق، و«سوربون الشرق» على حد تعبير مارون عبُّود، و«أمَّ المدارس» على ما وصفها المعلّم بطرس البستاني.

دخل الفتى «سوربون الشرق» الإكليريكيّة بموافقة مطران طرابلس بولس موسى كسّاب، بتاريخ ٢٥ شباط ١٨٤٧، حيث تلقّى السريانيّة والعربيّة وألَـمَّ باللاتينيّة والإيطاليّة، واضطر ورفاقه، لأسباب داخليّة، إلى مغادرة عين ورقة، بعد ثلاث سنوات، فعاد إلى كفَرْزَيْنا في أواخر العام ١٨٥٠، وفتح له، من ثمّ، مكتبًا في طَرابُلس علَّم فيه اللغة العربيّة وتابع دروسه اللاتينيّة والإيطاليّة وتبحّر في علم الفلسفة واللاهوت.[١]

الدبس كاهنًا

في الخامس عشر من حزيران من العام ١٨٥٥، سيم يوسف كاهنًا، واضطلع بتعليم الفلسفة واللاهوت طوال خمس سنوات في إكليريكيّة مار يوحنّا مارون في كفَرْحَي البترونيّة. وكان، في أثناء العطلة الصيفيّة، يُلازم البطريركَ بولس مسعد في الديمان، ويسترقُ الوقتَ للكتابة والترجمة والبحث الفكريّ والتنقيب والكتابة في شتّى الموضوعات.

في العام ١٨٦٠، جعله البطريرك مسعد كاتبه وأمين سرِّه ومعرِّفًا له وملازمًا له في أشغاله وأسفاره وحلّه وترحاله، فرافقه إلى روما سنة ١٨٦٧ للاحتفال القرنيّ بعيد القدّيس بطرس، وتسنّى له الاطِّلاع على معالم الحضارات الغربيّة، والتعرّف إلى شخصيّات عالميّة كالبابا بيّوس التاسع، والإمبراطور نابوليون الثالث، والسلطان عبد العزيز. وقد دوّن «كاتبُ البطريرك وأمين أسراره» هذه الرحلة في كتاب أسماه «سِفْر الأخبار في سفَر الأحبار».[٢]

الدبس مطرانًا

رقّاهُ البطريرك مسعد إلى درجة الأسقفيّة في ١١ شباط ١٨٧٢، وعيّنه مطرانًا على بيروت خلفًا للأسقف طوبيّا عون. وهو مركز دينيّ وزمنيّ قد يضاهي المقامَ البطريركيّ رفعةً ومكانة[٣]، وهذا ما استدعى، فيما بعد، أن يُطْلَقَ عليه لقبُ «البطريرك الظلّ».[٤]

بادر، فور تسلّمه مقاليدَ أبرشيّة بيروت، إلى نقل كرسيّه الأبرشيّ من عين سعادة القائمة في المتصرّفيّة إلى قلب بيروت وهي من أعمال الولاية[٥]، مكرِّسًا بذلك ريادة الطائفة المارونيّة في إقامة المؤسّسات الدينيّة والتربويّة والتعليميّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.[٦]

شعر الدبس بأهميّة الوجود المارونيّ في بيروت، ونظر إلى مدارس عين ورقة، ومار عبدا هرهريّا، ومار يوحنّا مارون، ومار مارون الروميّة، وسواها، فألفاها ذات مستوى فريد في الشرق، إلّا أنّها إكليريكيّةٌ بحتة[٧]، فشاء أن يبني مدرسة لتعليم الشبّان العلمانيّين والإكليريكيّين تحفظ التراث والعادات والعبادات الأصيلة، فلا يلتجئ الموارنة إلى مدارس قد تُقْعِدهم عن واجبات الدين، وتواجه المؤسّساتِ التبشيريّةَ ولاسيّما الغربيّة المتمثّلة بالإرساليّات الكاثوليكيّة اللاتينيّة، والمبشِّرين البروتستانتيّين والماسونيّين الفاعلين من خلال الكلّية السوريّة الإنجيليّة (جامعة بيروت الأميركيّة)، وتحاربُ «العَثْمنة» التي بات أثرها واضحًا على المسيحيّين والمسلمين على السّواء، وتدعم الوجود التربويّ والتعليميّ والثقافيّ للموارنة[٨] الذين أخذت أعدادهم تتزايد في بيروت بعد أحداث العام ١٨٦٠.[٩]

في سبيل تحقيق أمنيته تلك، باعَ إلى عائلتَي سرسق وبسترس مزرعتَي كفريّا وشملان الغنيّتين[١٠]، ووجّه «نداء» إلى كاثوليك أوروبا طالبًا مساعته بواسطة حَسنة القدّاس[١١]، فتوفّر له أن يحقّق أهدافه وهي **مطبعة عموميّة**، وجريدة **النجاح** التي خلفتها جريدة **المصباح**، **ومدرسة الحكمة** التي تخيَّرَ اسمها نعتًا للسيّد المسيح، وجعل شعارَها آيةَ الكتاب الذهبيّة «رأسُ الحكمة مخافة الله».[١٢]

مدرسة الحكمة

شمخ بناءُ «الحكمة» في العام ١٨٧٥ في منطقة «الغابة» القاحلة في رمَيْل الأشرفيّة، مزدانًا بالقاعات الرحبة، مجهَّزًا بكلّ لوازم المعاهد العلميّة العصريّة. واشتهرت المدرسة، منذئذٍ، باسم «مدرسة المطران»[١٣]. وبَدَت «على غاية ما يكون من انتظام البناء والمعيشة وحسن الموقع وإتقان التعليم والتهذيب، ونالت شهرة عظيمة».[١٤]

رَفَعها المطران منارًا للّغة العربيّة إذ هي تُعنى بتدريس أصول لغة الضاد والمعاني والمباني والبيان وقرض الشعر والخطابة فضلاً عن تعليم اللغات الفرنسيّة والإنكليزيّة واللاتينيّة والتركيّة، والعلوم الأدبيّة،

والتاريخ والجغرافيا والفلسفة، واللاهوت والرياضيّات والطبيعيّات والعلوم الدينيّة والفنون الجميلة كالتصوير والموسيقى.[١٥]

وجهّز في الجناح الشرقيّ منها- وهو المهجوس بهموم الفقراء وقضاياهم- دارًا يتعلّم فيها المُعْوزون الصنائعَ والفنون مع مبادئ القراءة والكتابة والحساب[١٦]، كما أقام مدرسة لتعليم الفتيات عُرفت باسم «**مدرسة التقدّم**» وذلك في العام ١٨٩٤.[١٧]

لقد رامَ المطران الدبس أن يعطي اللبنانيّين، ولاسيّما أبناء الطائفة المارونيّة، ثقافةً عالية، وشخصيّةً مميّزة مفعمة بالأخلاق والقيم ليكونوا منارةً في مجتمعهم ورسلَ معرفة وثقافة.[١٨]

أراد أن يكون طلّابه أخوةً لا يباعد بينهم دينٌ أو أصلٌ أو لقب، فكانوا من جميع الطوائف والمناطق اللبنانيّة مسيحيّين ودروزًا وسنّةً وشيعة، وقَصَدَها طلّابٌ داخليّون من حلب ودمشق وأنطاكيّة والإسكندريّة ومصر. وكذلك كان معلّموها.[١٩]

وفي هذا السياق، يقول الأب لويس شيخو اليسوعيّ: «وكنتَ ترى بينهم ممثّلي سائر الأُسَر الشريفة والبيوتات المنيعة، من أُمراء شهابيّين ولمعيّين وأرسلانيّين، ومن شيوخ خوازنة ودحادحة وحبشيّة وتلاحقة وحماديّة، فضلاً عن أبناء أعيان لبنان كلحمة وضاهر وكرم الخ.[٢٠]

أسّسها مدرسةً للتلاقي بروحيّة الألفة والإخاء، وبروحانيّة عين ورقة، وشاءَها رسولةَ انفتاح وانصهار ومختبرَ ثقافات وتنوُّعِ حضارات[٢١]، فكانت البوتقة التي تلاقتْ وتصافت وتآزرت فيها القلوب[٢٢]، وتخايلت فيها لغةُ القرآن، ورفعت للعروبة صروحًا من أمجاد وروائع، أنْطَقت الكثيرين بفضلها العميم، فأنشد أحدُ خرّيجيها وهو شاعر الأرز شبلي الملاّط:

أنتِ الــتــي لَـقَّـنْـتِـنـا وطـنـيّـةً
حَـفِـظَـتْ لـنـا لـبـنـانَـنـا الـمسـتـعـربا.[٢٣]

وهذا ما حدا أحدَ خرّيجيها الأمير شكيب أرسْلان على القول إنّ العرب مَدينون لمدرسة «الحكمة» بتقوية اللغة العربيّة التي تدفع دمَ الحياة في شرايين سبعين مليونًا ينطقون بالضاد بين مشارق الأرض ومغاربها.[٢٤]

وكان خرّيجوها، على الدوام، يعترفون بأفضالها، ويدينون لمنابرها وأرباب الأدب والأخلاق من أساتذتها، وبخاصّة لسوق «عكاظ» وهو من بدائعها، ولمؤسّسها ورئيسها وأسقفها العربيّ، وينشرون نفحات الوفاء لها في الآفاق. وكان من أبرز هؤلاء شاعرُها المتيَّم الشيخ أمين تقيّ الدين الذي ناداها مبتهلاً:

«بــنــوكِ، فُــديتِ يــا أُمَّ الــبــنــيــنــا،
هــمُ أهــلُ الــوفــا لــو تَــعْــلــمــيــنــا
أبــوكِ أجَــلَّــهُ الــتــاريــخُ ذكــرًا
وأكــبــرَ فــيــهِ فضــلَ الــوالــديــنــا
بَــنــى الأخــلاقَ فــي لــبــنــانَ لــمّــا
بــنــاكِ، فــكــانَ خــيــرَ الــمصــلــحــيــنــا».[٢٥]

وقد أسماه أستاذ معهد الحكمة الشيخ يوسف الاسير حبرَ بيروت، ووصفه بالناسك الزاكي في قصيدة عصماء يقول عنه فيها:

لــمــلَّــةِ مــارونَ افــتــخــارٌ بــمــثْــلــهِ
فــقــد حــازَ أوصــافًا بــهــا قــد عــلا قَــدْرا.[٢٦]

ولعلّ من المفيد الإشارة إلى أنّ مدرسة «الحكمة» لم تَنْجُ من غضب الأتراك فأقفلوها، في أثناء الحرب الكونيّة الأولى، في وجه الطلبة، وأحالوا رئيسها وقتئذ الخوري بطرس مبارك إلى الديوان العرفيّ في عاليه أوّلاً ثمّ في بيروت.

معهد الحكمة العالي

وشدَّه الطموحُ إلى تأسيس معهد عالٍ للحقوق في قلب بيروت الولاية يدرِّس القوانين العثمانيّة والأوروبيّة والشرع الإسلاميّ باللغة العربيّة يومَ كانت تركيا تسعى إلى تتريك اللسان العربيّ، وتحرِّم بما يشبه العرف تدريسَ الشرع علنًا[٢٧]، فاستحصل على الترخيص من حكومة الآستانة بعد

مراجعات وتوسُّطات وأكلاف مرهقة، وأوجد في «الحكمة» معهدًا فريدًا لم تعرف أصقاعُ السلطنة العثمانيّة له مثيلاً ما خلا المكتب السلطانيّ في عاصمة الخلافة الذي كان يُعلّم بالتركيّة.[٢٨]

هكذا قام، في العام ١٨٧٥، وفي أحد مراكز المسيحيّة المشرقيّة كرسيٌّ لدين شقيق وللشيخ يوسف الأسير ولعلماء معه أفاضل. وغدت بيروت، مجدّدًا، أُمَّ الشرائع الجديدة.

اضطلع بمهامّ التعليم القانونيّ والشرعيّ نخبةٌ من الفقهاء والعلماء والأساتذة نذكر منهم: المطران الدبس، الشيخ يوسف الأسير، الشيخ محيي الدين اليافي، نقولا النقّاش، وسليم المعوشي.[٢٩]

وكان المطران يصطفي لجنةً من العلماء يرئسها الوالي لإجراء امتحان الطلبة المنتهين، بعد دراسة تستغرق ثلاث سنوات، و«يعطي الفائزين إجازةً تخوِّلهم مزاولةَ المرافعات لدى الدوائر القضائيّة»[٣٠]. وكان هذا المعهد يصدِّر للبلاد، في كلّ عام، عددًا غير قليل من المحامين.

وممّن تخرّجوا من ذلك المعهد، نذكر أنطوان سليمان شديد، يوسف أرسانيوس، سجعان عارج سعاده، ميشال زكّور، وديع نعيم، أسعد عقل، يوسف طعمه، واكيم البيطار، متري الحايك، سعد بطرس نجيم.[٣١]

هكذا كانت «الحكمة»، مدرسةً ومعهدًا، من صنيع يدي الدبس وعقله وقلبه، فليس غريبًا أن يلاصقهما عاطفةً ورعايةً وسكنًا، وأن يرئسهما على مدى اثنين وثلاثين عامًا، وأن يتحدّث عن مكابدته في تحقيق حلمه إذ يقول: «لا أقدرُ أن أصفَ ما عانيتُه من التعب في سبيل إنشاء مدرسة الحكمة، ولا أعرف كيف باركَ الله هذا العمل!»[٣٢]

الدائرة العلميّة المارونيّة

أسّس الدبس من أساتذة المدرسة والمعهد وسواهم من العلماء والأدباء والمثقّفين من كهنة وعلمانيّين «الدائرة العلميّة المارونيّة» وجعل من أهدافها نشرَ المعارف والعلوم باللغة العربيّة، والدفاع عن المذهب الكاثوليكيّ، وترجمة الكتب على اختلافها، والتأليف بالعربيّة، وتعهُّد العمل الاجتماعيّ، فأصبحت دار الحكمة مصنعًا ومشغلاً، تُعيد إلى الذهن ذكرى الحركة النقليّة التي انطلقت من «بيت الحكمة» في بغداد في ظلّ الخليفة العبّاسي المأمون على يد المسيحيّين النساطرة بخاصّة، والتي استعادَ أمجادَها تلامذةُ المدرسة المارونيّة في روما، في النصف الأوّل من القرن الثامن عشر.[٣٣]

الجمعيّات الخيريّة

كان الدبس أبًا وراعيًا فأنشأ العديد من الجمعيّات الخيريّة والأنديّة الاجتماعيّة، كجمعيّة طوبيّا البارّ لدفن الموتى، وجمعيّة الحبل بلا دنس، وجمعيّة الأنفُس المطهريّة، وجمعيّة مار مارون... وقد قامت على يده بأعمال بليغة في سبيل توزيع المعرفة وتعميمها، فأنشأت غرفةَ قراءة مجّانيّة، ومكتبةً عموميّة لمطالعة الكتب والجرائد والمجلّات.

وفكرة تعميم المعرفة بواسطة الكتاب قديمة عند أسقفنا. فقد اشترك في شراء مطبعة إهدن ثمّ مطبعة الشلفون، وأطلق نداءً يقول بضرورة إنشاء مكتبة عامّة أرادها شاملة بمختلف اللغات، مفتوحة للجميع بضعة أيّام في الأسبوع معتبرًا أنّها «ستكون أوّلَ مكتبة من هذا النوع في سوريا كلّها».[٣٤]

أمّا أخويّة مار مارون فكانت تُحْيي جلساتٍ أدبيّة يتعاقب على الخطابة فيها أساتذةُ المدرسة وتلامذتُها القدامى، «وكلُّهم نخبةُ رجال الطائفة حَسَبًا ونسَبًا وأشهرُهم علمًا وفضلاً وأدبًا».[٣٥]

المطبعة العموميّة المارونيّة

كانت حلمًا راوده مذ كان كاهنًا يعلّم اللاهوت والفلسفة في إكليريكيّة مار يوحنّا مارون، فشاركَ في تأسيس مطبعة إهدن وأحضر لها آلة الطبع من أوروبا. ثمّ شارك في «المطبعة العموميّة الكاثوليكيّة» وابتاعَ، من ثمّ، «المطبعة العموميّة المارونيّة» التي نشر فيها مؤلّفاته.[٣٦]

جريدتا النجاح والمصباح

شارك الدبس في امتياز جريدة «النجاح» فتعزّزت مكانتُها، وأضحى عدد المشتركين فيها ألفًا، وكان يعتبرها «الجريدة السياسيّة الوحيدة التي تدافع عن المصالح الكاثوليكيّة، بينما الجرائد الأخرى تناقض مبادئنا».

وقد خلفتها جريدة «المصباح» في العام ١٨٨٠، التي كانت تصدر بأربع صفحات كلَّ نهار اثنين وخميس من الأسبوع.[٣٧]

الدبس مؤرّخًا وخطيبًا

ساهم الدبس مساهمة فعّالة في النهضة الدينيّة واللغويّة والعلميّة والفكريّة التي كانت أساسًا لتغيير

المفاهيم الثقافيّة والسياسيّة في لبنان والمنطقة بعد ما يناهزُ الخمسةَ قرون من الحكم العثمانيّ، وإذا بنا أمام جاحظ لبنانيّ مارونيّ، مسكونٍ بالعصر الأوروبيّ[٣٨]، يتحلّى بصبر العلماء، وعمق الفكر، وبُعد النظر، وغزارة المادّة، وإيمانِ الرسل، فيضع موسوعاتٍ دينيّةً وتربويّة وتعليميّة وتاريخيّة وجغرافيّة ولغويّة وقانونيّة ومارونيّة، فأرَّخَ، وألَّفَ، وترجمَ، ودقّقَ، وراجعَ، وتفقّه، وخَطَبَ، ونظَمَ القريض. وقد ساعده على ذلك كلّه تمرُّسُه باللغات الأجنبيّة التي سهّلت عليه الاقتباس ممّا توصّل إليه العلمُ في كلّ ميدان. وقد أحصى المؤرِّخُ الكنسيُّ الكبير الأبّاتي بطرس فهد له ما يفوق الأربعين مجلّدًا من الحجم الكبير، أبرزها[٣٩]:

١- تاريخ سورية الدنيويّ والدينيّ (٨ أجزاء). بيروت، المطبعة العموميّة، ١٨٩٣-١٩٠٢.

٢- الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل. بيروت، المطبعة العموميّة، ١٩٠٥.

٣- سِفْر الأخبار في سَفَر الأحبار. بيروت، ١٨٦٨.

٤- مواعظ سيادة المطران يوسف الدبس (مجموعة خطب). بيروت، ١٨٨٠.

٥- مُغْني المتعلِّم في مبادئ الصرف والنحو. بيروت، ١٨٦٩.

٦- تحفة الجيل في تفسير الأناجيل.

٧- تقسيم الإرث. بيروت، المطبعة العموميّة، ١٨٧٨.

٨- الحجّة القاطعة الجليّة على من ينكر ثبوت الموارنة في العقيدة الكاثوليكيّة. بيروت، المطبعة العموميّة، ١٩٠٠.

إنّها لجسارةٌ مدهشة أن يُقْدِم فردٌ على جمع الماضي والحاضر من التاريخ الدنيويّ والدينيّ لكلّ المدنيّات التي تعاقبت على المشرق منذ بدء الخليقة. لم يكن يخشى مجابهة الصعوبات، وظلّ، بالرّغم من وهن الجسم وتقدُّم السنّ، ينقّب ويؤلّف، بل ظلّ يُحيي لياليه ساهرًا لا يأخذه في العمل كللٌ أو ملل، بل يربط جفنيه بملاقطَ كي يَحول دون إغماضهما بعدما أصابهما الارتخاء.[٤٠]

الدبس راعيًا صالحًا

لم تصرفه «الحكمة» ودائرتها في بيروت عن مسؤوليّاته تجاه رعاياه في القرى، بل كانت «الحكمة» أُمَّ المدارس، فقد أتآمَتْ وأنجبَتْ، «فقلّما يوجد قرية من قرى أبرشيّته ليس فيها مدرسة أو مدرستان»، على حدّ قول صاحب «دائرة المعارف» المعلّم بطرس البستاني في العام ١٨٨٣.[٤١]

وما أكثر ما علّمَ مطرانُنا الكهنةَ وهذّبَ ووعظَ وأَنْذَرَ وسهرَ وخصَّ تنشئتهم بوقته وجهده، وحسّنَ من حال معاشهم، وخصّصهم بالتوجيه والإرشاد، فكان يعقد لهم الرياضات الروحيّة ويلتفت إلى ما يواجههم من صعاب، ويبعث إليهم بالكُتُب والرسائل، وكانوا، على الدوام، مطمئنّين إلى حدبه وسهره اطمئنانَ القطيع إلى راعيه، ما عزّز العلاقة التكامليّة بين الإكليروس والعلمانيين.[٤٢]

وتميّزت حياة الدبس بالمبادرات الرسوليّة، وبالإقبال على طبْع الكتب الطقسيّة المارونيّة وإعادة نشرها بعد تصحيح عباراتها والتمهيد لها بمقدّمات تاريخيّة ضافية كمقدّمته لكتاب القدّاس وصلوات الفروض البيعيّة المسمّاة الشحيم، وإعادة النظر بترجمة فصول الأناجيل والرسائل.[٤٣]

الدبس باني الكنائس والكاتدرائيّات

بنى المدارس، وعمَّر الكنائس. أَوَّلُها كنيسة مار مارون- الجمَّيزة في العام ١٧٧٥ التي أضاف إليها مدرسة للبنات في عهدة راهبات العائلة المقدّسة. وابتنى، من ثمّ كنيسة مار يوسف قرب «الحكمة» في العام ١٨٧٨، فكنيسة مار مخايل في الرميل (١٨٨٣) التي أَتْبَعَها بمدرسة وبيت للكهنة ومقبرة مسوّرة، وكنيسة مار إلياس في راس بيروت (١٩٠٣) مع مدرسة مجاورة. وكذلك مار مخايل في الشيّاح، ومار يوسف في حارة حريك، ومار عبدا في الروميّه، ومار مخايل في رمحالا، ومار سركيس وباخوس في بحنّس...

إلاّ أنّ كبرى تلك الكنائس وأروعها كانت كنيسة كاتدرائيّة مار جرجس التي شَرَعَ ببنائها في العام ١٨٨٤ نقلاً عن صورة بازيليكا القدّيسة مريم العظمى في روما، ودشّنها في أحد شعانين العام ١٨٩٤، وهي قائمة في الوسط التاريخيّ للعاصمة، ودعاها على اسم جاورجيوس شفيع المدينة.[٤٤]

وهل من المبالغة، والحال هذه، إن قُلْنا إنّ الدِّبس هو صاحب الفضل الأوّل في تكريس وجود الطائفة المارونيّة في بيروت؟

الدبس رسولاً غيورًا

يبدو الدبس من أعمق أحبار كنيستنا جذورًا في تراث المارونيّة، وقد رأى إليه فكرًا وروحًا، علمًا وعملاً، ودافع عنه دفاعَ الأبطال والقدّيسين، مبديًا في سبيل ذلك، غيرةً فَنْحاسيَّة، وعنادًا وإخلاصًا قلَّ نظيرُهما.

فقد ذادَ عن المارونيّة إذ آلَمَهُ أن يُفْترى على الموارنة جهلاً أو ظلمًا أو تقليدًا، مندِّدًا بالبدع، فاضحًا الهرطقات، مفنِّدًا التخرُّصات، ناشرًا المقالات، مطلقًا الخطبَ والمواعظَ الناريّة، واضعًا الرسائلَ والكتبَ، فاضحًا أفانينَ الدسائس، داعيًا إلى وحدة مسكونية.[٤٥]

وتكفي الإشارة إلى بعض تلك المؤلّفات والترجمات، ناهيك بالمقالات والخطب والمواعظ، تدليلاً على ذلك:

أ- المؤلّفات

- الجامع المفصَّل في تاريخ الموارنة المؤصّل
- روح الردود في تفنيد زعم الخوري يوسف داود
- المردة والموارنة
- الحجّة الناطقة الجليّة على من يُنكر ثبوت الموارنة في العقيدة الكاثوليكيّة
- المواعظ

ب- الترجمات

- تاريخ الهرطقات مع دحضها للقدّيس ألفونس ليكوري
- تحفة الجيل في تفسير الأناجيل.

الدبس لبنانيًّا عربيًّا ومسيحيًّا مسكونيًّا

لم يضنّ الدبس بأنواره ينثرها في كلّ اتجاه، وبخاصّة صوب المسلمين والعرب. فقد رأيناه، وهو في الثامنة عشرة من سنيه، يفتتح كتّابًا في طرابلس يعلّم فيه اللغة العربيّة؛ ويتصدّى، بعدما ارتقى إلى سدّة الأسقفيّة، للسياسة العثمانيّة الساعية إلى نشر اللغة التركيّة بديلةً من العربيّة؛ ويضع معجمًا للفقه مبسّطًا عن حاشية ابن عابدين على أبي حنيفة[٤٦]؛ وينشئ «الحكمة» معقلاً حصينًا للضاد؛ ويؤسّس معهدًا لتعليم الفقه والشرع الإسلاميين، يضطلع هو شخصيًّا بالتدريس فيه إلى جانب الشيخَين السنِّيَّين الأسير واليافي[٤٧]، ويستقدم أساتذةً للمدرسة والمعهد من شتّى الطوائف، ويشرّع بابهما أمام أبناء الوطن جميعًا وأمام السوريّين والمصريّين[٤٨]، ويضع المؤلّفات بالعربيّة ويترجم إليها.

وكذا حاله مع سائر الطوائف المسيحيّة، إذ كان رجلَ التآخي الدينيّ كما يبدو من رسالة وجّهها إلى رؤساء الطوائف الشرقيّة، غفلاً من التوقيع، يحثّهم فيها على التقارب والتلاقي بين الكنائس.[٤٩]

النجاح مَجْلَبَةُ الحسد

نجاحاتُه كثيرة وباهرة. نشاطاتُه في شتّى المجالات مُثْمرة. ونضالاته في سبيل رعيَّته ودفاعُه عن مذهبه الكاثوليكيّ، وغيرتُه المارونيّة المثاليّة، وأصداءُ كلماته تردِّدها المحافلُ والجرائد والمجلّات، وبناء المدارس الرائدة وتشييد الكنائس الرائعة، وآيات التكريم والتوقير التي يلقاها لدى عظماء الأرض شرقًا وغربًا، والتبجيل والإجلال لدى اللبنانيّين (مسلمين ودروزًا ومسيحيّين) في متصرّفيّة جبل لبنان وولاية بيروت، وترداد عبارة أحد الجوّالة الإنكليز الذي قال بعدما شاهد ما تحتوي بيروت من نهضة علميّة: «رأيتُ في بيروت ثلاثَ دول تذيع نفوذها، هي إنكلترا وفرنسا والمطران يوسف الدبس. فإنكلترا كانت تنشر نفوذها بوساطة كلّيّة الأميركيين، وفرنسا عبرَ كلّيّة الآباء اليسوعيين، وأمّا المطران يوسف الدبس فقد قامَ مقامَ دولة عظيمة، وعزّز في وطنه روحَ الوطنيّة الصحيحة، ومع أنّه لا معين له في أعماله سوى لسانه وقلمه، فقد رأيت مدرسته «الحكمة» لا تقلُّ أهميّةً عن الكلّيَّتين المذكورتين..»، كلُّ تلك المكارم والمآثر أثارت ضغائنَ الخصوم وأوغرت صدورَ الحسّاد على الأسقف المناضل فاختلقوا له مشكلة مع أبناء أبرشيّته في بعبدات ففصلوهم عنه إلى البروتستانتيّة ليجعلوا منهم لاتينًا برضى مشبوه من قبل القاصد بيافي[٥٠]. ثمّ شنّعوا عليه فابتدعوا ضدّه الأقاويل «وطوّلوا ألسنتهم» ونفثوا السمومَ تشويهًا لفضائله وأفضاله، ورفعوا بحقّه الشكاوى إلى روما التي استقدمته سرًّا ووقفت على حقيقة الأمور والنيّات، فأعلن الحبرُ الأعظم براءته التامّة ممّا نُسِبَ إليه وأكرمه مثلما أكرمه سلطانُ بني عثمان[٥١]، واستقبلته البلاد- ولايةً ومتصرِّفيّةً - بما يشبه الاستفتاء، وبما يليق به، وقد تبارى الشعراء والخطباء في مديحه.

وقد جَمَعَ «معلِّم الفصحى وربُّ بيانها» عبدالله البستاني هذه القصائد والخطب وما نشرته الجرائد في هذا الشأن في كتاب عَنْوَنَهُ «ريحانة الأنس في تهنئة سيادة المفضال المطران يوسف الدبس».

٥ | الخاتمة

هذا النحيلُ في قَدِّه، كان جبّارًا في قَدْرِه، عملاقًا في طموحه، فريدًا في مآثره، نابغةَ عصره في العلوم العقليّة والنقليّة، وصانعًا كبيرًا لتاريخ أُمَّته وشعبه. وحَسْبُهُ في ذلك ما قال فيه أحدُ نوابغ لبنان والطائفة المارونيّة الخورأسقف ميشال الحايك: «مع الدويهي وفرحات والتولويّ والسمعانيّ والحويّك، يبدو المطران الدبس من أرقى الوجوه التي لمعت في سماء الجبل المارونيّ في القرون الثلاثة الأخيرة وأصفاها...»[٥٢].

أعطِنا، اللَّهُمَّ، رعاةً صالحين وآباءً قدِّيسين ومصلحين، يبنون لكَ ولنا ملكوتًا على أرضك، في موطئ قدميك، لبنان.

٥ | هوامش

(١) أ- الدكتور جوزف لبكي، **مؤرّخون أعلام من لبنان**، منشورات اتحاد المؤرِّخين العرب- بغداد، طباعة دار النضال للطباعة والنشر- بيروت، ١٩٩٧.
ب. الدكتور الياس القطّار، **مؤرّخون من لبنان**، الجزء الأوّل، ١٩٩٨، ص ٤٨.
ج. جرجي زيدان، **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، ص ٣٠٣.

(٢) أ- المطران يوسف الدبس، **سِفْر الأخبار في سَفَر الأحبار**، بيروت، ١٨٦٨.
ب: جوزف لبكي، مقالة في مجلّة **الحكمة**، عدد خاصّ بمؤسِّس مدرسة الحكمة المطران يوسف الدبس، العهد الثاني، السنة ٥، العددان ٤٣ و٤٤، آذار ونيسان ١٩٩٩، ص ١٨٣.

(٣) عبدالله البستاني، **عرفان الجميل لصاحب اليوبيل**، ص ١١.

(٤) الخوري خليل شلفون، مقالة في مجلّة **الحكمة**، العدد نفسه أعلاه، ص ٩٩.

(٥) المطران بولس مطر، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ٢.

(٦) الدكتور حسّان حلاّق، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ١٣١.

(٧) الخورأسقف ميشال الحايك، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ٨.

(٨) أ- حلاّق، م.ن.، ص ١٣٢.
ب- لبكي، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ١٨٥ و١٨٦.
ج- الحايك، م.ن.، ص ١٣.

(٩) الدكتور كريستيان الحلو، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ١٣٧.

(١٠) أ- المطران خليل أبي نادر، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ٢٠٢.
ب- المطران يوسف الدبس، **الجامع المفصَّل في تاريخ الموارنة المؤصّل**، ١٩٠٥، ص ٥٨٦- ٥٨٧.

(١١) أ- المطران يوسف الدبس، Les Maronites du Liban، ص ٢٦.
ب- الحايك، م.ن.، ص ٨.

(١٢) الأب لويس شيخو اليسوعيّ: مقالة بعنوان «يوبيل مدرسة الحكمة الذهبيّ»، مجلّة **المشرق**، سنة٢٤، عدد ٦، حزيران- يونيو ١٩٢٦.

(١٣) أ- الحايك، م.ن.، ص ٩.
ب- الخورأسقف جوزف مرهج، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ٨٨.
ج- يوسف أسعد داغر، **مصادر الدراسة الأدبيّة**، الجزء الثاني، الفكر العربيّ الحديث في سير أعلامه (الراحلون)، المكتبة الشرقيّة، بيروت- لبنان، ١٩٨٣، ص ٣٤٧.

(١٤) **دائرة المعارف**، المجلّد السابع (١٨٨٣)، ص ٦٢٤.

(١٥) الحايك، م.ن.، ص ٩.

(١٦) شيخو، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ١٥٣.

(١٧) أ- حلاّق، م.ن.، ص ١٣٢.
ب: لبكي، م.ن.، ص ١٨٦.

(١٨) الخوري سوفير الخوري، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ٩٦.

(١٩) أ- شيخو، م.ن.، ص ١٥٥.
ب- الحايك، م.ن.، ص ٩
ج- الدكتور فيكتور الككّ، م.ن.، ص ١٨٢.
د- الخورأسقف مارسيل الحلو، م.ن.، ص ٨٩.

(٢٠) شيخو، م.ن.، ص ١٥٥.

(٢١) مرهج، م.ن.، ص ٨٨.

(٢٢) النقيب وجدي الملاّط، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ١٩٩.

(٢٣) م.ن.، ص ٢٠٠.

(٢٤) الأمير شكيب أرسلان، مقالة في مجلّة **الحكمة**، م.ن.، ص ٣٥.

(٢٥) أمين تقيّ الدين، م.ن.، ص ٣٥- ٣٦.

(٢٦) الشيخ يوسف الأسير، م.ن.، ص ١١٠.

(٢٧) الخوري كميل مبارك، م.ن.، ص ١٠٤.

(٢٨) الحايك، م.ن.، ص ٩.

(٢٩) أ- الدكتور دياب يونس، الخطابة القضائيّة، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٤، الطبعة الأولى، ص ١٢٣.
ب: أبي نادر، مقالة في مجلّة الحكمة، م.ن.، ص ٢٠٢ و٢٠٣.

(٣٠) شيخو، م.ن.، ص ١٥٣.

(٣١) يونس، الخطابة القضائيّة، ص ١٢٣- ١٢٤.

(٣٢) الخوري جورج فارس، مقالة في مجلّة الحكمة، م.ن.، ص ١٠٣.

(٣٣) الحايك، م.ن.، ص ٩ و١٠.

(٣٤) الحايك، م.ن.، ص ١٠.

(٣٥) م.ن.

(٣٦) لبكي، م.ن.، ص ١٨٤- ١٨٥.

(٣٧) لبكي، م.ن.

(٣٨) الدكتور مصطفى الحلوة، مقالة في مجلّة الحكمة، م.ن. ص ١٣٨.

(٣٩) الأباتي بطرس فهد، بطاركة الموارنة وأساقفتهم في القرن العشرين، دار لحد خاطر، ١٩٨٧، ص ٤٩٨.

(٤٠) الحايك، م.ن.، ص ١٢.

(٤١) الحايك، م.ن.، ص ١٠.

(٤٢) لبكي، م.ن.، ص ١٨٤.

(٤٣) الحايك، م.ن.، ص ١١.

(٤٤) أ- لبكي، م.ن.، ص ١٨٤.
ب- الحايك، م.ن.، ص ١٠ و١١.

(٤٥) الككّ، م.ن.، ص ١٧٨- ١٨٢.

(٤٦) الحلوة، م.ن.، ص ١٣٨.

(٤٧) أ- وليم الخازن، م.ن.، ص ١٤١.
ب- الككّ، م.ن.، ص ١٨٢.

(٤٨) الحلوة، م.ن.، ص ١٣٨.

(٤٩) الحايك، م.ن.، ص ١٢.

(٥٠) شيخو، م.ن.، ص ١٥٥.

(٥١) الحايك، م.ن.، ص ٦.

(٥٢) الحايك، م.ن.، ص ١٢.

رشيد نـخله
أمير الزجل والوطنيّة

د. عصام الحوراني

نعم، هو أمير الزجل، والأديب الشاعر، والزعيم السياسيّ المخضرم، والعربيّ المحتد، بدليل أنّ أسرته ترقى إلى بني هاشم الذين يتّصل نسبهم بالنبيّ العربيّ الكريم، وقد نزحوا عن الحجاز في حوالى القرن السابع الميلاديّ، وأقاموا في مناطق مختلفة من جبل لبنان، وبخاصّة في جبيل والعاقورا، إلى أن رحل نخله الهاشم، واحد من هؤلاء، سنة ١٧٦١م من العاقورا إلى الباروك. وقد صار لهذه الأسرة حظوة ومكانة لدى الأمير بشير الشهابي الثاني، ونفوذ في دولة المتصرفيّة، فتسلّم عدد منهم مناصب مهمّة؛ وكان من هذه الأسرة، التي صارت تكنّى بآل نخله، عبّاس الذي كان يعمل لدى الأمير بشير، وسعيد والد رشيد الذي تسلّم مناصب كثيرة في عهد المتصرفيّة في قضاء الشوف، وفي مديريّتي سوق الغرب والعرقوب الشمالي وغيرها.(١)

في هذه البيئة المميّزة بالنشاط السياسيّ والأدبيّ ولد رشيد نخله في الباروك في السادس من شباط من عام ١٨٧٣. تلقّى في شبابه الأوّل بعضًا من تعلّمه في مدرسة عين زحلتا لصاحبها أمين شكّور، ثمّ في مدرسة سوق الغرب الأميركيّة. ولكنّه ملّ الدراسة منذ البدء، ورفض أن يحصر نفسه ضمن قيود النظام، فترك المدرسة بلا تحسُّر، وقال في ذلك أمين تقي الدين صاحب مجلّة (الزهور) في عددها الصادر سنة١٩١١: «... لم يعرف المدرسة قط، قبل أن كان يافعًا، فلمّا أقام فيها بعض السنة ملّها وملّته. ليس في فطرته ميل إلى التقيُّد، ولا في خلقه غير حبّ الانفلات والحريّة».(٢)

هذا الإنسان المتمرّد منذ صغره، والذي لم يتلقّ أيّ تعلّم في مدرسة، درس على نفسه من خلال مطالعاته للكتب الأدبيّة المتنوّعة، وفي مدرسة الحياة، وانطلق ماردًا جبّارًا معاندًا، على الرغم ممّا كان يلقاه من مصاعب ومشكلات كبيرة. بدأ كاتب تحريرات قائمقاميّة بلاد الشوف في عهد المتصرّف نعّوم باشا، ثمّ التحق بالجنديّة اللبنانيّة، فصار مدير العرقوب الشماليّ سنة ١٩٠٧ خلفًا لوالده، ثمّ أصبح قائممقام جزّين سنة ١٩١١. ومع بداية الحرب العالميّة الأولى تولّى مديريّة دير القمر الممتازة، ثمّ كان النفي إلى القدس والملاحقة والتشرّد، ولنا معها وقفة خاصّة في هذا البحث. وبعد اندحار تركيا سنة ١٩١٨ عيّن رئيس القلم العربيّ، ومدير معارف لبنان، فمدير الأوقاف والأديان والمصالح العامّة في الجبل؛ والجدير بالذكر أنّ هذه الوظيفة أنشئت خصّيصًا له، وألغيت عندما انفصل عنها. وبعد إعلان استقلال لبنان الكبير عُيِّن رشيد نخلة سنة ١٩٢٠ مفتّشًا للأمن العامّ إثر الحوادث المؤلمة التي جرت تلك السنة، والتي ما زال بعض المسنّين يذكرونها بأسى شديد. تولّى سنة ١٩٢٥، ولمدّة خمس سنوات، منصب محافظ منطقة صور، وأحيل على التقاعد عام ١٩٣٠(٣). لكنّه استمرّ يجاهد في سبيل لبنان من خلال اتصالاته وندواته والمؤتمر المشهور الذي عُقد في دارته ببيروت سنة ١٩٣٣. بعد تلك السنوات الحافلة بالعمل المضني، وبالجهاد الوطنيّ، وبالعطاءات الأدبيّة الجمّة، رحل رشيد نخلة صباح الجمعة في العاشر من تشرين الثاني سنة ١٩٣٩، فودّعه في الباروك، كلّ لبنان، بأسى بالغ، وحزن كبير. ويصف مارون عبّود مأتمه المهيب في كتابه (دمقس وأرجوان)، وكيف أنّه تأثّر كثيرًا بهذا الوداع، والنادبات تندبنه: (يا سِيدي وفِتّونا وما عِدْتوا ذكرتونا)... وغابت شمس ذلك المساء، تاركة شعاعًا لا يزال يلامس أرز الباروك وكلّ لبنان صباح كلّ يوم.

(١) رشيد نخله، كتاب **المنفى**، من فصل: (ترجمة المؤلّف) لأمين نخله.

(٢) مجلّة **الزهور**، مج ٢ ، سنة ١٩١١، ص ١٩٨.

(٣) كتاب **المنفى**، المصدر نفسه.

رشيد نخله: الشاعر، والأديب، والسياسيّ الناشط

هكذا عاش الرشيد العمر كلّه أنوفًا، مجاهدًا في سبيل الكرامة القوميّة... كما جاء في مقال نشرته جريدة البيرق سنة ١٩٣٩ بعنوان: (نضال رشيد نخله لاستقلال لبنان) وجاء أيضًا في المقال عينه: «...وكانت السلبيّة تغلب على نزعته في النضال السياسيّ، فهو في العهد العثمانيّ قد قاوم الضغط، وعارض كلّ تدخّل في شؤون لبنان، وكانت له مع رفاقه الأحرار مواقف مشهورة... ولم يتردّد في تلك الساعات الحرجة - أي بعد عام ١٩١٩- عن العمل في الصحافة والإجتماعات السياسيّة لإقناع السلطة الفرنسويّة نفسها بالعدول عن الحكم المباشر، وكان في ذلك الوقت في طليعة الأصدقاء المعارضين»[٤] حياة حافلة بالجهاد والنضال والعمل السياسيّ الدؤوب في سبيل خدمة وطنه. نذكر أنّه عندما عُيّن ابنه أمين سنة ١٩١٨، وهو في الرابعة عشرة من عمره، مديرًا للعرقوب الشمالي في الشوف خلفًا له، كتب لولده يقول:

إذا تربّعتَ في الكرسيّ، بعد غدٍ — فاذكرْ أباك، ولا تنسَ الكريمَ أبي
كنّا نَخِفُّ على الكرسيّ من كرم — وإن يكن بأبي ناءَ الزمانُ، وبي

أمّا رشيد نخله الكاتب والشاعر، فذلك وجهه الآخر وعالمه المميّز الذي كان يركن إليه بذهن صافٍ وخيال رحب يطوال الإنسان في أعماقه، والدنيا حوله بمراراتها وعذاباتها كما بأفراحها وأمانيها. إنّ أوّل مقالة كتبها في مستهلّ العمر كانت: (المرأة المسيحيّة ولزوم حجابها) نشرها في جريدة (لسان الحال) لسليم سركيس. كذلك نذكر مقالته الأخرى بعنوان (إيقاف المرأة عند حدّها) التي نشرها في جريدة (لبنان) لصاحبها إبراهيم الأسود. ثمّ إنّه عاد وجمع رأيه الخاصّ في قضيّة المرأة في مقال له في مجلّة الزهور، يخاطب فيه المرأة قائلاً: «... يريدون أن يمتهنوا امتياز نوعكِ الذي اختصّته به الفطرة! ويدّعون أنّهم يريدون لكِ الكمال، وهم بذلك يتنقّصون قدرك، ويستخفّون بميزتك... يحاولون أن يزيلوا عنكِ مزايا الأنوثة المحبوبة، ويخلّقوك بأخلاق الرجال، وأنتِ، لو فطنتِ، لعلمتِ أنّهم بذلك يحاولون تبغيضك إلى القلوب... يقولون إنّهم يريدون أن يجلسوك في صدور المجالس، وفي كراسي النيابة، ويدجّجوك بالسلاح، وينزلوكِ إلى ساحات القتال، وأنتِ، لو علمتِ، ما خلقتِ لهذا... هذا ما يريدون، وذلك ما يعالجون، ويدّعون به نصرتكِ، ويهزّون فيه لواءكِ. أمّا أنا، فيا ذات المعصم، ويا ربّة السِوار: لا أريدكِ إلاّ كما خلقتِ، أي مادحة السرير، منهنهة الصغير، مؤنسة الوحشة، ناعمة البشرة، أنيقة الجسم، رقيقة الشعور...»[٥]

في ٢٨ أيلول سنة ١٩١٢ أنشأ رشيد نخله جريدة (الشعب) التي صدرت بأعدادها الأولى في عين زحلتا، وكانت تطبع بـ (مطبعة دير القمر)، وقد تولّى الكاتب والصحافيّ زيدان زيدان تحريرها، وكانت توزّع مجّانًا في سبيل الحريّة والأدب، وتصدّرت بهذه العبارة: «جريدة جامعة أنشئت لخدمة الشعب، توزّع مجّانًا». إفتتح الرشيد الجريدة بمقال جاء فيه: «كانت سانحة، فكانت (الشعب)، ووفت للبنان بعهدها، وبرّت بوعدها. وما سكنت للزمن الماضي سكون النمر الجريح على الأوصاب، إلاّ لتهبّ إلى العمل المروم بروح الشباب. فأقطعتها من القلب قطعة، هي أعزّ ما بقي على الأيّام، وقلتُ لها: هذه هي روحي بوحيدي الأمين، فسيري بسلام! وما زدتُ على المتمنّى في خيره غير قولي:

لنا جبلٌ، اللهُ كافلُ مجده — وفتيته، والحقُّ، والعدلُ، والوفا
فكنْ أنتَ بِرًّا يا (أمينُ) بعهدِهِ — ومثلُكَ منّي من بعدِ الوفا وفى»

وكان كما رغب، وحقّق أمين نخله رغبة الوالد، و(وفى بعهد الوفا)، فراح يصدرها إبتداء من الثامن من آذار سنة ١٩٢٢ في بيروت.

(٤) **البيرق** ، عدد ١٠ ، تشرين الثاني سنة ١٩٣٩.

(٥) **الزهور**، المصدر نفسه ، ص ١٩٩- ٢٠١.

أمّا مؤلّفات رشيد نخله فهي في النثر: (كتاب الماضي) ويضمّ في فصوله كتابات في الأدب والإجتماع (مخطوط). (مذكّرات رشيد نخلة) مجموع من مذكّراته الأدبيّة (مخطوط). (رسائل رشيد نخله) ويحتوي هذه الكتاب المخطوط مجموعًا من رسائله التي كان يبعث بها إلى شخصيّات مختلفة. (غريب الدار) وطبع في بعبدا سنة ١٨٩٨. (العواطف اللبنانيّة) وطبع في بيروت سنة ١٩١٠. (كتاب المنفى) ويضمّ مجموعًا من مذكّراته السياسيّة. أمّا في الشعر، وقد نظمه بالفصحى والعاميّة، فنذكر: (ديوان الشاعر السماويّ) مخطوط. وفي الزجل له: رواية (محسن الهزّان)، طبعت في بيروت سنة ١٩٣٦، ثمّ في البرازيل سنة ١٩٤٠، وطبعت أيضًا في صيدا، وفي دمشق في طبعتين غير مؤرّختين. (معنّى رشيد نخلة) إنّه ديوان قصائده في الشعر العاميّ، وقد طبع سنة ١٩٤٥ في بيروت. (عنتر) رواية/ مخطوط، (الديوان اللبنانيّ) مجموع من منظومه في مختلف الطرائق الزجليّة، المعروفة في لبنان، وهو مخطوط. (تكملة معنّى رشيد نخلة) مخطوط، يضمّ ما عُثر عليه من أزجال للشاعر، بعد طبع ديوانه الزجليّ (معنّى رشيد نخله).

النشيد الوطنيّ اللبنانيّ، وقصّة ولادته...

مع بداية إنشاء دولة لبنان الكبير، وترتيب مؤسّساته، رأت الحكومة الفتيّة عام ١٩٢٥، وكان يرأسها الشيخ بشارة الخوري، أنّه صار لزامًا أن يكون للبنان السائر نحو الإستقلال التامّ نشيد وطنيّ، فدعت شعراء لبنان للإشتراك في مباراة يُختار على أساسها النشيد المناسب، وجعلت للشاعر الفائز جائزة ماليّة قدرها (ألف ليرة)، وكلّفت لجنة تحكيم تشرف على هذه المباراة وتختار النشيد الأفضل. وهكذا تمّ تأليف هذه اللجنة برئاسة الشيخ عبدالله البستاني، وضمّت أدباء كبارًا، منهم: الشيخ ابراهيم المنذر، وعبد الرحيم قليلات، ووديع عقل، والياس فيّاض... يُروى بأنّ رشيد نخله كان في أحد الأيّام يزور صديقًا من كبار السياسيين في بيروت، ودار الحديث عن النشيد الوطنيّ ومباراته، وقال كثيرون بصعوبة نظم نشيد وطنيّ عام في وطن مقسّم الميول والنزعات والطوائف، أشبه ما يكون بالفسيفساء وبرج بابل، فبادرهم رشيد نخله بقوله: ولكنّ الشعراء المتبارين لا يعدمون إيجاد النشيد الجامع لمختلف النزعات في الوطن، كأن يُقال مثلاً:(كلّنا للوطن...) فردّد الجميع: هذا والله أبرع استهلال، فليتك يا رشيد بك تمضي في النظم عليه... أثار الجميع في نفس الرشيد الحماس، وحملوه على نظم القصيدة والعناية بها، وبخاصّة صديقه الحميم الدكتور أيّوب ثابت. واجتمعت اللجنة في تشرين الأوّل من عام ١٩٢٦، وبعد قراءة كلّ القصائد الواردة والتعليق عليها، اختار أعضاء اللجنة بالإجماع نشيدًا موقّعًا باسم (معبد) ومطلعه: **كلّنا للوطن للعُلى للعلم**، وسأل الأعضاء الشيخ ابراهيم المنذر، وهو الذي كان قد حمل القصيدة بالنيابة عن صاحبها، عن اسم الشاعر الحقيقيّ، فأجابهم: «هو رشيد بك»، وكان الشاعر قد كتب على نسخة النشيد: «إذا فاز هذا النشيد فالجائزة متروكة لفقراء البلاد»، وهذا ما حدث بالفعل. أرسلت القصيدة الفائزة إلى مجلس الوزراء الذي كان يرأسه آنذاك الشيخ بشارة الخوري، فقرأها في أثناء الجلسة، وعلّق قائلاً: «الحمد لله، فإنّ صاحب نشيدنا الوطنيّ هو من أشهر رجالنا في الوطنيّة». واستدعي الفائز إلى جلسة مجلس الوزراء، واقترح الشيخ بشارة على رشيد نخله حذف مقطع من النشيد والذي يقول فيه:

مـــا عـــرانـــا انـــفـــصـــالُ	فـــي الـــمـــلـــمِّ الـــعـــصـــيـــبْ
الصـــلـــيـــبُ الـــهـــلالْ	الـــهـــلالُ الصـــلـــيـــبُ

متذرّعًا في ذلك ألاّ يكون في النشيد ما يذكِّر اللبنانيين بطائفيّة وانقسام، فوافق رشيد نخله على هذا الإقتراح وحذف المقطع. وهكذا صار للبنان نشيدٌ تردّده الأجيال كلّ صباح وفي أيّ مناسبة.(٦)

عودٌ إلى الماضي: قصّة المنفى، وحكايات المستبدّين... وأشعار الحنين

رشيد نخله، العربيّ أصلاً ونسبًا، راهن على لبنان الواحد الأزليّ الموحّد، وناضل كلّ حياته في هذا السبيل. ولم يكن جهاده إلاّ سلسلة من الأهوال والمصاعب والمشقّات، هي حياة السياسيّ العريق الساعي أبدًا نحو الحقّ والحريّة والمساواة. ونسمعه يقول في بداية (كتاب المنفى) في آذار سنة ١٩٣٧: «وإنّ بي شجونًا، وإنّ بي حسرات، كنتُ أنتظر الأيّام، لأحملها على الورق، وأحدِّث عنها الناس. فإذا الأيّام توافيني، وبي حسرات وشجون، فوق التي كنت أعانيها... فكأنّ صاحب الأمل، في هذه المواطن، أشبه شيء بحامل المصباح. كلّما مشى به، نقص الزيت... ويا طيب آمال مشينا بها في ليالي الحوادث، وقد حسبنا أن لا بدّ لنا معها من بلوغ المحجّة، وحمد العقبى... وجدنا أنّ دول الآمال، في لبنان الحبيب، تنتقل من فقد إلى فقد! ثمّ فليرحم الله أبا الطيّب، حيث يقول:

ليت الحوادثَ باعتني الذي أخذتْ
منّي، بحِلمي الذي أعطت، وتجريبي»

إنّه أمل الأحرار في كلّ زاوية من هذه المعمورة، أملهم هو الحريّة والاستقلال والحياة الكريمة العادلة. وهكذا ناضل اللبنانيّون الأحرار في سبيل الخلاص من حكم الدولة العثمانيّة المستمرّ منذ أربعمئة سنة

(٦) كتاب **المنفى**، ص ٥٠- ٥٣.

القديم في حفظ (حقوق الإنسان)! فلم يكن اللبنانيّون، كما يتوهّم المتوهّم اليوم، على هوىً بالفرنسيين لمجرّد الهوى، أو للعلاقة المسيحيّة التي بين فريق من طوائفهم وبين فرنسة!...» نعم، فإنّ القناصل في لبنان كان لهم الدور الفاعل، وهم، كما قال الرشيد، غُنمٌ من جهة، وغُرمٌ من ثانية، كانوا سيوفًا علينا، ودروعًا لنا، في آن معًا. وعلاقة رشيد نخله بقنصليّة فرنسا كان يشوبها القلق وسوء الفهم، وقد عُزل بسبب هذا عن منصبه سنة ١٩١١ وكان قائمقام قضاء جزّين. كذلك تردّت علاقته مع المتصرّف أوهانّس باشا في العام التالي، بسبب كلام نقلته جريدة (الروضة) عن لسان المتصرّف، فيه تجريح بكرامة اللبنانيين، فردّ عليه رشيد نخله في جريدته (الشعب)، وممّا قاله موجّهًا كلامه إلى المتصرّف: «قلتَ، ويا سامحك الله عمّا قلت، إنّ الشعب اللبنانيّ مستغرق في الجهل، لا صوت له فيُسمع، ولا رأي له فيلتفت إليه. والحال يا أوهانّس باشا، أنّ اللبنانيين، لو نظرت قليلاً وترويّت، لرأيت أنّهم من أرقى الشعوب في الحضارة... فلا تحسبنّ، يا حضرة المتصرّف، أنّ اللبنانيين قطيع من الغنم، تستطيع أن تهشّ عليهم بعصا الراعي، سَوقًا إلى حيث تشاء! فاللبنانيون ما كانوا أمس كذلك، ليكونوا اليوم هكذا..»[٨]

في هذه الأجواء العاصفة،المضطربة برياح الحرب، زار الكاتب ونائب باريس في البرلمان الفرنسيّ موريس بارس Maurice Barres لبنان وحلّ ضيفًا على قنصل فرنسا في بيروت جورج بيكو، فاغتنم رشيد نخلة وجود هذا الصديق الفرنسيّ في لبنان، فدعاه والقنصل إلى مائدة غداء أقامها لهما على ضفاف نهر الصفا. وجرى للضيفين تظاهرة شعبيّة بالسلاح، قام بها على دويّ البارود عشرة آلاف لبنانيّ، وكان ذلك بغياب المتصرّف، وقد ألقيت الخطب الرنّانة دعمًا لامتيازات أفضل للبنان، ولصون كيانه المستقلّ في الشرق، ولتوسيع حدوده. وكان ما كان، ودخلت الجيوش العثمانيّة من جهات البقاع أراضي جبل لبنان في ٢٢ تشرين الثاني عام ١٩١٤. وأرسل رشيد نخله كتاب احتجاج إلى المتصرّف، بصفته موظّفًا مسؤولاً في حكومة لبنان، إذ كان مديرًا في مديريّة دير القمر الممتازة. وردّ عليه المتصرّف رسميًّا، مدّعيًا بأنّ هذا الدخول من قبل الجيوش العثمانيّة ما هو إلاّ (للاستكشاف العسكريّ) وليس احتلالاً، وبأنّهم يقيمون على رؤوس الجبال وليس وسط القرى، ولا يكلّفون خزانة الجبل شيئًا. ولكنّ أحمد جمال باشا قائد الجيش الهمايوني الرابع، وناظر البحريّة العثمانيّة، أصدر بلاغًا رسميًّا شارحًا، معلّلاً، متوعّدًا، وطالبًا من السكّان المساعدة وعدم الإخلال بالأمن. وعيّن الأمير آلاي محمّد رضا بك قائدًا للمفرزة العسكريّة في جبل لبنان. واستدعى هذا المسؤول العسكريّ كبار المسؤولين لاجتماع يعقد في دار الحكومة في بعبدا، وكان رشيد نخله في عداد المدعوّين، وكُلّف أن يتكلّم باسم المجتمعين اللبنانيين. ردّ رشيد نخلة على المسؤول العسكريّ التركيّ بكلام فيه طراوة وأبعاد وغمز، وممّا قاله ردًّا على دعوة هذا الضابط للبنانيين للتطوّع دفاعًا عن الدولة: «وأمّا التطوّع، والوقوف في وجه المعتدين على (امتياز) الأراضي اللبنانيّة، فليس في لبنان رجل يتأخّر عنه، إذ إنّ اللبنانيين معروفون بحبّهم لوطنهم، مشهورون بتمسّكهم بامتيازهم. لكنّ السلاح في هذه الأيّام يعوزهم. فإذا شاءت الدولة أن تختبر إخلاصهم لها، وحبّهم لوطنهم، فليس أهون عندها من أن تمدّهم بالسلاح». وما كادت تلك الجلسة تختتم، حتى استدعى المتصرّف رشيد نخلة وأبلغه أنّ جمال باشا في حاجة إلى مكالمته من أجل أشياء تخصّ لبنان، وأنّه يستقبله في اليوم التالي بدمشق.

كان يوم شتاء ماطرًا قارسًا، والرشيد بالقطار يعبر الوهاد والأكمات، من بعبدا، إلى ريّاق، فدمشق... تلفّه الهموم والأفكار المضطربة، ويعصره القلق، ويمزّقه الحنين، فيقول:

يا قطارَ الحديد: خفِّفْ قليلاً	أعِنادًا تمشي، وتصفرُ كيدا
مُسرِعٌ أنتَ عن مرابعَ لبنانَ	فمهلاً، مهلاً، رويدًا، رويدا
أتمنّى لو متُّ في أرض لبنانَ	فقِفْ بي، أو حِدْ عن الدرب حَيْدا

تقريبًا، وكانت لهم أيضًا مطاليب أخرى كثيرة أهمّها: انتخاب مجلس الإدارة الكبير بوساطة الشعب، والتوسّع في الإمتيازات، وتوسيع الخريطة اللبنانيّة لتشمل بيروت وسهل البقاع، واستقلال القضاء، وغيرها. يقول رشيد نخله: «وكان لزامًا على أولئك الأحرار، من كلّ مذهب سياسيّ، أن يتوكّأوا على ساعد من أوروبة. فتوكّأ فريق على الفرنسيين، وتوكّأ آخر على الإنكليز. أمّا غاية الجميع فهي التخلّص من الأتراك، الذين كانت قلوبهم تغلي على العنصر العربيّ في الدولة»[٧] وقال أيضًا: «من كان يحسب أنّ أصدقاء فرنسة، من اللبنانيين، كانوا قبيل الحرب العامّة يعملون لرمي وطنهم في أحضان الأجانب، فإنّه أخطأ كثيرًا! فإنّ اللبنانيين الذين تربطهم بالأمّة الفرنسيّة صلات تاريخيّة، يعرفها المطّلعون على سجلّ الماضي في الشرق، كانوا يُسخِّرون تلك الصلات، يومئذ، للمحافظة على استقلالهم الداخليّ، وللفوز بمطاليبهم في التوسُّع والزيادة، موقنين بما لفرنسة من الأيادي في أعناق الأمم، مؤمنين بإنجيلها

(٧) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٨) م. ن. ص ١٠٨- ١٠٩.

وصل رشيد نخله إلى دمشق ومعه كثيرون من رجالات لبنان الذين استدعاهم أيضًا جمال باشا. أقبلوا عليه في فندق (فيكتوريا) في ساحة المرجة حيث كان يقيم. لم تكن أعواد المشانق قد نصبت بعد، ولا السجون قد فتحت أبوابها، فهؤلاء كانوا الأوائل من قافلة المظلومين. أستقبلهم هذا الرجل الأشقر، العريض الألواح، القاتم العينين... وهو كما وصفه الرشيد: لم يكن من الوجوه التي تحسُّ النفس في لقائها بالأنسة والأمنة. لقد أبلغهم بأنّ وجودهم في دمشق، بعيدين عن لبنان، هو آمن لهم بكثير!... وبقوا في دمشق شهرًا كاملاً قبل أن يصدر أمر جمال باشا بإبعادهم إلى القدس في رحلة عذاب وقهر، وصفها الرشيد بدقّة في (كتاب المنفى). وقد عاين في أثناء وجوده بدمشق القهر والإذلال والظلم والإستبداد، بشباب الوجاهة والعنفوان والحريّة والاستقلال، وكيف جرت عمليّة التشهير في شوارع دمشق، بكبير من أحرار بلادنا نخلة مطران، من متنفّذي قضاء بعلبك. فلقد خرج جند جمال باشا به في يوم ماطر قاتم، أركبوه في عربة وهو مغلول اليدين، ووضعوا على صدره لوحة كتب عليها بحروف كبيرة: (هذا هو نخلة مطران خائن الدولة والوطن)، والناس تتزاحم في الشوارع، والشرطيّ المرافق يصرخ من وقت إلى آخر: (هذا هو الكلب نخلة مطران خائن الدولة)!!! وتتساقط على وجه هذا العظيم الأكفُّ والأحذية والسياط وتسمع الشتائم واللعنات والسباب من كلّ صوب، من قبل هؤلاء الناس الرعاع في الشوارع، والذين لا يدرون ماذا يفعلون... ورُوي بأنّ نخلة مطران حُكم عليه من قبل محكمة ديوان الحرب العرفيّ بأنّه، وكما جاء في تلغراف ورد إلى المتصرفيّة، «وُجد بمناسبات خطيّة مع قنصل فرنسا السابق بالشام وسعى لتأمين أسباب إخراج الأفكار المضرّة التي هيّأها بحقّ الحكومة العثمانيّة لموقع الفعل»(٩) قتل جند الأتراك هذا الرجل في جوار محطّة سكّة الحديد بتلّ الأبيض، وهو في طريقه إلى المنفى في أورفه بتركيا، بتهمة أنّه حاول الهرب، ولم يسمح لواحد يعرفه من لبنان بدفنه، بل قطّع وألقي به في مستنقع قريب.

في القدس، المدينة الحزينة التي تعيش على التذكار، وبكاء الماضي! كما وصفها شاعرنا، وقال: «ففي القدس الحزينة، مدينة المباكي في الأديان، والمناحات في تأريخ الممالك، ومواقع الظلّ من سيف جمال باشا عام ١٩١٤، كان علينا أن نصرف ثمانية أشهر، بلياليها وأنهارها، على الخوف من المشنقة، والحذر من الجواسيس، والشوق إلى الوطن...»(١٠) هناك في فندق مرقص بباب الخليل، كان معه أصدقاء كرام آنسوا وحدته، نذكر منهم: الشيخ الشاعرعلي الريماوي، والأديب الكبير إسعاف النشاشيبي، والشيخ عبد القادر المغربي الرئيس السابق للمجمع العلميّ العربيّ بدمشق، والعلاّمة الشاعر العراقيّ محمّد حبيب العبيدي، والكاتب اللغويّ المحقّق خليل السكاكيني، والأمير فائق شهاب، ومصطفى العماد... وعلى الرغم من قساوة الهجر، وألم الفراق والشوق، وفرط القلق الدائم المضني، وعيون المراقبين والجواسيس المبثوثين في كلّ مكان، يبقى ثمّة بصيص من أمل، وبعض من رجاء، ونسمع الرشيد يتنهّد ويتمتم فيما بعد: «سقى الله أيّامنا بالمنفى! كنّا بالشعر نخفّف على نفوس مُثقلة بالحنين، وصدور مكتظة بالهموم...» نعم، فلقد ترك رشيد نخلة شعرًا يفيض رقّة وحنينًا ونغمًا كان يداعب هذه النفس التوّاقة إلى الحريّة والكرامة والوطنيّة. شعر المنفى وجدانيّ يعبق بعاطفة جيّاشة، تصوّر ما يعتمل في أعماق النفس من قلق ويأس وانقباض فنسمعه يقول:

يا حبّذا لبنانُ، دارُ الأديبْ	من جبلٍ عالٍ، وادٍ خصيبْ
في خيمةِ الزهر	ألهمني شعري
والنهرُ إذ يجري	يمشي، ولا يدري
أنّ الهوى عُذري	وحقِّ الصليبْ
والهضباتُ الخضرُ نِعمَ النصيب	والقصرُ ما أبهاهُ عند المغيبْ

لم يكن لديهم في القدس عمل سوى التلاقي والتحدّث والإستماع إلى ما يرد من أخبار عن العمليّات العسكريّة في البلاد، وعن حال لبنان وما يلفّه من مآس وويلات ونكبات. كان يحقّ لهم الخروج من الفندق للتنزّه في شوارع القدس، بعد نيل الإذن من مدير الشرطة، ولا يبتعدون عن عيون المراقبين. لقاءاتهم كانت مثمرة، فكثيرون منهم كانوا أدباء وشعراء ومفكّرين. كانوا في إحدى العشيّات يتحلّقون في إحدى ردهات الفندق، والمطر ينهمر بغزارة، والغروب موحش، والأخبار الواردة عن لبنان سيّئة للغاية، وطفق أحدهم يتغنّى بموشّح قديم، بصوت شجيّ حزين، حرّك الأشجان في النفوس وألهب المشاعر...

(٩) م. ن. ص ١٦٣- ١٦٦.

(١٠). م. ن. ص ١٨٤.

فنظم الرشيد إثر ذلك موشّحًا قال في مطلعه:

مرنّح العطفين أينَ التلاقي، أينَ الله
طال الجفا فاذكرْ عهودَ الوفا جُدْ وتلطَّفْ
وارحمْ بكيَّ العين

بحقِّ لبنانَ الغالي / لطِّف، وخفِّف دلالكْ
ومع شذا الأرز العالي / أرسلْ خيالَ
كمْ قلتُ لليلِ الخالي / يا ليلُ: نومي يهنالكْ
إذا تبدّى هلالي / خبِّيءْ هلالكْ
مموَّج الكتفين / مرجرج الرِّدفين

أما كفى رسمُ اصطباري عفا إن لم تتعطّفْ
يحنُّ عليَّ الحين

المنفى مرتع الحنين والذكريات، والخيال فيه نار مشبوبة، تتأجّج مع لهيبه في النفس، وتثور المشاعر ولا تستكين. ويقول رشيد نخله في منفاه: «في تلك الحوادث، التي لا يدرك هولها إلاّ من شهدها، وعاش في مخاوفها، طاب الشعر، وتفجّرت ينابيعه! فلا تعجب لأيّام العسف، وأزمان المشادَّة، كيف تحرِّك النفوس، وتبنعث رواقدها!» كانوا يقبلون على الشعر في وزن معيّن، ويتبادلونه، فيقول رشيد نخله:

جُدْ يا أُخيَّا / واعطِفْ عليَّا
إن زرتَ مَيَّتا / تُعِدْهُ حيَّا
النومُ هاجرْ / والليلُ كافرْ
والطيفُ نافرْ / عن مقلتيَّا
قلْ للخيال / يرثي لحالي
هذي الليالي / طالتْ عليَّا
طيرَ الحمام / طِرْ في سلامْ
بلّغ سلامي / وعُدْ إليَّا
لبنانُ، داري / خيرُ الديار
طال انتظاري / فكُنْ وفِيّا
ضاع اجتهادي / لمن أنادي
حبُّ بلادي / جنى عليَّا

نهر الصفا، وأرز الباروك، وأيّامَ ملاح بين الأهل والخلاّن، تنقلها رياح عابرة من ماضي الزمان، إلى فتى لبنان الأغرّ المنفيّ في دنيا غريبة، فتتأجّج الذكريات وتتشظّى نفثات من الوجدان، تمور

▲ أيّامَ نُفي إلى القدس

رشيد نخله | د. عصام الحوراني

في عالم الأحلام، وتتماهى في الأعماق شعرًا عذبًا، يحمل نغمات من خرير سواقي لبنان، وحفيف أشجاره المتنوّعة، ويناعة أزهاره، ورائحة لبنان الزكيّة، فيقول:

يا صفا العيش على (وادي الصفا) حسبُ حظّي منك ذكرى وكفى
لا رعى اللهُ على الأرض الوفا إن نسيت العهدَ فيما بيننا

*****

أنت أحلام الليالي الماضيات ذهبيُّ الذكر، فضّيُّ الصفات
عنبريُّ التُّربِ، دهريُّ النبات كوثريُّ الماءِ، دُريُّ السنا

*****

شجرُ الصفصافِ حوليك رَكَعْ وانحنى الدلبُ، إذ النَّغتُ خشعْ
وهوى الشربينُ، والبُطمُ خضعْ وتهادى المَيْسُ، والحورُ انثنى

*****

لفّك الوزالُ ساقًا فوق ساقْ إذ رأى اللبلابَ يصبو للعناقْ
فُرِش العوسجُ منعًا للتلاقْ ولهُ النرجسُ بثَّ الأعينا

*****

غارتِ الدِّفلى، وغارَ الغابُ غارْ وتلظّى الشيحُ حِقدًا، والعرارْ
ضحِك الفُلُّ على طيشِ البهارْ ومضى الرندُ يناغي السَوْسنا

عاد رشيد نخله من المنفى، بعد توسّط الكثيرين لدى جمال باشا، وبخاصّة الأمير شكيب إرسلان والبطريرك الحويّك. أقام منعزلا في بلدة (المطيلة). وكان يلتقي بعدد من أصحابه سرًّا وبخاصّة الأمير أمين ارسلان، وكانا معًا على نبع الباروك عندما تفاوضا بشأن الثورة على الأتراك في لبنان. وحاول رهن أملاكه لدى البطريركيّة من أجل تزويده بالمال لينفق في سبيل الثورة هذه. ولم يستجب طلبه، ربّما خوفًا عليه. وفي هذه الأثناء من عام ١٩١٦ أصدر جمال باشا أمرًا بنفيه مجدّدًا إلى الأناضول. بيد أنّه لم يستجب هذه المرّة لمثل هذه الأوامر، وتخفّى في الأديرة أو في الكهوف، بمساعدة عدد كبير من الرجال. كذلك فعل ولده أمين الذي ارتدى ثوب الرهبنة وعاش في دير الناعمة يحمل اسمًا مستعارًا هو الأخ يوسف البشعلاني. وصدر أمر عسكريّ بالقبض على رشيد نخله حيًّا أو ميتًا، وصار عليه أن يبتعد عن الأنظار، ويبقى بمعيّة جماعة تسلّحوا في سبيل الدفاع عنه. واضطر أخيرًا للمثول أمام ديوان الحرب العرفيّ في فندق وندسور في عاليه. ومع توسّط الإرسلانيين وعلى رأسهم الأمير شكيب أفرج عنه مجدّدًا، ليعود إلى المطيلة ويعزل نفسه بين الكتب والأشجار.

إنتهت الحرب العالميّة سنة ١٩١٨، واندحرت تركيا من بلادنا مخلّفة الويلات والفوضى والضياع، نظرًا لخلوّ البلاد من حكومة ومن نظام. أسرع رشيد نخله إلى بيت الدين. وبعد مفاوضات أجراها مع عدد من رجالات البلاد، تسلّم سراي الحكومة هناك باسم (حركة الفدائيين اللبنانيين) وصار يراسل الرؤساء الروحيين وأهل الرأي والمكانة، والرجال الجدد الذين راحوا يتسلّمون مقاليد الحكم في البلدان المجاورة، ومنهم: حبيب باشا السعد رئيس مجلس إدارة جبل لبنان، والأمير محمّد سعيد الحسني الجزائري رئيس الحكومة العربيّة الناشئة. وكان يوقّع رسائله باسم الفدائيين اللبنانيين، وجعل لهذه الحركة الثوريّة علمًا خاصًّا يخفق أمام مراكز مختلفة، وهو عبارة عن نسيج أبيض في وسطه الأرزة الخضراء.

وتابع رشيد نخلة نضاله في سبيل لبنان أفضل، وقد توّج هذا النضال بترؤسه للمؤتمر السياسيّ الوطنيّ الذي عُقد في منزله في محلّة رمل الظريف ببيروت في ٢٦ تمّوز سنة ١٩٣٣ على الرغم من محاولة السلطات الحاكمة منع عقده. لم يدع إلى المؤتمر النوّاب والوزراء وأصحاب العلاقة بالحكومة القائمة وبالمفوضيّة العليا، بل دُعي إليه ما يقارب المئتين من أصحاب المهن وأصحاب الوجاهة في الوطنيّة آنذاك، ومن جميع الطوائف. وكان من مواضيع جدول أعماله، كما جاء في حديث أدلى به رئيس المؤتمر رشيد نخلة لجريدة (المقطم) في عددها الصادر في ٢٣ تمّوز سنة ١٩٣٣:

- تقرير المعاهدة اللبنانيّة الفرنسيّة التي تجلو، بعقدها، الغموض الذي كان يخيم على العلائق بين فرنسا ولبنان.

■ تأليف لجنة خاصّة تتولّى صياغة دستور يلائم لبنان ومتطلّبات شعبه، وكما صرح رئيس المؤتمر، «ولا نستطيع أن نتصوّر البتة أنّ الأمّة ترضى بأن يوضع لها دستور في مجلس نوّاب يسيطر عليه مندوب المفوضيّة العليا! ولا يكون هذا الدستور على أساس الطائفيّة، فالطائفيّة قتل للقضيّة الوطنيّة، وأحبولة تطرح دائمًا للتفريق. ومن العجب أن يرضى الفرنسيون لنا ما لا يرضونه لأنفسهم في بلادهم...»

■ المطالبة بكلّ حقوق اللبنانيين في الحصّة الجمركيّة، والبحث في مسألة الديون العامّة.

كما طالب المؤتمر بالعمل على تقرير الوحدة اللبنانيّة، وتخفيض الضرائب، وغيرها من القضايا التي كانت تهمّ اللبنانيين في هذه الأثناء وفي زمن الإنتداب. ولقد وضع أمين نخلة كتابًا خاصًّا بالمؤتمر وأعماله وإنجازاته. وجاء في كلمة الإفتتاح التي ألقاها الرئيس، والتي نشرتها الصحف ومنها جريدة (الإتحاد اللبنانيّ) في عددها الصادر بتاريخ ٢٧ تمّوز سنة ١٩٣٣: «هذا مؤتمرك، وقد افتتح دورته الأولى بقوّة الحقّ، وجبروت العقيدة، لم يثنهِ عن الواجب حصار دون الأبواب، ولا اعتقال في دار الشرطة، ولا منع للجماهير في الشوارع... وها إنّنا نحنخ ولا تزال جلسات الدورة الأولى متعاقبة يومين آخرينخ نقوم بما عاهدنا الله عليه، وأغلظنا القسم فيه، فلا رجعة لنا حتى نظفر بالمطاليب...»

رشيد نخله، أمير الزجل

بويع رشيد نخله بإمارة الزجل في احتفال ترأّسه الأمير فائق شهاب باسم الحكومة اللبنانيّة في بيروت، بنادي الكريستال، سنة ١٩٣٣. لم يحضر الشاعر الإحتفال لأسباب صحيّة، وقد بعثوا إليه بكتاب جاء فيه: «إلى رشيد نخلة: رفعت الزجل اللبنانيّ إلى أوج الشعر، ونهضت بالزاجل إلى مقام الشاعر. فسارت الصحف بكلام الزجّالين، وتناقلته أفواه الناس في المشرقين، وهتفت أصداؤه في الخافقين محلّة محلّة. ولقد أيّد ذلك كلّه أنّك أمير من أمراء الفصحى، في الشعر وفي النثر، وأنّك زعيم في القوم يُشار إليك من كلّ ناحية. ففي هذه الحفلة التأريخيّة المعقودة في بيروت الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الخميس، المصادف ١٣ نيسان سنة ١٩٣٣، أجمعت الآراء في مشهد ملاءٍ من أساطين القلم على مبايعتك إمارة الزجل الرفيعة...» ووقّع هذا الكتاب ممثّل الحكومة الأمير فائق شهاب، ورئيس لجنة الإحتفال شبلي الملاط.[١١]

قال الشيخ خليل تقي الدين في الذكرى الخامسة لوفاة الشاعر رشيد نخله: «فأوّل ما يسترعي النظر في حياة رشيد نخله وفي أدبه، أنّ الناس قبله كانوا ينظرون إلى الشعر العامّي على أنّه مظهر من مظاهر الإنحطاط في الأدب، والضعف في الشعر. فلمّا أرسل رشيد نخلة أزجاله النابضة بالحياة، وغنّى أناشيد الحبّ والوطنيّة والأرض، غناء قرويّ خالٍ، يصدر عن طبيعة سمحة، ونطق بلسان الراعي السائر مع الفجر وراء قطعانه، والفلاّح المنحني على الأرض فوق محراثه، والجبليّ العائش في إطار الطبيعة الفتّان، تغيّر رأي الناس في هذا الشعر، وبدأوا ينظرون إلى الزجل نظرهم إلى فنٍّ من فنون القول الجميل.»[١٢]

على الرغم من عدم إتقان رشيد نخلة اللغة الفرنسيّة، فيوم زاره (بارس) في الباروك، جرىخ بوساطة مترجم- بين رشيد نخلة والكاتب الفرنسيّ المشهور حديث شائق حول الأدب وبخاصّة الشعر العامّي، وقد أتى بارس على ذكر هذا الحديث في كتابه: Une Enquete Aux Pays du Levant (استقصاء في بلاد المشرق). كذلك فقد نشرت جريدة (ليه نوفيل ليترير) Les nouvelles Litteraires الفرنسيّة في ٢٢ أيلول سنة ١٩٣٤ مقالاً بعنوان: (ميسترال لبنانيّ) بحثت فيه نهضة الزجل في لبنان، وأشارت إلى الحديث المذكور بين أديبهم الكبير والشاعر اللبنانيّ، وجاء في المقال أيضًا: «لماذا اختار رشيد بك نخلة هذا السبيل، بدلاً من أن يكتب بالعربيّ؟! يقول رشيد بك: إنّ الشاعر العربيّ يتخيّل فكرته بلغته الإقليميّة، ثمّ يترجم تلك الفكرة إلى الفصحى، في حين أنّ الشاعر الشعبيّ يخرج فكرته، وهي بعد حامية طلقة، كما تمخّضت بها قريحته.»[١٣] ذكر رشيد نخلة في مذكّراته هذا الحديث وأشار إلى أنّ بارس حدّثه عن شعر فردريك ميسترال[١٤] إمام الزجّالين في فرنسة الذي نال جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٠٤ وقال له: «أرى عند ميسترال من الحرارة أكثر ممّا عند شعرائنا الآخرين، من ذوي الفصاحة، فهو يعبّر عن خواطره باللغة التي كانت تتكلّم بها أمّه!... وأردف بارس: الآن عرفت ما كنت أجهله. فإنّكم، أنتم جماعة الشعراء الشعبيين تعيشون في بيوت الناس، ونحن نعيش في كتبهم... فلا بدع إذ نراكم أشدّ حرارة منّا!!...»[١٥]

(١١). م. ن. ص ٧٥- ٧٦.

(١٢) جريدة **المكشوف**، ١٠- ١٩٤٤ ، ص ٨.

(١٣) كتاب **المنفى** ، ص ١٢٩.

(١٤) فردريك ميسترال (١٨٣٠ - ١٩١٤)، مؤسّس مذهب الشعر العامي باللهجة البروفنسيّة، جنوب فرنسا. شعره يصوّر الحياة الريفية والحبّ المثاليّ الصافي. حاز جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٠٤، صاحب الرواية الشعريّة **ميراي** ١٨٥٩، وهي ملحمة عاطفيّة جرت أحداثها في مقاطعة كمارغ Camargue على دلتا الرون.

(١٥) كتاب **المنفى**، ص ١٢٩- ١٣٠.

مع كلامنا على الزجل عند رشيد نخلة نسمعه يتحدّث بنفسه عن هذا النوع من الشعر فيقول: «... وهو ما يقوم في الأذهان من أنّ الزجل بمثابة حرب على الفصحى. فأستغفر الله ألف مرّة! ما كان الزجل في الأندلس أمس، ولا في مصر، ولبنان اليوم، ليزجّ بنفسه هذه الزجّة! فإنّما الزجل، فخره كلّه، في أن يرى وجهه في زاوية من مرآة الفصحى، ويكون عليه شيء من روعتها، وشيء من طلاوة ألفاظها، وحلاوة حواشيها، ولباقة الأخذ بين خافيها وباديها! والعربيّة محاسنها لا تعدّ، وحسناتها، إلى صاحبها، لا تحصى. وإذا كانت هذه حسنة الزجل إلى الزجّال، فما ترى يُقال في حسنات الفصحى إلى الشاعر، وعنده منها كفّتا ميزان العرب: البلاغة والفصاحة!... فالزجل، إذن، عيال على العربيّة، من قديم الزمان إلى اليوم، فضلاً عن كونها هي لسان الأمّة، والزجل لسان طوائف منها، يوم تترك فصاحتها بعض الأحايين، وتقبل على عاميّتها! وإنّي ما اخترت العاميّة، بدلاً من الفصحى، كما وهمت (الجريدة الفرنسيّة)، بل أراني أقبل على العاميّة، حين أترك الفصحى، وأقبل على الفصحى، حين أترك العاميّة، ميلاً مع الخاطر العارض، أو المناسبة الحاتمة.»(١٦)

في زجل رشيد نخلة عدا الصور الأدبيّة الراقية، عمق وفكر، فشعره يتفجّر من أعماق النفس الإنسانيّة المضطربة المليئة بالقلق، والرُّهاب، والتوتّر، والخوف، والشعور بالذنوب، والملامة... إنّه يسعى نحو الذات متسائلاً، مستفسرًا، ومقدّمًا الحلول، منطلقًا خارج عالم الظنون في سجن الذات المظلم، مندفعًا بالنفس نحو عالم الحبّ، والسلام الداخليّ، والحياة فيقول:

لا أنا ولا إنْتِ كوَّنّا الهوى ... ولا ابتدعْنا حِسْنِ وشعور وْغوى
اللّه خلقْ عينَكْ وقلبي لِلْغرام ... وْساقبتْ وقعوا بِهالبَلوى سوى
اللّه خلق عينك وقلبي لِلْغرام ... لا عليّي وْلا عليْك ما في مَلام
ونْكان حدا بيقولْ شي في هَلكلام ... قِلّو تفضّل هات لِلعِلِّه دوا!(١٧)

العراك بين رغبات النفس النهمة المندفعة أبدًا نحو عالم الإشباع والإستمتاع والملذّات، وبين الضمير الذي وضعته على بوّابة هذه النفس، التقاليدُ المغرقة في القدم، والمعتقدات، والديانات. وتبقى الذات مكبّلة أسيرة ضائعة، وسط هذا التناقض الأبديّ الذي لا ينتهي. والإنسان حائرٌ بين هذه وتلك، تراوده الشكوك والأوهام والظنون حول الحريّة ومداها، والمسؤوليّة وأبعادها، ونسمع عمر الخيّام يقول:

لبستُ ثوبَ العيش لم أُستشرْ ... وحرتُ فيهِ بين شتّى الفِكَرْ
وسوف أَنْضو الثوبَ عنّي ولم ... أدرِكْ لماذا جِئتُ أين المفرّْ

******

لا تشغل البال بماضي الزمانْ ... ولا بآتِ العيش قبلَ الأوانْ
واغنمْ من الحاضرِ لذّاتِهِ ... فليس في طبع الليالي الأمانْ

وقال رشيد نخله : إتركوني عيش ....

قد ما فيكِ يا نفسِ تْشاطري ... وفوقِ السّهى بالبَسْطْ عَلّي قناطِري
جيتْ للدِني بْغيْر خاطِري يا أهلَ الوِهامْ ... إتركوني عيشْ فيها بْخاطِري

(١٦) م. ن. ص ١٣٠- ١٣١.

(١٧) جبور عبد النور، دراسة في الشعر العامّي اللبنانيّ، منشورات الجامعة اللبنانيّة ١٩٦٦، والنصّ الشعريّ مستلّ من كتاب **معنّى رشيد نخله** ص ١٣٠.

وْلا انسألتِ إن كان بِرْضى بْهالمقام
وْلا شارطوني عَلْحلال وْعَلْحرام

وْلا خوَّفوني من إله راحِمْ غفورْ
تْزيدْ عليِّ في حياتي مْخاطري

ولا خوَّفوني من إله راحم غفورْ
وْمِن نِظام شِفْتو مع الدِّنيا يدورْ

وما زال طبع النفس بيميلْ للسرورْ
ليش يا نفسي تا حتّى إكبحِكْ

وْقِلِّك بْلذاتِك لأجلي خاطري
ليش يا نفسي تا حتى إكبحِك

وْضيِّق عليكِ في حياتِك مسرحِكْ
وْبعد موتِكْ وَين ما كان مطرحِكْ

نِبقى نْشوف وْكِل حادِث لو حديث
وَيْن ما صدمني الشط بلقي ياطري

ولمّا القيامة تقوم ويُنفخ بوقها
بعرف بْقللو يا إلهي رحمتك!

ما كِنتِ إخطي في حياتي بْخاطري(١٨)

الحبّ يبقى في ذاكرة الإنسان، مهما كبر الجسد وشاخ، لأنّ مشاعره التي تولّدت في مراحل الشباب قد ترسّخت في الأعماق، في اللاوعي القابع بعيدًا في الذات والوجدان. الحبّ هو ثمرة ثقافة خاصّة لا تلتصق إلاّ بقلوب أهل الخيال، الذين يرافقهم الحبّ على مدى العمر كلّه. ورشيد نخله لا يرى في الشيب غضاضة أو حرجًا بالنسبة إلى مصير الحبّ، الذي يستمرّ توهّجًا على الرغم من تبدّل السنين، فيقول في رجَز من مُعنّاه، بعنوان (خمستعشر عام) :

قالت حرام تشيب إنتَ وْشيب أنا
ولا من الهوى شبعنا ولا من بعضِنا

قِلتِ يا فجعِة حياتي وْشو جرى
مِتِلْ ما كِنّا وأحسن بَعدِنا

قِلتِ يا فجعِة حياتي وشو جرى
نِحنا لقِدّامْ والناس لا ورا

بعدِكْ ثريّا والبشر كِلاّ ثرى
وْبعدني حِمل الحِصانْ راعي القنا

وْكيفما رَمَحتِ تمزّقت حِجبِ الحِسان
وْإنتِ كمان بعدِك عروسة هالزمان

وْعَيشِنا معْ بعضِنا رغدْ وْهنا
وْعيشِنا معْ بعضِنا رغدْ وْصفا

وتِضرَبِ الأمثال فينا بالوفا
خمستعشرْ عام أهْنا مْنِ الغفا

مرَّت مرور الريح عا حفِّة قنا
مرّت مرور الريحْ عا حفّة غدير

وْرغم الحسد غير النريدو ما يصير
مْمَهدي الدِّنيا لنا مرجة حرير

وْكِلْ شي في الكون عم يضحك لنا
وْكِلْ شي في الكون يضحك لي وْلِكِ

وْشو بني يا نور عيني وشو بك
تململت وتنهَّدت من دون حَكي

وتكلَّف المرجان تبسيم الأسى
وْشمس الربيع في غطسِها عِندِ المسا

وْطوَّقِت عِنقي وقالت: ما عسى
بسم الصليبْ يا ناس بَدّو يْصيبِنا!!(١٩)

ويقول أيضًا في الحبّ والغزل والغرام :

كِل شي في وْتارْ وفي نغماتْ طرب
وْدفوف وْدربكّات ونحاس وْقصب

مِش مِتِل لفظِة (يا حبيبي) تقولها
مِن راسْ شِفافك بين غِنج وْبين عتبْ(٢٠)

(١٨) م. ن. عن **معنى رشيد نخله** ص ٢٣٥.

(١٩) م. ن . ص ١٣٧.

(٢٠) م. ن. ص ١٢٩.

(محسن الهَزّان) رواية بالشعر العامي

وتبقى رواية (محسن الهَزّان) الزجليّة، التي نظمها حوالى عام ١٩٠٠، وقد طبعت لأوّل مرّة سنة ١٩٣٦، وهي تتألّف من ٢٨ مقطعًا، و٤٠٣ أبيات بقوافيها المتنوّعة. استوحى الشاعر القصّة، في زمن طفولته، وقد نقلت إليه عن لسان عبّاس نخله، واحد من كبار أفراد أسرته الذين كان آباؤهم يعملون لدى الأمير بشير، وكان عبّاس هذا رجلاً كريمًا شجاعًا اشترك في واقعة الستّين المشؤومة (أي سنة ١٨٦٠). ويقول رشيد نخلة عنه في مقدّمة القصّة: «كان عبّاس بك تختلف إليه في المواسم طوائف من البدو، تجرُّ إليه الجياد، والهدايا، وأخبار الفلوات، وأنساب أهلها، وأقوال شعرائها.» ومن هؤلاء سليمان الأحمد، شيخ بدويّ من قبيلة النمير، كان يروي لعبّاس وجماعته في أثناء سهراتهم أخبار البدو وحكايات الصحراء، ومنها حكاية محسن الهَزّان التي وصلت بالتواتر إلى الفتى رشيد فأثّرت فيه ونظمها شعرًا في شبابه.

تصوّر قصّة محسن الهزّان عادات البدو وتقاليدهم. إنّها تروي حكاية حبّ عنيف بين محسن، إمير من قبيلة آل الهزّان، وهند من قبيلة الجفيليّة؛ وبين القبيلتين عداوة قديمة وحروب. وكيف يحاول هذا البطل أن يخطف هندًا من وسط قبيلتها ليتزوّجها، على الرغم من كلّ الأخطار، وتعلم هند بأنّ محسنًا هو من قبيلة الهزّان فتثور في أعماقها حميّة الولاء المطلق لقبيلتها... ونسمعها تصرخ في خضمّ العاصفة مردّدة:

الهزّان! صاحت هِندِ زخّي يا نجومْ | شرٌّ وْبلا مِنْ فوقِ هالإسمِ الذميمْ
ويا صواعِق زلزلي هاكِ الرسومْ | ويا أرضِ غوري بأهلِها حتى الجحيمْ
ويا سما من فوقها خلّي الغيومْ | زفت وْغضا وكبريت وشواك وهشيمْ
تنبت أفاعي أرضِها وتلفح سْمومْ | وْغدرانِها غضا وجماجم تِنْرَدمْ
وْعَجْنابها ما يرفِّ غيرْ غِربانْ وبومْ | والقمر ما يشِعّ في جوّ الوخيمْ
تِخجل الشمس إن لامست هاكِ التخومْ | وْيِنتن الفجر إنْ هبِّ مِن صَوْبا نسيمْ(٢١)

قال الياس أبوشبكة في (المكشوف): «وقد سبق لي أن عقدت مقالاً عن شعر ميسترال عرضت فيه لشعر رشيد بك، فقلت إنّ الشاعر قد يستطيع بلغته الريفيّة أن يمهر الأدب العربيّ بجوهرة خالدة كميراي. ففي حبّه لهذه التربة التي غذّته، وفي خياله الجميل، وشعوره الحلو، وحنانه الصافي، وبعده عن التكلّف والزخرف الغرّار، عناصر لبناء رائعة إنسانيّة كرائعة ميسترال. وقد لمعت هذه العناصر في ملحمته القصيرة ، **محسن الهزّان**.»(٢٢)

وقال سامي الكّيالي صاحب مجلّة (الحديث) في مقال له على (محسن الهزّان) في جريدة (اليوم): «لقد كان رشيد نخلة في هذه القصّة، مصوِّرًا ومؤرِّخًا معًا: مؤرّخًا للون من ألوان الحبّ في الصحراء، ومصوّرًا للعادات اللبنانيّة. وإنّ القارئ ليحسّ، وهو يقرأ بعض مقطوعات هذه القصّة، اندماج رشيد نخلة ببيئته اندماجًا حارًّا.»(٢٣)

نعم، فلقد ارتفع رشيد نخلة بالزجل إلى مصافّ الأدب الرفيع الغنيّ بمعانيه وبلاغته وأبعاده الإنسانيّة وصفائه وطلاوته وسلاسته وجماله. ونقرأ مارون عبود في (دمقس وأرجوان) وهو يقدّم مقارنًا بيتين من شعر الرشيد بالعاميّة وبيتًا لدعبل بالفصحى، قال رشيد نخله:

(٢١) م.ن. عن **محسن الهزّان** ص ٢٨.

(٢٢) الياس أبوشبكة، **المكشوف**، عدد: ٤ كانون الأوّل ١٩٣٩.

(٢٣) جريدة **اليوم**، عدد تاريخ ٢ كانون الأوّل سنة ١٩٤٠.

قلبي وعيني ضعاف من غير شي — في كل يوم بيفتحوا ورشِي
العين تعشق كِلما — شافت والقلب لاحقها على الطحشي

وقال دعبد :

لا تأخذا بظلامتي أحدًا — قلبي وطرفي في دمي اشتركا

ويعلق مارون عبود قائلاً: «ولكن أسألك أن تحكّم عقلك وذوقك في ما قاله الشاعران، ليبدو لك غنى الشاعر العاميّ، وفقر الشاعر الفصيح، وإن كان هذا الأخير هو السابق إلى هذه الصورة.»(٢٤)

قال الأمير نديم آل ناصر الدين في مقدّمته لديوان (الذخائر) لفرحان العريضي: »ولأمير الزجل رشيد بك نخله، روائع زجليّة لا تعلوها روائع الشعر الفصيح، في سموّ معناها وجمال موسيقاها وبراعة ابتكارها... في مثل قوله:

لا عدت تقشعني ولا عدّت إقشعك — ولا عاد ينفعني البكي ولا ينفعك
بكرا متى قبالك مرق نعشي الحزين — مِنّو لحالو بْينحِني تا يْودّعك

رشيد نخله، الرجل العصاميّ الذي لم يتخرّج في مدرسة وصار مدرسة في نهضة النثر والشعر بنوعيه، وفي الوطنيّة. هذا الأديب الشاعر الكبير استمدّ موادّ أدبه الحيّ من طبيعة لبنان، ومن الناس العاديين في القرى والدساكر المتناثرة في جبل لبنان وعلى سواحله. لقد امتاز نثره كما شعره بالحيويّة والرقّة والرشاقة والابتكار. وقال داغر في مصادر الدراسة الأدبيّة: «هو من فحول الشعراء الذين يمثّلون هذه الفترة التي تولّى فيها تلك الجمهرة من الأدباء اللبنانيين قيادة الحركة الفكريّة والثقافيّة في العالم العربيّ... امتاز أدبه بميزتين فارقتين: بهذه الحيويّة التي تستمدّ عناصرها من أرض لبنان... ثمّ بروحه العربيّة ونزعته الوطنيّة.»(٢٥) أحبّ شعره كلّ الناس، وقال أسعد عقل صاحب (البيرق) في مجلّة مرآة العرب: «إنّ صبية لبنان في الشاطىء والسهل والجبل تحفظ لرشيد نخله أناشيده وترانيمه. وأطفال المهاجرين المنتشرين تحت كلّ كوكب، الحاملين في قلوبهم اسم لبنان وعطر أرزه وسنديانه، تحفظ لرشيد نخله تعاليمه ومزاميره، فهو معلّم هذا الجيل الناشئ...»(٢٦)

رشيد نخله، إبن جبل لبنان الأبيّ، الخالد بأدبه، وبوطنيّته التي يستلهم منها كلّ لبنانيّ نشيد الحريّة والصدق والوفاء والإخلاص، كان للبنان بالأمس سندًا، ويبقى مع تعاقب الأجيال رمزًا وعهدًا، ليردّد معه اللبنانيّون:

إن أكنْ حيًّا لِلبنانَ أكنْ — رغم ما يلقى الكريمُ المنجدُ
أو أكنْ ميتًا ، ففي لبنانَ لي — ذمّة طابت، وعهدٌ جيّدُ
وأحباءٌ بذكري إن شَدَوا — قام صدّاحُ المعالي يُنشدُ

(٢٤) مارون عبّود، **دمقس وأرجوان**، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٦، ص ٤٣.

(٢٥) يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبيّة، منشورات الجامعة اللبنانيّة، ١٩٧٣، ص ٧١٤.

(٢٦) مجلّة **مرآة العرب**، ٣، ١٩٤٠: ١٦.

نجيب محفوظ والإيمان#

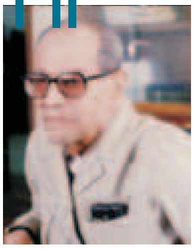

○ | الأب د. باخوس طنّوس

○ | ١. مقدّمة

إنّ الانسان ابن بيئته، وحيثما ينشأ ويربى يتأثّر وينطبع بالفكر المحاط به. وهذا ما يجعل المخيّلة توقظ مكامن النفس، وتنشر ألوية الخيال في كلّ صوب. وهذا ما يسوق إلى التأمّل والتفكير في الوضع الاجتماعيّ والسياسيّ والدينيّ. وإذا ما أتى النضج مبكرًا عقّد الحياة وآلامها، وأحدث ثورة مبكرة.

أدرك نجيب محفوظ أنّ الفكر الحرّ يرفع عن كاهل الانسان نير المجتمع، وعبوديّة التقاليد، وثقل الدين التقليديّ أحيانًا. وهذا الفكر أشعره بنوع من الحريّة الأولى التي اعتنقها منذ خرج من نعيم الفطرة والعفويّة إلى جحيم المجتمع والمدنيّة. نشأ نجيب محفوظ في عصر مختلّ المقاييس والقيم، يسيطر عليه الفساد السياسيّ، ويتبوّأه الظلم؛ يفتك قويّه بضعيفه، وغنيّه بفقيره، ورجال الدين والمتسلّطون يتحكّمون بالشعب. فلم ير بدًّا من الثورة ورفض الواقع وإعلان العصيان الروحيّ التقليديّ والتمرّد الاجتماعيّ والأخلاقيّ.

نشأ نجيب محفوظ نشأة تقليديّة، وعاش محافظًا منضبطًا على غير ما يتوقّع كثيرون، وتزوّج زواجًا تقليديًّا وأنجب ابنتين، هما فاطمة وأم كلثوم، سمّاهما على اسمَي بنتي رسول الإسلام صلعم، فلم يلجأ إلى اسم فرعونيّ، ولا اشتراكيّ، ولا شيوعيّ، بل دخل في عمق التقليديّة والأصالة، مباشرة من أوّل الطريق.. فهل لهذا أيّة دلالة؟!

يقول د. مصطفى عبد الغني: نجيب محفوظ شخصيّة مثيرة للاحترام فعلاً. فهو بعكس جميع الكتّاب والفنّانين، لم يعش تلك الحياة البوهيميّة التي لا يحدّها شيء، ينام النهار ويستيقظ الليل، يفعل ما يشاء وقتما يشاء، بحجّة أنّه فنّان من حقّه أن يوفّر لنفسه كلّ ما تحتاجه روحه المتمرّدة. لا، لم يكن محفوظ من هذا النوع. بالعكس، كان منظّمًا جدًّا، خاصّة في وقته. كان أشبه ما يكون بربّ الأسرة التقليديّ؛ فقد كان يعمل في الصباح موظّفًا في وزارة الأوقاف،

وفي المساء، وبعد عودته إلى بيته وزوجته، يظلّ يكتب لمدّة ساعتين فقط، ثمّ يتوقّف. لم يكن يكتب طلبًا للمال. ولم يكن مثل الأدباء الذين «ينتظرون الوحي» أن يأتيهم، بل كان يكتب يوميًّا ساعةً محدّدة ولمدّةٍ محدّدة... فوصفوا حياته بالرهبنة. ولم يكن من يشبهه في هذا سوى عملاقٍ آخر اسمه العقّاد.

تأثّر نجيب محفوظ بغاندي وحركته، وبنهرو ومنهجيّته، وبالشاعر الهنديّ العظيم طاغور، وبسيرة السيّد المسيح، وبتاريخ الأقباط في مصر.

○ | ٢. تنشئته ودور سلامة موسى كراعٍ ومربٍّ أدبيّ له

■ كانت وجهته أوّل الأمر فرعونيّة، ثمّ توجّه إلى الماركسيّة. فسيطرت على فكره أصداء عهد غابر ترتسم ملامحه على جدران المعابد الفرعونيّة في صعيد مصر، ما دفعه للعودة إلى قاعات الدرس...

■ أخذ بالتوجّه الفرعونيّ والماركسيّ كأستاذه «الحاقد على الإسلام» سلامة موسى، وقد قال: «كان سلامة موسى هو الراعي والمربّي الأدبيّ لي. نشر لي، وأنا بعدُ في الثانويّ ثمّ في الجامعة، عشرات المقالات وكتابًا مترجمًا وأولى رواياتي. إنّه أستاذي العظيم»؛ على ما أورد د. علي حسن في: نجيب محفوظ بين الإلحاد والإيمان[١]. وورد في الأدبيّات أيضًا: «كان لسلامة موسى أثر قويّ في تفكيري. فقد وجّهني إلى شيئين مهمّين، هما العلم والاشتراكيّة، ومنذ دخلا مخّي لم يخرجا منه إلى الآن»[٢].

(١) د. حسن علي، نجيب محفوظ يتذكّر، ص ٣٠، و٤٥، وأتحدّث إليكم، ص ٥٩- ٦٠، وص ٨٧.

(٢) جمال الغيطاني، نجيب محفوظ يتذكّر، ص ٨٨.

مداخلة من ندوة انعقدت في جامعة سيّدة اللويزة، فرع برسا- الشمال، في ٢٠٠٦/١٢/٨

ولذا قال عنه الدكتور سيّد فرج: «اختزن أفكارًا حاقدة على الإسلام والمسلمين، استقاها من فكر من كان يشهر إلحاده، وهو سلامة موسى».

لقد حدّد نجيب محفوظ موقفه من الدين، ومن الإسلام بالذات، منذ وقت باكر في ريعان شبابه، حسبما وجّهه أستاذه سلامة موسى بقوله إنّ مهمّة الدين قد انتهت وأنّ العالم يعيش دينًا جديدًا هو الاشتراكيّة!

والغريب أنّه سرعان ما انقلب، بعد وفاة عبد الناصر، إلى مهاجم للفكر الاشتراكيّ.

إنّ المفهوم السطحيّ لقصص نجيب محفوظ تقوم على الحطّ من قدسيّة الدين وهيبته، ومزج رموزه مع الخمر والجنس والنساء. ويوهم قارئ رواياته أنّ هناك تناقضًا بين العلم- ويعني به عند التدقيق الماركسيّة الإلحاديّة!- والدين. ثمّ يكون الحلّ في نظره باستبعاد الدين ليحلّ العلم محلّه! ولكن، أيّ دين يصوّره نجيب في رواياته؟ إنّه دين الدروشة والخرافة والتصوّف الذي عاشه في بيئته الكئيبة، فنبذه متوجّهًا إلى شيء أسمى اعتقادًا منه أنّها الماركسيّة. ولم يعلم أنّ هذا الدين الخرافيّ هو مجرّد بدع يحاربها الإسلام الصحيح الذي لا تناقض بينه وبين العلم الدنيويّ النافع.

■ أعطى الغرب نجيب محفوظ جائزة نوبل عن روايته «أولاد حارتنا»، التي بدأ في نشرها بتسلسل في جريدة الأهرام سنة ١٩٥٩، ثمّ ظهرت في كتاب عام ١٩٦٧، عن دار الآداب ببيروت. وهي رواية رمزيّة تجرّأ فيها على الله سبحانه، وعلى الأنبياء، وعلى الإسلام؛ وملخّصها لا يخرج عن فكرته السابقة في ادّعاء التناقض والصراع بين العلم والدين، ثمّ تكون النهاية بانتصار العلم...

٣. الرواية المشكلة: "أولاد حارتنا" بين الدين والإلحاد

أكّد يوسف القعيد، أحد أبرز المقرّبين إلى محفوظ، أنّ محفوظ وضع شرطين لنشر روايته «أولاد حارتنا» في مصر، هما أن يوافق الأزهر على نشر الرواية، وأن يكتب أحد المقرّبين من جماعة الإخوان المسلمين مقدّمة لها.

وأشار إلى اعتقاده بأنّ مطالبة محفوظ بهذين الشرطين تعود إلى محاولة تبرئة ساحته من الموقف الذي أثاره علماء الأزهر في أيلول ١٩٥٩ عند البدء بنشر الرواية في صحيفة الأهرام على مدار ثلاثة أشهر، ومطالبتهم بوقف نشر الرواية في الصحيفة وعدم نشرها في كتاب.

وكان التقرير الذي أوصى بمصادرة الرواية، ووقف نشرها على حلقات، كتبته لجنة من الأزهر تتكوّن من الشيخ محمّد الغزالي والشيخ محمّد أبو زهرة والشيخ أحمد الشرباصي، باعتبار أنّها هرطقة وقحة وكفر بوّاح وإلحاد.

وكان هناك رأي آخر معتدل يرى أنّ الرواية لا ترمز لقضاء العلم والمعرفة على الدين والغيبيّات، وإنّما هي تحذير من أن يطغى العلم والماديّة على حياتنا لدرجة تهميش جانب الدين وإلغائه، وأنّ الحضارة يجب أن تقوم على العلم والدين معًا.

وكأنّ نجيب محفوظ يقرّ في قصّة الزعْبَلاوي أنّ الانسان لا يستطيع العيش بعيدًا عن الله...

ويذهب بعض الدارسين، مثل د. مصطفى عبد الغني، إلى أنّ الرواية تتحدّث بشكل رمزيّ عن الحكم في مصر في مرحلة ما بعد الثورة، وصراع القوى فيها مع السلطة...

يقول نجيب محفوظ بلهجة حزينة بسبب الحملة على الرواية: أرجو أن يعيد الأساتذة الأفاضل من علماء الدين قراءة الرواية بعد التخلّص من غشاوة الاتّهام؛ والله يحكم بيني وبينهم في الدنيا الآخرة.

٤. النزعة الإسلاميّة في تكوين نجيب محفوظ

لنلاحظ الأثر المباشر للإسلام، والتديّن في تركيبة نجيب محفوظ، يمكن أن نقرأ بعض كلماته التي لا تقبل الشكّ، ونتأمّل في بعض مواقفه، بعيدًا عن تشنّج التطرّف المتزمّت، أو المستبيح...

٤-١ يوم استلم جائزة نوبل سنة ١٩٨٨

تتجلّى إسلاميّة نجيب محفوظ بوضوح شديد في خطابه أمام لجنة جائزة نوبل، في حفل تكريمه وتكريم الفائزين الآخرين بها. وممّا قال:

«سيّداتي سادتي: أخبرني مندوب جريدة أجنبيّة في القاهرة أنّه لحظة إعلان اسمي مقرونًا بالجائزة ساد الصمت، وتساءل كثيرون عمّن أكون؛ فاسمحوا لي أن أقدّم نفسي بالموضوعيّة التي تتيحها الطبيعة البشريّة: أنا ابن حضارتين تزوّجتا في عصر من عصور التاريخ زواجًا موفّقًا: أولاهما عمرهما سبعة آلاف سنة وهي الحضارة الفرعونيّة؛ وثانيتهما عمرها ألف وأربعمئة سنة، وهي الحضارة الإسلاميّة. ولعلّي لست في حاجة إلى تعريف بأيّ من الحضارتين لأحد منكم، وأنتم من الصفوة وأهل العلم، ولكن لا بأس من التذكير، ونحن في مقام النجوى والتعارف...»

وعن الحضارة الفرعونيّة، لن أتحدّث عن اهتدائها لأوّل مرّة إلى الله سبحانه وتعالى، وكشفها عن فجر الضمير البشريّ...

وعن الحضارة الإسلاميّة، فلن أحدّثكم عن دعوتها إلى إقامة وحدة بشريّة في رحاب الخالق، تقوم على الحرّيّة والمساواة والتسامح، ولا عن عظمة رسولها. فمن مفكّريكم من كرّمه كأعظم رجل في تاريخ البشريّة. ولا عن فتوحاتها التي غرست آلاف المآذن، الداعية للعبادة والتقوى والخير، على امتداد أرض مترامية، ما بين مشارف الهند والصين وحدود فرنسا. ولا عن المؤاخاة التي تحقّقت في حضنها بين الأديان والعناصر، في تسامح لم تعرفه الانسانيّة من قبل ولا من بعد.

٤-٢. ما قال عن الثقافة العربيّة ومصادرها في فرانكفورت الخامس من أكتوبر سنة ٢٠٠٤؟

إنّ مصادر الثقافة العربيّة المعاصرة ثلاثة:

أوّلاً: الحضارات القديمة التي عرفتها المنطقة العربيّة.

ثانيًا: أمّا المصدر الثاني لحضارتنا في العالم العربيّ فهو الإسلام، ذلك الدين السمح العظيم، الذي منح الشعوب العربيّة منظومة القيم التي صاغت هويّتنا الحاليّة، ومنها الحريّة؛ فمقولة لا إله إلاّ الله التي هي أساس شهادة المسلم، إنّما تعني أنّه لا عبوديّة إلاّ لله وحده، وليس لأيّ إنسان على إنسان! ومنها أيضًا المساواة، فالبشر جميعًا في الإسلام سواسية أبيضهم وأسودهم وأصفرهم، لأنّهم جميعًا أمّة الإسلام أيًّا كانت أصولهم العرقيّة، ومنها أيضًا التسامح، فالدولة الإسلاميّة عاش وانتعش فيها العلماء والفلاسفة من المسيحيين واليهود، كما تولّوا مناصب كبيرة في الدولة وصلت إلى رئاسة الوزراء في الأندلس، ومنها أخيرًا العدالة التي هي أساس المُلك، وتراث الإسلام مليء بالروايات التاريخيّة التي طبّق فيها الحكّام العدالة على أقرب الناس إليهم.

أمّا المصدر الثالث لحضارتنا العربيّة فهو حضارتكم الغربيّة.

٥. الملامح الصوفيّة علامة الإيمان بالله في أدب نجيب محفوظ

في السنوات الثلاث الأخيرة كان يكتب قصصًا قصيرة أطلق عليها اسم «أحلام فترة النقاهة»، وقد كتب ما يقارب السبعين من هذه الأحلام الصوفيّة والفلسفيّة. بل إنّ دراسات كثيرة خرجت تتأمّل الطّرح الصوفيّ في أدب نجيب محفوظ، ومنها كتاب الدكتور مصطفى عبد الغني، نائب رئيس تحرير جريدة الأهرام، «نجيب محفوظ الثورة والتصوّف»، ودراسة ناظم محمّد العبيدي عن «المنحى الصوفيّ في أدب نجيب محفوظ»، ومقالة محمّد رشدي «رواية أولاد حارتنا بين الصوفيّة والمسيحيّة»، ومقالة فرانسوا باسيلي «مزامير نجيب محفوظ»، ومنها:

نقرأ له في روايته الحرافيش: إفرح عند كلّ شروق شمس، ولا تحزن عند غروبها... ويا لتعاسة القلوب الغافلة على الأرض تطرح أسرارًا إلهيّة لا حصر لها لمن له عين وبصيرة... إنّ الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصيرة... بالحزن يتقدّس الانسان، ويُعدّ نفسه للفرح الإلهيّ، لم يعد يبالي بما كان ولا بما هو كائن، ولا بما سوف يكون.

ويخلُص د. عبد الغني لنتيجة وهي أنّ نجيب محفوظ ليس متصوّفًا فقط، وإنّما هو عاشَ للتصوّف، لم يغرق في غيبوبة الفكر الصوفيّ المجرّد، وإنّما سعى إلى الوجه الإيجابيّ فيه.

التصوّف عند نجيب محفوظ رؤية أو موقف يمكن إجماله في نوعين من الرغبات: الرغبة في مزيد من الحبّ، ثمّ الرغبة في مزيد من المعرفة؛ وهاتان الرغبتان الحبّ والمعرفة تتصارعان داخل التكوين البشريّ؛ الرغبة في معرفة أوسع لله، والرغبة في حبّ أعمق له.

٦. الله تعالى في أدب نجيب محفوظ

ثمّة نقاط يجب التأكيد عليها قبل البدء. فممّا لا ريب فيه أنّ أحدًا لا يحقّ له الحكم على إيمان أيّ إنسان، كما أنّ طريقة إيمان الناس تتفاوت فمنهم من يؤمن بالتبعيّة ومنهم من يؤمن بالبديهة ومنهم من يدفع ثمنًا باهظًا لإيمانه.. ومنهم من لا يؤمن أصلاً. فليس المهمّ الإيمان السطحيّ بالله، وإنّما التمسّك بالأخلاق وقيم هذا الإيمان.

لنظرة نجيب محفوظ للدين وعلاقته بالله تعالى مراحل في حياته، كما يظهر في أعماله:

- أخطر رواياته **الشحّاذ**. وهي رواية تنبئ عن مدى العذاب الذي صادفه في رحلته الروحيّة... يتساءل فيها الكاتب هل القلب مجرّد مضخّة (التفسير الماديّ) أم هو وسيلة اتصال بالملأ الأعلى؟ كيف يحصل على اليقين في الصحراء حيث يتراءى له النور بلا غموض، ويشعر أنّه وجد ما يبحث عنه. لكنّ بهجة الضياء تزول وتأتي نهاية روايته في أكبر كلمة محزنة لكاتبها نجيب محفوظ في حياته: «إذا كنت تريدني حقًّا، فلم هجرتني؟».
- عامر وجدي الشخصيّة الرئيسيّة في **ميرامار** معلّق بين الإيمان والتردّد. فهو يبدأ الرواية بسورة الرحمن وينتهي بها، لكنّه يضرع إلى ربّه في أن يحلّ له مشكلة العقيدة

لقد ضللت طريقي وهمت على وجهي أفتّش عنك أيّها السيّد، فأبحث عمّا لا أجد وأجد ما لا أبحث عنه.

قبل الموت، ويقول في وضوح «لقد تجلّى الله لأنبيائه ونحن أحوج منهم إلى هذا التجلّي».

■ **ليالي ألف ليلة:** مرحلة جديدة من مراحله. هنا يتضح عودة البندول للإيمان.. الشيخ الصوفيّ الذي لا يجزع ولا يفرح ولا يحزن ولا يهمّه سوى المعرفة. ورحلة السلطان إلى خلاصه بعد أن ترك سلطانه ليبحث عن اليقين ليجد ثغرة إلى عالم سحريّ جميل. لكنّه إذ يفتح الحجرة المحرّمة، يترك الجنّة ويعود إلى الشقاء وتنتهي الرواية مرّة أخرى بمقولة الشيخ الصوفيّ (من غيرة الحقّ أنّه لم يجعل لأحد إليه طريقًا، ولم يترك أحدًا ييأس من الوصول إليه. وترك الخلق في مجال التحيّر يركضون، فمن ظنّ أنّه واصل فاصله... ومن ظنّ أنّه فاصل تاه... فلا وصول ولا مهرب عنه ولا بدّ منه (أي الله)).

■ **رحلات ابن فطّومة:** الرحّالة المؤمن بالله وبالإسلام ولكنّه ساخط على سوء ممارسة ديار الإسلام للدين العظيم (حسب وصفه هو) ولحظة سماعه للآذان بعد غربة طويلة وفرحته بذلك (رمز قويّ له) ورفضه الجمود ومناداته بالاجتهاد. ولكنّه في نفس الوقت يبحث عن الكمال المطلق في دار الجبل التي وصلها الرحّالة، ولكنّه لم يترك أيّ مذكّرات عنها.

٥ | ٧. خلاصة

يخيّل للبعض أنّ نجيب محفوظ كان ناقمًا على الدين يعارضه ويهاجمه. والواقع أنّه كان ينقم على ممارسات المسؤولين وعلى بعض المؤسّسات التي افتقدت دعوتها ورسالتها الروحيّة واستحالت إلى شركة تحرص على مصالحها الخاصّة. أمّا الدين ذاته فقد كان من نوع آخر، بفلسفة مختلفة تلوح في كتاباته. وكان يدعو إلى عدم القنوط، لأنّ وراء هذا العالم قوّة هي كلّ عدل وسلام من الله.

كم من إنسان أجمع، وكلّ من عرفه، أنّه لم يتفوّه يومًا بلفظ جارح لمشاعر الغير، ولم يقم بعمل مؤذ لمخلوق؟! هذا هو نجيب محفوظ بشهادة كلّ من عاصره.

امتلك قدرة مذهلة على احتواء كلّ نقاط الضعف البشريّ، فاتّسعت دائرة صداقاته لتشمل كلّ نوعيّات البشر من أسماها إلى أدناها.

آمن بقيم الحريّة والديمقراطيّة والعدالة والمساواة إيمانًا حقيقيًّا، وليس كمجرّد شعارات مستهلكة.

اتّهموه بالكفر، وهو من جمع خلاصة الأديان جميعها في شخصه المتسامح المحبّ الخيّر الرحيم. من ينسى روحه المرحة ونكاته اللمّاحة وضحكته الرائقة المجلجلة التي لا تصدر إلاّ عن قلب صاف ونفس نقيّة؟!

هذا قليل من كثير يمكن أن يقال عن نجيب محفوظ.

ترك تراثًا أدبيًّا، احتلّ مكانة خالدة في التاريخ...

وترك آلاف القلوب التي تفرّقت في شتات الأرض، ولكنّها اجتمعت على التفاني في محبّته.

إنّ أبطال نجيب محفوظ لم يكن لديهم شكّ أبدًا في وجود الخالق تعالى، ولكنّ الطريق إليه (الدين) كان محطّ تساؤلاتهم باستمرار. وأظنّ أنّ الأمر له علاقة بشكل ما بثقافة البحث عن معجزة، وهو موضوع يطول الحديث فيه.

ونختم أخيرًا بمقولة لهذا الكاتب العظيم، وردت في رسالة كان قد أرسلها لمؤلّف كتاب «الإسلاميّة والروحيّة في أدب نجيب محفوظ» د. محمّد حسن عبدالله الصادر سنة ١٩٧٢، حيث قال: «ولعلّ الاضطراب الناشئ من قراءة أدبي أحيانًا مصدره أنّ قلبي يجمع بين التطلّع لله والإيمان بالعلم والإيثار للاشتراكيّة. ومحاولة الجمع بين الله والاشتراكيّة مثار للظنّ بالإلحاد عند قوم، وبالمحافظة عند الآخرين. وطالما عجبت أن تتخذ الفلسفة الشيوعيّة دينًا، إذ إنّني، بصفتي تلميذًا للفلسفة، أعلم أنّها أبنية تتجدّد مع تطوّر الزمن ولا تصلح للعبادة على الإطلاق».

.. وكأنّي بنجيب محفوظ يقول: لقد ضللت طريقي وهمت على وجهي أفتّش عنك أيّها السيّد، فأبحث عمّا لا أجد وأجد ما لا أبحث عنه.

ليبانوراما قَلميّة*

جورج مغامس

قال أمين نخله في كتابه: «ذاتُ العماد»: ويا ليت لي، الآنَ، أن أسألَ شيخَنا عبدالله البستاني عمّا عنده في اسم بلدنا، أَنلفظُه بكسر أوّلِه- لِبنان- جريًا على الأصل في العبرانيّة والسريانيّة، وموافقةً للنقل إلى اليونانيّة واللاتينيّة، وهو ما صنعه القلقشنديّ، أم بضمِّه- لُبنان-، وهو ما ذكرَه الجوهريّ وابنُ منظور والرازي والفيروزباديّ والبَكريّ والمرتضى الزبيديّ وياقوتُ الحمَويّ وابنُ فضل اللهِ العُمَريّ؟

يُستفادُ من هذا القولِ الجامعِ كم هو اسمُ لبنانَ ضاربٌ في عمق التاريخ؛ فتردَّد أيضًا في الكتاباتِ المسماريّة والهيروغليفيّة والآشوريّة؛ بل سبقَ اسمَ فينيقيا بزمن بعيد، على ما في نصوص من المؤرّخ البيروتيّ الفينيقيّ سِنكونياتّون.

فهو اسمٌ هو هو منذ أن كان، لم يَشُبْهُ تعديلٌ أو تبديل، فلا حالَ ولا زال ولن..، لأَنَّ «لبنان أحد الجبال السبعة التي تحملُ العرشَ يومَ القيامة» -يُروى عن كعب الأحبار.

«أُنظرْ، فما أدركَ بصرُك فهو مقدّس»- قال اللهُ لابراهيم.

هذا المقدّسُ: جبلُ لبنان، لم يَفُقْ ذكرَه في العهد القديم من الكتاب إلاّ ذكرُ الله؛ فإذا هو مذكورٌ ٧١ مرّة، والأرز ٧٤ مرّة، وصور ٥٨ مرّة، وصيدا ٣٥ مرّة، والصيدونيّون ١٤ مرّة. وإنّه لَذكرٌ يَعبقُ بالأنوار والأطيار والأزهار وآيات المجد؛ إلاّ حين جَعلتْ صورُ قلبَها كقلب إله، فقال السيّد الربّ في سِفر حزقيال: أجلبُ عليكِ الغرباء، فيجرّدون سيوفَهم على بهجة حكمتِكِ ويدنّسون بهاءَكِ. وقد صَدقَ قَولُه.

وفي العهد الجديد من الكتاب، أتى يسوع أُولى آياته في قانا ساعةَ حوّلَ الماءَ خمرًا فأظهر مجدَه وآمن به تلاميذه. (يو ٢)؛ وأردفَها بأخرى في نواحي صور وصيدا، حين شفى ابنةَ الكنعانيّةِ المسترحمةِ المستغيثة من شيطانٍ يتخبّطُها تخبّطًا شديدًا، قائلاً لها: ما أعظمَ إيمانَك أيّتها المرأة، فَليكنْ لك ما تريدين. (متّى ١٥)

آهِ لو ندري كم هو شائعٌ «الكتابُ» في العالم، ومنذ متى وإلى متى، لنعلمَ كم هو اسمُ لبنانَ راسخٌ في وجدانِ الانسانيّة! وما صَدْحةُ يونس الابن: لبنان يا قطعة سما عالأرض تاني ما إلا، إلاّ صدىً لما رُوي من حديثٍ عن الرسولِ العربيّ: ولبنانُ جبلٌ من جبال الجنّة!!

❋❋❋

هذا اللبنان، ألا يَستحقُّ أن يكونَ على الشفاه والأقلام، كما في قطوفات رياض حنين، أدرجها تحت ٩ عناوين هي: في الكتاب المقدّس، في التراث العربيّ والعهود القديمة، على فم بنيه، بشهادة العرب، كما يراه الأجانب، على ألسنة العامّة، في عناوين الكتب، في أسماء الصحف، وفي الأساطير؟ أم هو حريٌّ به، وقد أوحى إلى لامارتين وشلي وريناn وبارس ونرفال وبنوا وشوقي وحافظ ابراهيم ومعروف الرصافي وأحمد الصافي النجفي وسواهم ما يَعِزُّ من روائع الكَلِم، أن يكونَ أوحى إلى بنيه بمثيلاتها وأكثر، انتخبها جميل جبر من ٦٩ منهم، هم روائعُ الأقلام، الذين اتّسع لهم سِفرُه الجليل، واستدعى طيّباتٍ أُخَر؟!

❋❋❋

هذا اللبنان، إنْ هو في الغالب المطلق إلاّ «جبل لبنان»، الذي حوله تمحورَ تاريخُ لبنانَ الحديث؛ فللجبلِ الدورُ الأوّلُ في نشأة الكيان السياسيّ اللبنانيّ- يقول جوزف أبو نهرا.

.. وكان أن انتظر اللبنانيّون حتّى ١ أيلول ١٩٢٠ لإعلان الجنرال غورو قيامَ دولةِ لبنانَ الكبير بإلحاق الأقضية الأربعة إليه: عكّار والبقاع والجنوب وبيروت، ليصبحوا أمام معادلة جديدة، هي معادلة الأكثريّتين: المسيحيّة والإسلاميّة،

❋ في مؤتمر: أين ذهب المجتمع.. اللبنانيّ؟ المواطنيّة بين الهويّة والعولمة- جامعة سيّدة اللويزة، ٢٩ و٣٠ و٣١ آذار ٢٠٠٧.

نشأت عنها، بعد تبادل قناعات وتبدّل قناعات، شبكةُ مصالحَ بين بورجوازيّتين: مسيحيّةٍ وإسلاميّة، أنتجتْ مجتمعًا سياسيًّا قائمًا على التوازن الطائفيّ، اهتزّ يومَ أُسقِط في يد «المارونيّة السياسيّة» وأُسقِطَ عليها عاملُ القضيّة الفلسطينيّة بأثقالِه السُنيّة، ويَهتزُّ اليوم بدفع مدِّ «الشيعيّة السياسيّة» واحتشادِ روافدِها ناصرةً مستنصرةً في جولةٍ من جولات تحدّياتها التاريخيّة؛ وإنّه لبنانَ لا ينقذُه إلاّ توازنُه!

فليس أن يكونَ لكلٍّ لبنانُه، أومن لبنانَ بعضُه، بل هو يكونُ لكلِّنا كلُّه أو لا يكون.

فكلُّ غلبةٍ في لبنانَ قاتلةٌ للبنان.

لقد بات لبنانُ أشبهَ بالأخوين الشقيقين السياميّين: اعتلالُ الواحدِ أو تعافيه من اعتلالِ الآخر أو تعافيه، فلا فوزَ إلاّ للاثنينِ معًا وبما أُوتوا جميعًا من وزناتٍ تُبذَلُ قلبًا لقلبٍ، لمجدِ روحهم الكليّة. ومن يصارعِ القدرَ يَكنْ كناطحٍ صخرةً..!

***

وقد صار لذلك كلِّه أدبيّاتٌ، فَشَتْ في غير فنٍّ من فنوننا القلميّة، وإنْ أقدمَ المزاجُ حينًا في منحىً أو أحجمَ حينًا آخرَ في منحىً آخر. فالمشتَركُ أعمُّ. وهو الأبقى. وبه لبنانُ يقوى على الزعازع.. ويدوم.

ولذلك طلعَ علينا فؤاد افرام البستاني، ذاتَ يوم، بتلفزيونيّاتٍ مدرسةً تُسمَعُ وتُروى، عنوانُها: لبنان الدايم، هي توأمُ: أوراق لبنانيّة ليوسف ابراهيم يزبك، وعادات وتقاليد لبنانيّة للحد خاطر، وما جمعه سلام الراسي عن ألسنة الناس من مرويّاتٍ فصيحةٍ فصاحةَ مارون عبّود في أحاديث القرية ووجوه وحكايات، والقرية اللبنانيّة حضارة في طريق الزوال لأنيس فريحه، وقلب لبنان لأمين الريحاني، ولبنان إن حكى لسعيد عقل... وزد وبارك من صنائع الأخوين رحباني منذ ما سبع ومخّول وحتّى ما أبعدَ من جسر القمر وجبال الصوّان...

ولعلَّ كلَّ ما تَشِفُّ عنه أقلامُ هؤلاء وأمثالِهم كأمين نخله في المفكّرة الريفيّة ورياض معلوف في صور قرويّة والياس أبو شبكة في الألحان، من حالات وأحوال وقيم، إنّما هو الذي حاول شارل مالك أن يظهّره في كتابه «لبنان في ذاته»،حين رآه غيرَ غيره بخصائصَ عشرِ بَسطَ الكلامَ في معانيها، وهي: الجبل الفريدَ- القرية الفذّة- المركز السياحيّ الممتاز- التجارة العالميّة العجيبة- ظاهرة الاغتراب- التواجد المسيحيّ الإسلاميّ السمح- الانفتاح على العالم- معنى لبنان الفكريّ- إسهام لبنان في المعترك الدوليّ.

ولأنّ مالك «يعرف أنّ عناصر القوّة والبقاء في لبنان أمضى بكثير من أسباب الوهن والفناء»، فإنّه يدعونا أن نفتّشَ عن أعمق ما في تراثنا من قيم عرفنا وجرّبنا، وهي ٦: الحقيقة، العقل، الانسان، الحريّة، المحبّة، الله. وهل إلاّ هذه ما يَتمرأى في العديد من آثار كتّابنا كنعيمة وجبران والريحاني وأنطون سعاده وكمال الحاج وميشال شيحا وشارل قرم ورينيه حبشي وخليل رامز سركيس...؟!

أمّا هؤلاء الكتّاب، وقد تتلمذوا على طبيعة بلادهم أوّلاً، فإذا هي- كما يقول صلاح لبكي في لبنان الشاعر- تُغدق وتَشعُّ وتلوّن، وهم يبثّون ويَفزعون إليها ويحنّون ويعبدون، فترتفعُ القلوبُ أنغامًا وتنطلقُ العقولُ استنطاقًا عن المكنونات والبواعث والعلل...

أمّا هؤلاءِ فإنّهم نهضوا على أرض رَفعَها روّادُ نهضتِنا كالشدياق والبستانيَّين بطرس وسليمان واليازجيّ ابراهيم وصرّوف والشميّل وفرح أنطون...، من استخلص عصام محفوظ منهم، في كتابه: حوار مع روّاد النهضة العربيّة، ٩ جوامعَ بينهم، هي: الدفاع عن حريّة الرأي والمعتقد- تماهي صورة اللغة مع صورة الوطن (اللغة- الوطن)- إطلاق مفهوم العروبة كقوميّة علمانيّة لا دينيّة ولا عصبيّة- مناهضة الطائفيّة- التعامل مع التراثين المسيحيّ والإسلاميّ على أنّه تراثهم الواحد- قيامهم بدور جسر من الحوار بين الشرق والغرب- تشاركهم في خلفيّة ثقافيّة واحدة: مبادئ الثورة الفرنسيّة- الايمان بلبنان ملتقى الحضارات- جعلهم من بيروت مركزًا لكلّ حركات التجديد العربيّة.

***

لا. إنّ لبنان ليس خطأً تاريخيًّا. بل إنّ شعبَه هو نورُ التاريخ، كما يقول المؤرّخُ الفرنسيّ جورج لوفيفر. وقد رأى لامارتين أنّ في لبنان شعبًا، فيما في ما عداه من هذا الشرق حكّامٌ. وإنّ إلى الشعب المآلَ في كلِّ حال. فهو الثابتُ، وما دونَه متحوّلٌ. ولا مِلحَ يملحُ في هذا الشرق إلاّ من هذا الثابت: شعبِ لبنان، في هذا الراسخ: جبل لبنان!

بلى، يقرّر محفوظ: لقد كان على مثقّفي أصغر رقعةٍ عربيّة أن يقوموا بأخطرِ دورٍ عربيّ: الإصلاح.

فإذا كان من خطأ تاريخيّ بالتّالي، فهو ذاك الذي ارتكبه العربُ على الجُملة بحقّ لبنان، يوم أتاحوا، بالتدخّل أو بالتخلّي، أن يكونَ أُكلاً

جورج مغامس

.. دائماً على خطّ التّماس بين الجمعة العظيمة وأحد القيامة

للنار، فإذا النارُ من ثَمّ في بيوتِهم أو على أبوابها، فصحَّ وصفُ مترنيخ للبنان بأنّه بلد صغير في منتهى الأهميّة لحماية السلام في المنطقة. ولكنْ، من يعيد لنا عقاربَ الساعةِ إلى الوراء؟!

فَلْنتعلّمَنَّ أنّ من يتلاعبُ بالتاريخ لا بدّ أن يصبحَ ألعوبةَ التاريخ.

***

ويَعنينا، نحن اللبنانيين والعربَ معًا، أن نُصغيَ إلى صوت الأقلام النبويّة عندنا كمثل توفيق يوسف عوّاد في «طواحين بيروت»، التي قال فيها باتريك سيل: قبل أيّ واحد من الصحافيين والسياسيين والمحلّلين، قبل أيّ واحد من ممتهني قراءة المستقبل، أدرك عوّاد، بحدسه الفنيّ والوطنيّ، أنّ شيئًا سينهار، وأنّ المجتمع اللبنانيّ- مجتمعَه- يتداعى للسقوط... فهو تنبّأ عن الكارثة بصوتٍ صارخ... فإذا «الطواحين» ملحمة الجيل في لبنان والبلدان العربيّة تجاه قضاياه المصيريّة في العقيدة والسياسة والجنس.

الرجل، كما يقول أنسي الحاج، «كتبَ لجيل اليوم وعن جيل اليوم روايةَ اليوم»، فقدّم لنا وثيقة فنيّة رائعة عن لبنان ١٩٦٩- ١٩٧٠ لا تضاهيها وثيقةٌ إلاّ «الرغيف»، رغيفُه، عن الحرب العالميّة الأولى. وإنّ لنا ما بين الوثيقتين غيرَ سهم مضيء كصرخة ليلى بعلبكي «أنا أحيا»، أو مذكّرات «الحيّ اللاتينيّ» لسهيل ادريس، وخرمشة «قرف» لفؤاد كنعان...

فيا لَنحن ومجتمعاتِنا، نَنبسطُ أفصحَ من صبح، بكلِّ ما لنا وما علينا، في واقعنا ومرتجانا وخزين تراثِنا والقيم، ليس في أقاليم الفكر والشعرِ والقصّة فحسب، بل في المسرحِ أيضًا

وقد اختطّينا ألِفَه مع مارون نقّاش، وَدرَجْنا في أبجديّته إلى ناصيةٍ غرّاءَ ركزَ عليها عصام محفوظ «الزنزلخت» علامةً فارقةً فاصلةً بين مسرح مُعَمّم مُطَربش مُجَلببٍ ومسرح سافرٍ حرٍّ طلق، مسرحٍ مُصَنّمٍ بالقَصِّ والبديعِ والبيان وَمسرحٍ مسرحيٍّ ليس إلاّ... ثمّ انفتحَ لنا رتاجٌ عُلويٌّ رَحبانيٌّ فيروزيٌّ، مسرحًا وأغنيَات، إنْ هما إلاّ هذا التجاوبُ مع رغبةٍ شعبيّةٍ في تغيير الواقع، وإن بمجرّدِ الحلمِ بواقعٍ آخرَ قد لا يتحقّقُ في غير الفنّ.. وبمعجزةِ الحبّ (موسم العزّ- جسر القمر- الليل والقنديل- بيّاع الخواتم)، وإلاّ فلا سبيلَ إلاّ بالثورة (جبال الصوّان) وبالتهديد والإدانة (ناطورة المفاتيح- الشخص- صحّ النوم) وبكلّ ذاك التهكّم الفاضح طَيَّ سائرِ الأعمال، وفي موازاةِ طيب السَّرائر.

***

إنّا كنّا ولجنا حقًّا عتباتِ الصبح الجديد، وصرنا نَتقرّى ملامحَ إنسانِنا الجديد في ما صار يتبدّى من تحوّلاتٍ وجوديّةٍ وحضاريّة، ولاسيّما في مجتمعاتِ المدينة حيث موجُ الحياةِ متلاطم.

يشهد على ذلك ما في الصحافة من شواهدِ الأعلام تَوالوا وتباروا في المطارحات في حقول الدين والدولة والأخلاق والاجتماع، وما انطوتْ عليه من بيانِ العلل وسبلِ الإقالةِ من العِثار، سَعيًا إلى الإصلاحِ والتَّرقّي.

قادة رأي هم، بثّوا أنوارَهم في منازع الصحافة الجَمّة، فتكَوكبتْ وجهاتُ نظر واتّجاهَاتُ حِراكٍ، فكانت خُططٌ وخطوات، من جورج نقّاش وشارل حلو إلى الفؤادين حدّاد وسليمان إلى الصلحيّين كاظم ومنح وتقيّ الدين إلى سليم اللوزي وميشال أبو جوده وطلال سلمان وجوزف سماحه إلى التوينيّين

جبران وغسّان وجبران الشهيد..
ومَن قَبلُ ومَن بَعدُ، في سلسلةٍ ذهبيّةٍ لم يُرهِبْها عَسَفُ عَسَسِ الليلِ والنهار ولا سلطانُ سلاطينِهم.

فالتوينيُّ غسّان مثلاً، في رأي لطيف زيتونة، بَرز من مجموعته «منطق القوّة» إلى مجموعته «نزهة العقل» محاميًا عن الناس؛ عن حقّهم في الحياة والحريّة والخبز والعمل، عن حقّ أولادهم في دولة تفهمُ حاجاتِهم وتسايُرهم في التطلّع إلى التطوّر والتقدّم. وإنّه لمّا يزل ينافح ويكافح، متوجّهًا إلى القلب والعقل معًا بأسلوبٍ مقحام، زاوجَ فيه بين الصحافة والأدب في توازنٍ وتآلفٍ بين ثقافة الصحافيِّ والسياسيِّ والمفكّر ومواهبِ الأديب- على ما يشير فيكتور الكك.

ومَن مِن أدبائنا ومفكّرينا لم يتعمّدْ في جرن الصحافة، فغدت لسانَ الحال ومرآةَ الأحوال، بل بلّورة الاستقبالِ والإرسالِ في آنٍ، فإذا الوطنُ، في مخاضاته وولاداتِه، دائمًا على خطِّ التَّماس بين الجمعة العظيمة وأحد القيامة؛ حامض حلو.. شربات!

***

.. وبَعدُ، فمن زاعمٌ أنّه حاولَ فأصاب؟

لا. لم ندرك المقصدَ الوافي. وإنّما نقول: على مثل هذا تبدو ملامحُه.

إنّ أوّلَ المعرفة إقرارٌ بالجهل.

دور المجتمع المدنيّ في تطوير التواصل وترسيخ الأمان بين اللبنانيّين

د. نعيم سالم

منذ بدء الجماعات البشريّة مسار الاجتماع البشريّ كوّنته عوامل ثلاثة، بالتواتر أو بالتوازي. وهذه العوامل هي: عامل القوّة، عامل التجانس- التجانس العرقيّ أو الإيديولوجيّ/ العقائديّ- وعامل التكامل. والتكامل له عدّة أوجه أو درجات: أوّلها وأكثرها اندماجًا هو التزاوج أو العيش الواحد، وثانيها العيش المشترك، وثالثها التعايش أو التجاور الاجتماعيّ.

فيما يتعلّق بالعيش الواحد، والذي هو بمثابة التزاوج الاجتماعيّ بما يستولد من اندماج كلّيّ وتحابّ في السرّاء والضرّاء (in good and bad times) بالسلم وبالحرب، باجتياح أو بدون اجتياح، هذا الوجه ليس وجهنا في لبنان. في لبنان من الصعب لبطحاء مشتركة أن تتعرّف علينا جميعًا وتتحسّس أنّها تعرف وطأتنا الواحدة، كبطحاء المتنبّي، لأنّنا في لبنان لدينا بطاح متعدّدة، بطاح جمع بطحاء، ولكن، جمعٌ غالبًا لا يجمع. فلدينا بطحاء الضاحية التي يفتخر بها جزء من اللبنانيين وأكثريّة العرب والمسلمين، وبطحاء أخرى مقابلة لا بل مجابهة لها- بطحاء الطريق الجديدة المستجدّة- التي يتغنّى بها أكثر من نصف أهل بيروت اليوم تحدّيًا أو نكاية بالبطحاء الأولى، وبطحاء بعلبك وقبالتها بطحاء عرسال الناشئة، وبطاح الجنوب وعلى صدغها بطاح الشوف، وبطحاء الرابية ووراء أكمتها بطحاء بزمّار- بطاح ببطاح ببطاح.

لا يمكننا أن ندّعي إذًا أنّ العيش الواحد هو من شيمنا في لبنان على المستوى السياسيّ زائد المدنيّ زائد التطبيقيّ- العمليّ. دول مثل اليابان وألمانيا والسويد والنروج يتوفّر لديها هذا النوع من الترف الذي هو، بالنسبة إلينا، رفاهيّة بعيدة المنال.

أمّا فيما يتعلّق بالعيش المشترك، فهو ينعكس في إطار تلاحم وتعاضد وتوافق المواطنين على مفاهيم مشتركة تجمعهم، حيث يتشاركون من خلالها في عقد اجتماعيّ contract social، وعقد سياسيّ يربط المواطن بدولته وبشريكه الآخر في الوطن من خلال المواطنة citizenship التي تساوي أو يجب أن تساوي المواطنيخ كلّ المواطنيخ في الحقوق والواجبات والمعاملة السواء.

ممارسات نظامنا السياسيّ- وما أنتجه وينتجه منذ عقود، باستثناء عهد الرئيس فؤاد شهاب، من فساد سياسيّ وإداريّ وماليّ، مضاف إليها قوانين مدنيّة وقوانين أحوال شخصيّة، سبقت شهاب، متعدّدة ومختلفة بتعدّد الطوائف الثماني عشرة المعترف بها رسميًّا- تمثّل آفات من جهة وتباينات من جهة أخري تسقطنا من أسس نظام العيش المشترك الذي يجمع المواطنين من خلال عقد اجتماعيّ مرتكز على معاملة سواء بالحقوق والواجبات أمام القانون. في العرف السياسيّ وفي القانون المدنيّ وقوانين الأحوال الشخصيّة، نحن اللبنانيين غير متساوين أمام القانون. القوانين والممارسات السياسيّة ترسّخ انقساماتنا وتعمّقها.

أمّا الوجه الثالث والأخير في سلّم التكامل، فهو التعايش، والذي ينعكس غالبًا في تجاور اجتماعيّخ مناطقيّ؛ ولكن في نفس الوقت التجاور قد لا ينتج تفاعلاً اجتماعيًّا تكامليًّا وتطويريًّا. لا بل التجاور في ظلّ التباينات العرقيّة أو الدينيّة والطائفيّة والسلوكيّة، وفي ظلّ أنظمة وقوانين متمايزة أو تمييزيّة، قد يولّد شحنًا أو شعورًا بالغبن أو حتى الحقد ضدّ الآخر.

ممّا تقدّم، أدخل إلى حيثيّة المجتمع اللبنانيّ وإشكاليّات التعايش بين الفئات المختلفة والتي تحكم علاقاتها بعضها ببعض قوانين وممارسات النظام اللبنانيّ الطائفيّ سياسيًّا ومدنيًّا وحقوقيًّا. المنطلق الأساسيّ لإطار معالجات إشكاليّات المجتمع يجب أن يكون المواطن كإنسان، أي الإنسان أوّلاً. والمسؤول عن حماية وخدمة المواطن هي الدولة، دولة كلّ المواطنين بالتساوي وبالشفافيّة، لا بالمكر السياسيّ والمخادعة بين الأفرقاء أو الإستقواء بالخارج على قاعدة الغاية تبرّر الوسيلة من أجل تحقيق مصالح فئويّة ضيقة أو أهداف مبيّتة. والدولة، في الميادين جميعها، يجب أن تطبِّق وتعكس المساواة في كلّ قوانينها، خاصّة القوانين المدنيّة.

الانسان غاية بحدّ ذاته والدولة هي لخدمة المواطن والارتقاء به من خلال تأمين حقوقه الإنسانيّة. إلى جانب الدولة، الديانات هي أيضًا لخدمة الإنسان والارتقاء به روحيًّا، وليس الإنسان لخدمة الدين. الانسان، حيث يستطيع، يجب أن يكون في خدمة أخيه الانسان، وهذه ماهيّة رسالة الأديان عامّة في المجتمع. الله عزّ وجلّ، خالق السماوات والأرض، الله العليّ العظيم، لا يحتاجنا نحن معشر البشر. نحن البشر نشكّل ذرّات متناهية الصغر في سياق الكون والسماوات والكواكب وما بها وما عليها. نحن بحاجة إلى الله، وليس الله بحاجة إلينا. الأديان للهداية والارتقاء بالنفس البشريّة، وأفضل ألاّ تُقحم في السياسة، خاصّة في المجتمعات التعدديّة. الدين والسياسة يجب أن يكونا خطّين متوازيين يكمّلان بعضهما البعض الآخر، ولكن لا يقرّران كلّ شؤون الحيّز الآخر. هذه مسألة جدًّا حسّاسة، خاصّةً في المجتمعات التعدّديّة حيث إقحام الدين، وبالذات الطائفيّة، في السياسة، يمكن أن يفجّر المجتمع. وما لبنان إلاّ شاهد متكرّر ومترنّح على هذا الاقحام.

إذًا، الدولة هي الإطار الذي فيه ومن خلاله ينمو المواطن ويتقدّم ويتطوّر، وقوانينها تضمن له حقوقه. ولكنّ القوانين التي تضمن الحقوق قد لا تلبّي حاجات ومطامح وهواجس المواطنين. وهذا ما نراه في الدول الديمقراطيّة، وحتى الأكثر ديمقراطيّة في العالم. لذا لجأ المواطنون في الدول الممأسسة أو الديمقراطيّة إلى أبعد من المؤسّسات الرسميّة لتحقيق مطامحهم ومعالجة هواجسهم وتجسيد قيمهم الاجتماعيّة. لجأوا إلى منظّمات المجتمع المدنيّ، التي من خلالها سعوا إلى تسويق وتحقيق أهداف وهواجس مشتركة ومحدّدة تهمّ أعضاءها في الميادين الاجتماعيّة والثقافيّة والبيئيّة والصحيّة والنقابيّة وحقوق الإنسان عامّة.

منظّمات المجتمع المدنيّ هي التي بأهدافها وممارساتها تعمل للصالح العامّ على امتداد الوطن، وإن لم تكن فعليًّا، لأسباب ماديّة أو غيرها، تشمله كلّه. منظّمات المجتمع المدنيّ هي تلك التي تمتدّ عبر، أو تسعى أن تتخطّى، الحدود المناطقيّة والطائفيّة والعشائريّة. العلاقة فيها تعاقديّة، وتتطلّب الصهر والانصهار على مستوى الوطن أو الخدمة على مستوى الوطن، كلّ الوطن، كمنظّمات فرح العطاء و Green Peace والصليب الأحمر، أو جهاد البناء عندما تشمل كلّ الوطن، أو مؤسّسة الحريري عندما تشمل غير السنّة (والإثنتان تركّزان بشكل رئيسيّ على طائفتيهما، ولكنّ الأولى توسّعت لتصبح أكثر شمولاً للبنانيين من غير الشيعة، بينما الثانية انكفأت لتصبح أكثر سنيّةً اليوم مقارنةً مع أيّام الرئيس الراحل رفيق الحريري)، وغيرها وغيرها من المنظّمات، التي قد تتخطّى أيضًا حدود الوطن. وأودّ هنا، ومن أجل إزالة بعض اللغط على المستوى الأعلاميّ وحتى الأكاديميّ، أن أميز بين المجتمع المدنيّ والمجتمع الأهليّ.

المجتمع المدنيّ كما ذكرت سابقًا هو الذي يعمل للصالح المدنيّ العامّ من دون تمييز. أمّا المجتمع الأهليّ فهو الذي تكون فيه العلاقة الانتمائيّة إمّا للصالح الخاصّ أو على مستوى العشيرة والعائلة أو الضيعة والمنطقة والطائفة. مثلاً، جمعيّة إنماء العرقوب، أو جمعيّة الحفاظ على أرز تنّورين، أو جمعيّة السيّدة-صغبين، أو رابطة آل زغيب جبيل-كسروان، أو رابطة آل زعيتر وآل كيروز وآل زين الدين... وآلاف غيرها في هذه الخانة من الجمعيّات إنّما هي جمعيّات أهليّة. ولاءات واهتمامات الجمعيّات الأهليّة هي بالمجمل ما دون وطنيّة -sub national.

بناءً على تحديدنا أعلاه، الأكثريّة الساحقة من الجمعيّات في لبنان تُصنّف في خانة الجمعيّات الأهليّة. أمّا الجمعيّات المدنيّة فتشكّل نسبة صغيرة من المجموع. من هنا أحد مظاهر تمييز دول العالم المتقدّم كدول أوروبا وأميركا أو ما يُسمّى بالعالم الأوّل من جهة، من الدول قيد

النموّ أو في طور النموّ أو ما يُعرف بدول العالم الثالث من جهة أخرى، يمكن أن نلاحظها من خلال رصد لقاءات قادتها على المستوى المحليّ. فعندما ننظر في فقرة «إستقبل وودّع» لرئيس الجمهوريّة أو رئيس مجلس الوزراء عندنا، فإنّنا نجد أنّ نسبة شبه يوميّة، وأحيانًا عالية، من المستقبَلين (بفتح الباء) إمّا تكون من عائلة فلان أو فلانة أو من أبناء الطريق أو الناحية الفلانيّة (أي مجتمع أهليّ). بينما استقبالات رؤساء كلّ الدول الديمقراطيّة حقًّا أو حتى الشيوعيّة فإنّها تشمل، إضافةً إلى الرسميين والسياسيين، وبشكل دوريّ، ممثّلين عن المجتمع المدنيّ، وليس ممثّلين عن المجتمع الأهليّ كعائلات Smith أو Jones أو حتى عائلات وطنيّة ورئاسية كـ Blair أوChirac.

بحكم جذبها لمواطنين من خلفيّات عرقيّة ودينيّة وطائفيّة ومناطقيّة وطبقيّة مختلفة، تجمعهم قواسم وحدة هدف أو أهداف اجتماعيّة معيّنة، تساهم الجمعيّات المدنيّة بوصل المواطنين بعضهم بالبعض الآخر من خلال التشارك. التشارك يؤدّي إلى التواصل والتقارب والانسجام والتصادق والتعاون. أهمّ ما تمخّضت عنه مؤسّسات المجتمع المدنيّ على مجتمعاتها المدنيّة هو تطوير الأطر التي أدّت وتؤدّي إلى التشارك فيما بين المواطنين المتقاربين في الهواجس والمثل والأهداف. مفهوم التشاركيّة association الذي يشكّل سمة هيئات المجتمع المدنيّ ساهم ويساهم في تقريب ذات البين بين مواطنين مختلفي المشارب الدينيّة أو السياسيّة ليس من باب السياسة، بل من خلال قواسم الحدّ الأدنى القابلة للتوسّع لاحقًا إلى مجال السياسة والانتماء الوطنيّ المشترك. وهنا يمكننا أن نشمل مع منظّمات المجتمع المدنيّ الأحزاب التي فعلاً وحقًّا تسعى أن تتواصل مع وتساوى بين مواطني كلّ الوطن دونما تمييز لا بالظاهر ولا بالباطن ولا من خلال الـ code words أو التلميح أو الايحاء. وهكذا، التشاركيّة تجعل من المواطن الآخر أخًا بالتشارك وبالتالي بالانتماء.

في لبنان والمجتمعات العربيّة عامّة، الاستعمار زرع مشاكل هيكليّة وبنيويّة وجذّرها؛ والسياسة قيّدت أو خنقت هذه المجتمعات تقريبًا من دون استثناء؛ والطائفيّة أو الاثنيّة فجّرت أو تكاد تفجّر أكثر من دولة، ومنها لبنان، من الداخل؛ والأصوليّة ظهرت من بين الأشلاء لتبشّر بالعودة إلى الأصول والأحاديّة الدينيّة- السياسيّة. وفي خضّم كلّ ذلك، الحريّة والديمقراطيّة وُئدتا، والديكتاتوريّة والطائفيّة إستشرتا.

الحريّة التي طالما تغنّينا بها في لبنان لم تؤدّ بنا إلى حلّ إشكاليّاتنا السياسيّة المستعصية. كما يقول الرئيس سليم الحص: في لبنان لدينا الكثير من الحريّة والقليل من الديمقراطيّة. الديمقراطيّة تعني بما تعنيه أنّها تعطي المواطن القدرة على التأثير والتغيير، شريطة أن تعمل المؤسّسات كما يُفترض أن تعمل، حسب الدستور والقوانين الناظمة. هنا تكمن الحلقة المفتقدة في نظامنا، وهذا ما يؤدّي إلى زيادة الشرخ والتأزّم بين الفئات السياسيّة والاجتماعيّة نتيجة التعثّر في أداء المؤسّسات.

الحركيّة التي يطلقها المجتمع المدنيّ بين شرائح المواطنين المتمايزة تؤدّي إلى اكتشاف المواطن الآخر ومعاملته كشريك وأخ في الانسانيّة رغم أنّه مختلف عنّي. إذا كان دور الدولة أن توفّر الأمن داخل المجتمع، فالمجتمع المدنيّ يوفّر ويوسّع الأمان، ليس من خلال العصبيّة الطائفيّة أو الدينيّة أو العنصريّة، والتي كلّها تعكس فشلاً سياسيًّا ووطنيًّا بنيويًّا، بل من خلال التواصل والتعاضد والتفاهم بين شركاء الوطن، والذين، من منحى الشراكة والاعتراف بحقوق الآخر، يصلون إلى المواطنيّة الجامعة. وهنا بيت القصيد الذى طالما سعينا إليه، والذي نأمل في أن نصل إليه قبل أن نصرخ بصدىً كرّرناه، وإن لم نكن تاريخيًّا قد ابتدعناه: وامعتصماه! أو أن يلجأ كلّ فريق منّا إلى أجنبيٍّ ويستجلبه على هواه، بعد أن يكون قد استنفد نفسه ووطنه، إمّا واسعوديّتاه، أو وإيراناه، أو مجدّدًا واسورياه، أو وأمريكاه التي حبّذا لو وزنت وزناتنا لتعطينا حقّنا وتسترجع لنا أرضنا من حليفتها إسرائيل، بدل أن تزن بنا وتزن علينا في سياق مشاريعها الشرق أوسطيّة القديمة- الجديدة. وكلّ تلك الحكومات والدول القريبة والبعيدة لن تكون بالنهاية أدرى بشعابنا (على الأقلّ من المتنوّرين والوسطيين بيننا)، أو أرحم بنا بعضنا من بعض.

الديموقراطيّة المتعثّرة والاقتصاد المهمل

د. لويس حبيقة

الديموقراطيّة في لبنان متعثّرة، ليس فقط بسبب سوء الممارسة، وإنّما أيضًا بسبب بعض النصوص القانونيّة الغامضة التي وضعت في أوقات مختلفة ولم يجر تطويرها وتحديثها. التعديلات الدستوريّة الوحيدة التي جرت منذ اتفاق الطائف، وجميعها لمرّة واحدة، كانت خاصّة أي أمّنت وصول أو استمرار أشخاص في الحكم. المؤسّسات معطّلة في لبنان بدأ من رئاسة الجمهوريّة إلى الحكومة والمجلس النيابيّ وبالتالي رئاستيهما. المؤسّسات السياسيّة والقضائيّة والاقتصاديّة والتعليميّة الرسميّة تعمل دون المستوى المطلوب ودون الجدوى المنتظرة. نضيع في لبنان اليوم بين أكثريّة نيابيّة لا تستطيع أن تحكم وأقليّة تتمكّن من عرقلة مسيرة الحكومة. من يهتمّ في لبنان اليوم بالتعليم والبيئة والصحّة والفقر ومحاربة الفساد وتطوير الانتاجيّة القطاعيّة؟ من يهتمّ في لبنان اليوم بتحقيق التنمية في المناطق وفي أحزمة البؤس في المدن؟ لماذا نتأخّر في الانضمام إلى منظّمة التجارة العالميّة بعد أن سبقتنا ١٥٠ دولة إليها؟ من يحقّ له إهمال مصالح المواطن لتحقيق انتصار سياسيّ لا يستفيد منه إلاّ السياسيّون أنفسهم؟

المعروف أنّ التنمية تعني تحقيق انتقال نوعيّ في المجتمع، أي تغيير في التفكير والعقليّة وفي طرق معالجة القضايا الانسانيّة والاجتماعيّة الرئيسيّة. التنمية هي أكثر من ارتفاع في الناتج المحليّ الفرديّ، بل تعني تطوّر المجتمع باتجاه الديموقراطيّة والحريّة واحترام حقوق الانسان الاجتماعيّة. نعيش اليوم في عالم ينمو، لكن يزيد فيه سوء توزّع الثروة والدخل، ليس فقط ضمن الدول، وإنّما أيضًا فيما بينها. يبلغ الناتج الفرديّ الأميركيّ مثلاً ١٥ مرّة الناتج الفرديّ الآسيويّ الجنوبيّ أو الأفريقيّ. يسبّب هذا الفارق الانتاجيّ فجوة ضخمة في المستوى المعيشيّ والرفاهيّة الاجتماعيّة. وفيما زاد عدد سكّان العالم في مرحلة ١٩٦٠/٢٠٠٠ بنسبة سنويّة قدرها ١,٧٪، فإنّ الانتاج العالميّ زاد بنسبة سنويّة قدرها ٤٪. هذا يعني أنّ الإنتاج الفرديّ ارتفع سنويًّا بنسبة ٢,٣٪. وهذا جيّد. تكمن المشكلة ليس في مستوى الإنتاج، وإنّما في سوء توزّعه بين الميسورين والفقراء، وهذا ما يجب أن تتنبّه له كلّ حكومة مسؤولة في العالم. فهل تهتمّ حكومتنا اليوم بشؤون الفقراء اللبنانيين، وتسعى جديًّا إلى تخفيف أوجاعهم بكلّ شفافية وفعاليّة؟

لما يجري اليوم في لبنان أبعادٌ تتعدّى المرحلة الحاليّة لتؤثّر على الأداء الديموقراطيّ المستقبليّ. لا يمكن لأيّ نصوص دستوريّة أو قانونيّة عامّة أن تحمي لبنان من الكباش السياسيّ الذي نعيشه اليوم. لا يمكن لأيّ نصوص، مهما حُدّثت وطوّرت، أن تحمي الديموقراطيّة من الابتزاز والاعتداء، في غياب ثقافة الحريّات واحترام حقوق الغير. الديموقراطيّة التوافقيّة التي يتكلّم عليها بعض السياسيين، وهي أن تكون الحكومة مرآة للقوى في المجلس النيابيّ، هي غير منطقيّة، بل غير قابلة للحياة. هنالك أكثريّة نيابيّة، أيًّا كانت، يجب أن تحكم. وهنالك أقليّة أيًّا كانت يجب أن تعارض وتحاسب وتناقش وتسعى للفوز في الانتخابات النيابيّة المقبلة. الجانبان السياسيّان الحاليّان لا يؤدّيان للأسف المهامّ المطلوبة منهما، في ديموقراطيّة تنافسيّة طبيعيّة حضاريّة ومنطقيّة.

الديموقراطيّة التوافقيّة التي يتكلّمون عليها اليوم تعني عمليًّا تثبيت فديراليّة الطوائف. فهي غير طبيعيّة وغير قابلة للحياة، وضدّ مصلحة اللبنانيين على المدى الطويل. ما يجري في لبنان اليوم يمكن أن يعطّل مستقبل الديموقراطيّة في النصوص والممارسة. لا يمكننا أن نخترع في لبنان القواعد الديموقراطيّة التي تمارس منذ قرون في العديد من الدول. علينا أن نعود إلى تجاربنا السابقة الناجحة وتجارب الغير في الغرب والشرق، ونمارسها ضمن المنطق والعقل. ما يجري في لبنان اليوم هو ليس فقط تعثّرًا ديموقراطيًّا، وإنّما جنون يقلب المنطق ويرتكز على قواعد لا تمتّ إلى العقل بصلة. ما يجري على الأرض الواقعيّة السياسيّة يلحق الخسائر الكبرى، ليس فقط بالاقتصاد، وإنّما بكلّ جوانب وركائز الدولة.

ما هي النتائج الاقتصاديّة للديموقراطيّة المتعثّرة؟ طبعًا اقتصاد مهمل في قطاعاته، إذ كيف يمكن لاقتصاد أن ينمو في غياب المؤسّسات العامّة وفي وجود مؤشّرات سياسيّة ظاهرة تزيد من قلق المواطن على مستقبله. من يهتمّ في لبنان اليوم بمطالب الصناعيّ والمزارع والتاجر وصاحب الفندق والمطعم وغيرهم؟ من يهتمّ بأبسط حقوق المواطن، وهي حريّته ومعيشته؟ يحتاج لبنان إلى الاستثمارات الجديدة التي لن تأتي في هذه الأجواء السياسيّة القاتمة. يحتاج لبنان إلى موسم سياحيّ زاهر حتى لا ينهار أهمّ القطاعات الاقتصاديّة. يجب أن يتعافى الاقتصاد اللبنانيّ بسرعة، قبل أن نخسر المزيد من الشباب والشابّات الذين يهاجرون للعمل والعيش الهادئ والكريم. ما الذي يمنع لبنان مثلاً من إعطاء نتائج باهرة كالتي ميّزت تايوان الصينيّة، بالرّغم من وجودها في منطقة لا تقلّ خطورة وحساسيّة عن منطقة الشرق الأوسط؟

تايوان هي «الجزيرة الجميلة» كما سمّاها البرتغاليّون منذ حوالى ٤٥٠ سنة. لم تكتف بجمالها بل حقّقت معجزات اقتصاديّة كبرى. مساحتها فقط حوالى ٣٦ ألف كيلومتر مربّع، وعدد سكّانها ٢٣ مليون نسمة. يتعدّى الناتج المحليّ الإجماليّ مستوى ٣٠٠ مليار دولار، أي في المرتبة ٢٣ دوليًّا. يبلغ حجم الاحتياطيّ النقديّ حوالى ٢٥٠ مليار دولار أو الثالث عالميًّا. حقّقت تايوان هذه القوّة الاقتصاديّة بفضل الانفتاح التجاريّ وحسن الأداء السياسيّ، بالرّغم من علاقاتها المتشنّجة مع الدولة الأمّ، أي الصين الشعبيّة. تعتبر تايوان الصينيّة دولة صغيرة نسبيًّا، وعلاقاتها بالصين ليست أفضل من علاقات لبنان مع جيرانه في الجغرافيا. بالرّغم من كلّ العوائق، نجحت تايوان في رفع المستوى المعيشيّ لشعبها الصينيّ. ارتكزت على التعليم لرفع إنتاجيّة اليد العاملة وتعميم مفهوم احترام حريّة الانسان وحقوقه. حرّرت ونوّعت البرامج التعليميّة، تمامًا كما يفعل لبنان منذ عقود. ساهم التعليم في جعل الشباب التايوانيّ منفتحًا على الخارج وخلاّقًا وراغبًا في نسخ التجارب الخارجيّة الناجحة. أصبح في تايوان ١٦٠ جامعة ومعهد، ما انعكس انخفاضًا في المستوى الجامعيّ العامّ، تمامًا كما يحصل في لبنان منذ عقدين من الزمن مع وجود ٤٢ جامعة ومعهد، أي ما يفوق نسبيًّا المعدّل التايوانيّ. ماذا فعلت تايوان لمعالجة المستوى التعليميّ المنخفض؟

أوّلاً: ميّزت الدولة بين الجامعات والمعاهد تبعًا للمستوى التعليميّ ونوعيّة البحوث وبرامج التطوير. لا يمكن لأيّ مؤسّسة تعليميّة أن تسمّي نفسها جامعة، إذا لم يكن لها برامج بحوث متطوّرة في قطاعات متعدّدة. ساهمت الدولة في تمويل الجامعات «الباحثة»، وقدّمت لها كلّ الدعم الماديّ والانسانيّ المطلوب.

ثانيًا: شجّعت الدولة المؤسّسات التعليميّة المدعومة على التعاون أكثر مع القطاع الخاصّ بحيث يكون التواصل لمصلحة الفريقين. هذا مهمّ للتأكّد من أنّ من تخرّجه جامعاتنا مطلوب من القطاع الخاصّ. لا يمكن للجامعات أن تخرّج عاطلين عن العمل. هذا غير أنسانيّ ومرفوض.

في الثمانينات أخذت تايوان منحى اقتصاديًّا مختلفًا، فطوّرت الصناعات ذات التكنولوجيا المرتفعة ونجحت فيها. حاربت الحكومات التايوانيّة الفساد الذي يعيق عمل الأسواق، ويضرب سلطة القانون، ويسيء إلى هيبة الدولة، ويمنع تحقيق التنمية العادلة. باختصار، لم تلته تايوان في تعطيل اقتصادها لمناقشة فوائد ومساوئ ثلث حكوميّ ضامن أو معطّل أو مشارك، بل ثابر الجميع، بدءًا من السياسيين إلى المواطنين العاديين، على العمل الجادّ لمصلحة الدولة والاقتصاد والمستقبل. كي يتعافى الاقتصاد اللبنانيّ، يجب أن يعود اهتمام المؤسّسات الرسميّة إلى تأمين مصالح المواطن وتطوير القوانين وتسهيل أعمال القطاع الخاصّ تشجيعًا للاستثمارات وتحقيقًا للنموّ. فهل نتّعظ جميعًا من التجربة التايوانيّة الرائدة؟

المسنّون.. الاهتمامُ بهم حقٌّ لهم

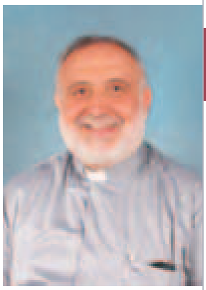

○ | الأب بولس وهبه

إنّ رقيّ مجتمع ما يقاس بكيفيّة تصنيفه لما يعتبره ضعيفًا، وبما هو متاح ومتوفّر له. ففي مجتمعنا اللبنانيّ خاصّة والشرقيّ عامّة، يصنّف الولد أو القاصر والمعوَّق والمرأة والمسنّ في هذه الخانة، بحيث نجد أنّ تركيبتنا الفكريّة وأنماط سلوكنا تضع هؤلاء في خانات هامشيّة، وكأنّ لمجتمعنا نظرةً إلى «الانسان» من حيث هو فاعل وفعّال لا تأخذ في الحسبان هذه الفئات التي ينظر إليها كثيرون على أنّها إمّا ضعيفة أو هي عالةٌ عليه. لذا نجد مجتمعاتنا تميّز ضدّ هذه الشرائع وتقصيها عن لعب أدوار فاعلة فيها.

فالمرأة هي «الجنس الضعيف» (وقد تستعمل عبارة «الجنس اللطيف» للتلطيف)، والولد كائن ناقص (كما هي الحال عند الكثيرين في معاملتهم للمرأة)، لا يحقّ لهما إبداء الرأي ولا المشاركة في أخذ القرارات، يُفكَّر عنهما ويُخضعان لمقرّرات توصّل إليها الذكور والكبار بمعزل عنهما؛ وهذا واضح في أبسط أمور الحياة اليوميّة، كما في الحياة السياسيّة والوظيفيّة. فنحن بالكاد نرى النساء، أي نصف المجتمع، فاعلات بما يتلاءم مع حجم وجودهنّ المجتمعيّ في مختلف ميادين الحياة؛ وحيث توجد هذه الفاعليّة بشكل جزئيّ، نراها مِنَّةً تعطى لهنّ. أمّا الأولاد فإنّ تنظيمنا المدنيّ، أو حتّى في القرى، لا يأخذ وجودهم في الحسبان، بحيث تخلو أحياؤنا من ملاعب ومكتبات وغيرها، تتوجّه لهم وتأخذ وجودهم على محمل الجدّ، فيما هم مقموعون في كثير من البيوت وفي معظم المدارس، فيتربّون على مفهوم أعوج للطاعة، وتتعطّل عقولهم من كثرة التلقّي وقلّة المشاركة، ويُقتل فيهم الحسّ الإبداعيّ والنقديّ فإذا هم يتحوّلون مع الوقت إلى أناس هامشيين يلتهون وراء المظاهر أو الهروب من المواجهة.

الحال هذه تنسحب على المعوّقين الذين يُعاملون وكأنّهم في حَجر دائم، مُبعدين عن متن الحياة، فنرى المدارس والجامعات والمؤسّسات والخدمات العامّة تستثنيهم، بدءًا من التجهيزات اللوجستيّة كالسلالم والطرقات، امتدادًا إلى تأمين ما يناسب أوضاعهم ومتطلّباتهم. هذا، ناهيك عن خجل الكثير من العائلات بهم، ونظرة السواد الأعظم من الناس لهم، بدءًا بقولهم لمن رُزق بمعوّق «هيدا من الله»، فيما يَنسبون حسن الأولاد الطبيعيين إلى ملامح ذويهم. أشير هنا إلى كتاب، هزّني كثيرًا اسمه «أنا

أحمد»، عن قصّة ولد بلغ الدراسة الجامعيّة وتخرّج إلى وظيفة قبل أن تداهمه المنيّة، بفضل حبّ أمّه، التي كنت، حين أسمعها تتكلّم عنه وعمّا غيّره فيها، أحسّ وكأنّني أصغي إلى صلاة.

هذا يبلغ بنا إلى المسنّ، الذي سمح الربّ بأن يصل إلى عمر متقدّم، هو تتويج لزمن من الكفاح والتعب مُغمّسَين بالكثير من التجارب والحكمة. نحن هنا بسببهم. وهم تعبوا لكي نهنأ نحن بما نحن فيه. ونحن يجب أن نهتمّ بهم، لأنّنا بذلك نُرجع بعضًا من كثير أودعوه فينا وغرسوه لكي يكبر فّي كياناتنا. المسنّ هو كالثلج الذي يكلّل الجبل ليعطيه وقاره ويُسبغ عليه حلاوة الزمان. نقرأ في العهد القديم من الكتاب المقدّس: «يا بنيّ أَعِن أباك في شيخوخته ولا تُحزِنه في حياته. كن مسامحًا وإن فقد رشده. ولا تُهِنْهُ وأنت في كلّ قوّتك» (يشوع بن سيراخ ٣: ١٢- ١٣)، و«من عظَّمَ أباه طالت أيّامه ومن أطاع الربّ أراح أمّه» (٣: ٦). وجود هؤلاء تتويج لمسيرة الحياة. ومن ينظرون إليهم بغير ذلك ينطبق عليهم قول سليمان الحكيم «إنّهم يُبصرون آخرة الحكيم ولا يفقهون ماذا أراد الربّ في شأنه، ولماذا جعله في أمان» (الحكمة ٤: ١٧). وممّا في سفر الأمثال: «إسمع لأبيك الذي ولدك، ولا تستهن بأمّك إذا شاخت» (أمثال ٢٣: ٢٢).

اهتمامنا بالمسنّين ليس منّة منّا أو من المجتمع، بل هو حقّ لهم. هو حقّ لهم، لأنّهم مواطنون بالدرجة الأولى، ولأنّهم علّة وجودنا بالدرجة الثانية، ولأنّهم لهم كرامة الانسان فوق كلّ شيء. المسنّ هو بركة لنا، وفيه يقول المثل اللبنانيّ «يلّي ما عندو كبير يشتري كبير». كلّ مسنّ هو أبي، وكلّ مسنّة هي أمّي، وأنا بحنوّي عليهم أُكرم أبي وأمّي وجدّتي وجدّي. تَضجّرُنا بالمسنّين يعكس في كثير من الأحيان تدنّي المستوى الخلقيّ، لا بل الأخلاقيّ عندنا. هذا يفضح فينا مستوى الوفاء الذي بدونه لا معنى لأيّة قيمة أخلاقيّة أو اجتماعيّة. وجود هذا التضجّر يشير إلى تعاظم الأنانيّة على حساب التضحية، وازدياد المفهوم المغلوط للفردانيّة من حيث هي احتساب للربح والخسارة. احتقارهم هو احتقار لجوهر إنسانيّتي أنا قبل أن يكون احتقارًا لإنسانيّتهم هم. تهميشهم واحتقارهم وسوء معاملتهم يشير إلى ما هو عاطلٌ فيّ، لا إلى تدنّي قيمتهم هم.

لذا، نرى دور العجزة تتكاثر والطلب عليها يزداد، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة وضع بعض المسنّين فيها لدواعي سفر الأولاد أو ضيق البيوت أو غيرها من العوامل الضاغطة. أذكر أنّي كنت وأبي نزور المرحومة أمّي، وقد لحق بها إلى دار البقاء بعد مماتها بأشهر قليلة، في مستشفى بالولايات المتحدة الأمريكيّة، (كانت زياراتنا يوميّة لمعظم ساعات النهار) أذكر أنّها أخبرتني عن جارة لها في غرفة مجاورة كيف بكت عندما قالت لها والدتي إنّ الزائرَين هما زوجها وابنها، لأنّ ابنها نادرًا ما يفتقدها بزيارة أو بمكالمة هاتفيّة، وهو البعيد عنها لناحية السكن مسافة أقلّ من ٢٠ دقيقة بالسيّارة!

أقول هذا لأشدّد، بالدرجة الأولى، أنّ مقدار اهتمامنا بالمسنّين، كأفراد وعائلات ومجتمع، يعكس مدى إنسانيّتنا ووفائنا. ولكن، إن وجّهنا الأمر لناحية المسنّين أنفسهم، أقول إنّ الاهتمام بالمسنّ من الناحية النفسيّة، أي من ناحية حضنهم واعتبارهم أعضاء فاعلين، لهم من الكرامة ما لدى أيّ إنسان في المجتمع، يجعلهم في سويّة من أمرهم، أي يُبقي فيهم الشعور بالارتياح والطمأنينة، ويزيد من إمكانيّة الاستفادة منهم ومن خبراتهم لكي يستمرّوا في العطاء وربّما في الإنتاج. كما أنّ الاهتمام بالمسنّين من الناحية الاجتماعيّة، أي لناحية اهتمام الدولة والبلديّات والجمعيّات وروابط العائلات وغيرها، يمكن أن يُحفّز الكثير منهم لمزاولة بعض الأعمال التي تتلاءم مع أوضاعهم، أو على الأقلّ تتيح لهم حيّزًا في الحياة اليوميّة يستطيعون فيه مزاولة بعض النشاطات الترفيهيّة وغيرها، مثل تأهيل الحدائق أو أماكن الترفيه أو الاختلاط، لكي تبقى لهم الكرامة موفورة كما كان متاحًا لهم في ريعان الشباب. إنّ الوقاية النفسيّة والاجتماعيّة للمسنّين هي مقياس لسموّ المجتمع ولسلّم الأوّلويّات فيه، ولرفعة أخلاق أبنائه. هذا، إضافة إلى أنّ الاهتمام بكلّ قطاعات العمر في المجتمع وبكلّ ما يحويه من شرائح، دليل على أنّ هذا المجتمع يتواصل مع تاريخه وتراثه، لا من الناحية الشكليّة أو الفولكلوريّة، بل لناحية الحفاظ على الأصالة فيه. كما أنّ إشراك الكلّ في دورة الحياة اليوميّة وفي كلّ ما يمتّ إلى الحياة بصلة هو دليل على مدى التآلف الجادّ والعميق لكلّ أفراد المجتمع وقطاعاته.

إنّ الوقاية في الطبّ، كما نعلم، هي أفضل من العلاج، بل إنّها تقي من علاج قد لا يعود بالنفع الكثير إن استفحل الداء. أنا لا أسمّي الاعتناء بالمسنّ، وبكلّ ما يصنّف ضعيفًا أو هامشيًّا وقاية. أسمّيه وفاء. ويجب أن لا ننسى أنّ كلاًّ منّا سيصبح، إن أمدّه الله بالعمر، مسنًّا، وأنّ دورة الحياة مكوّنة من قادر يساعد محتاجًا، كان يومًا قادرًا وساعد غيره من المحتاجين. «من أكرم أباه فإنّه يكفّر عن خطاياه، ومن عظّم أمّه فهو مَدَّخر الكنوز» (سفر الحكمة ٤: ١٧).

وقفاتٌ ومواقف
في وَقَفاتٌ.. وَمَواقِف دياب يونس

في الرابع من أيّار ٢٠٠٧، احتفت الجامعة بكتاب الدكتور دياب يونس: وقفات.. ومواقف، في الثقافة والسياسة والوطن، من منشوراتها، في ندوة قدّم لها الأستاذ سهيل مطر، وشارك فيها على التوالي: د. أمين أ. الريحاني والمطران جورج خضر والسيّد محمّد حسن الأمين والأستاذ منح الصلح ود. إلهام كلاّب البساط والأستاذ جوزف حرب والأستاذ جورج شكّور.

جاء في تقديم **مطر**:

دياب يونس ما كان يومًا إلاّ وقفة مارد أسمر، وما استراح يومًا إلاّ بعد موقف لا يساوم فيه ولا يهادن.

ما عرفته إلاّ الرجل - بألف لام مكبّرة Majiscule - يأخذ الدنيا غلابًا، ويستلّ حسامًا، كما يقول، حدّاه قلب ولسان؛ ويا لَطيب القلب السخيّ يوزّع الحبّ غلالاً! ويا لمرارة اللسان الأبيّ إن تفجّر غضبًا في وجه الظلم والفساد والوصوليّة!

هو الرجل المؤمن بأنّ اللا لا، وأنّ النعم نعم. وكم نحن بحاجة اليوم إلى هذه اللا الساطعة، يقذفها دياب يونس حممًا، وَلْيحترق بها حقدًا وحسدًا من يشوّهون صورة لبنان- الأدب والفكر والقانون.

ويلفتك في طيّات هذا القلم مخزون معرفة غنيّة، ومعالم ثقافة ثريّة، وطول باع في شؤون اللغة والأدب والاجتماع والشرع والسياسة والوطنيّة، ما يعزّز النصّ اليونسيّ ويميّزه بخصوصيّة الاكتفاء، والارتواء، ودقّة الاعتناء. حسبه معرفة ضاربة في جذور هذا الجبل، ودراية واسعة في مضارب الصحراء، وخبرة ثريّة في المدارس الأدبيّة والفكريّة الأوروبيّة وأعلامها.

ويلفتك في طيّات هذا القلم، لمح بليغ، وحرف نسيغ، وروح برّاقة، وشجاعة خلاّقة، وسبر عميق، وبثّ أنيق، وصقل عريق.

ويلفتك تبصّر في فنون الكلام، وإدراك في منعرجات الذهن البشريّ، حتّى إذا ما انكبّ على الكلمة تأليفًا وصياغة، سحرك بسحر ساحر.

ويلفتك ثراء هذا القلم لكونه عليمًا بمنازل الكلم، ضليعًا في مواقع الجمال، أليفًا لمواطن البلاغة، حصيفًا في معارج الفكر والثقافة. ولهذا القلم مواقف مشرقة بشأن المثقّف والسلطة أشاحت اللثام عن بعض شيم المؤلّف، أقلّها الجرأة والشهامة والنبل تستعرضها على موائد التجرّد والإباء.

وعن القلم اليونسيّ قال الريحانيّ:

مفردات عجيبات، منحوتات من عربيّة تنصّرت على رغم الأكذوبة القائلة أن أبت أن تفعل ذلك. دياب يونس يستحمّ في ينابيعها. يستكنهها. فتستغرق أنت في أسلوبه والمعنى، عنده كما عند الكبار لا ينفصمان.

دياب يونس يقيمك في ذهول تكاد تختنق فيه، إذ كنت تتوقّع كلمة فتسطع أمامك أخرى فلا يبقيك شيء في عالم التلقّي المطلق، إذ يجعلك أديبنا شريكًا له في الإبداع وكأنّك كنت في لحظة الحبل بالكلام. من بعد هذا تنمو نفسك بما قرأت، إذ تكون قد ورثت. قد يطيب لكاتبنا استلذاذك، ولكنّ الحركة الأولى في نفسه أنّه يأخذ القلم لفرحه فيصير بجودته منك وتصير أنت بالاستيطاب منه، وهذا هو وحده الأدب الرفيع.

ولمّا كان المطران خضر انتهى إلى وصف الكتاب بأنّه كتاب مودّات وومضات قلب خفّاق واستيطاب لعربيّة ولا أرقى ولا أشهى، فإنّه كان افتتح مداخلته بقوله:

| **السيّد الأمين** شبّه الكتاب

بإيقاع تتضافر على عزفه الكلمة والصورة والفكرة، إيقاع يمتنع أن تقع فيه على نشاز... هندسةً وشاعريّةَ فكر تحرسُ النصّ من التنزّل عن أصعب شروط الإبداع في رصف العبارة وجلاء الفكرة، وليسً هذا فحسب، بل النهوض بالعبارة من أبعادها اللغويّة إلى طاقة برق، تتبدّى الأشياء تحت ضوئه الصاعق الخاطف وكأنّها تُرى للمرّة الأولى.. يندر في عبارته أن لا تقع على كناية أو استعارة أو مجاز أو طباق مذهل، ولكن ليس في هذا يكمن سرّ عبارته وجاذبيّتها.. حاولت أن أقع على سرّها الخفيّ فلم أجده في قاموس البلاغة بل وجدته في كيمياء الصدق، فأدركت مجدّدًا أنّ للصدق سحرًا ومهابة أين منه سحر البيان حين يقوم على براعة لغويّة صرف.. فكيف يكون الشأن إذا تمّ ذلك الزواج النادر بين صدق القول وبراعة الأداء!

وأضاف: إنّ المعطى الأدبيّ اللغويّ العربيّ في كتابه يغري بأكثر من دراسة موسّعة، تفوق كلّ منها حجم كتابه، يكون الهدف منها جلاء مجد اللغة العربيّة والدفاع عن عبقريّتها والإمكانات اللامحدودة الكامنة في بنيتها.

| ومن شهادة **الصلح** قولُه:

لم تشهد للصديق الدكتور دياب يونس وقفاته ومواقفه فقط، وهي التي عنون بها بكلّ جدارة كتابه، بل تشهد له سيرته كلّها، ولاسيّما التزامه اللبنانيّ الراسخ منذ وجوده طالبًا في الجامعة اللبنانيّة.

ومنذ ذلك الزمن ودياب يونس عنوان من عناوين اللبنانيّة الخالصة، والوطنيّة المنفتحة، وحسّ المسؤوليّة العامّة، إلى جانب الموهبة الأدبيّة والخطابيّة المتوهّجة، رافقته في كلّ أطوار حياته؛ وما الكتاب الأخير الذي أصدره إلاّ صورة ناصعة من صور الأداء اللبنانيّ المميّز المعروف منذ أيّام النهضة العربيّة في ميدان الكتابة والخطابة والبيان.

| **الدكتورة كلاّب** توقّفت عند لمحات ثلاث:

١- تتوزّع شخصيّات هذا الكتاب وتتلاقى في صور متقاطعة متآلفة، تتشكّل في هواجسها وهمومها وآلامها وطموحاتها، لتكوّن وجهها واحدًا هو وجه دياب يونس... وجه التقى مقاطع من نفسه وأنصت لصدى قيمه الانسانيّة في كلّ شخصيّة كرم واجب.

٢- يجلجل في هذا الكتاب هاجس وطنيّ كبير، يجتاز لحمتَه وسداه وينبض في كلّ صفحاته، وهو موقع المسيحيّة المشرقيّة ودور المسيحيّ المشرقيّ...

٣- وتوالي أسماء عريقة من خلاّن وملهمين...

ثمّ أضافت: أسعدني في هذا الجامع لقاء دياب يونس في تجلّياته المتعدّدة المتآلفة:

المحامي المبدع أدبًا/ والأديب المفوّه خطابةً/ والخطيب المترسّل تربيةً/ والمربّي المتوقّد نضالاً/ والمناضل المبدع إدارة/ والإداريّ المتألّق منهجًا ولغةً وثقافةً وإنسانيّةً.

أسعدني من خلال هذه الصفحات خاصّةً، لقاءُ الانسان الكبير الذي نذر حياته وقلمه وصوته لتجذير الحريّة والحقّ والدفاع عن كلّ كرامة... وقفزت إلى ذاكراتي صور نقوش أثريّة على صخور لبنان!

٥ | **وجوزف حرب** الذي

أحبّ دياناتِ دياب يونس وثقافتَه وعمقَه وآخَرَه ولغتَه وكرامتَه وكبرياءه ووطنَه، قال ممّا قال: أصيلةً، هذه القامة الأدبيّة العالية. لكأنّ صاحبها، تنبّت في البصرة؛ أو تحدّر من مجالس الكوفة؛ ورافق أبا الطيّب، وهما على صبا، فثقّفا لسانيهما في مضارب الأعراب؛ وافترش الليل تحت تفتيح المسارج، طاويًا قمصان السواد، ببياض أمّات من الكتب، تفاوحت بحبر من ترسّل؛ وعاد القهقرى حتّى جاء الجاهليّة، فموّج فمه مع امرئ القيس، على خصور غسيلات دارة جلجل، واعتلى ذؤابة منبر ابن ساعدة؛ ودعي إلى العشاء السرّيّ في نجران؛ وأدهشته خيوط العنكبوت في غار حِرّاء؛ وكبّر في أُحد؛ واستغرق القرآن الكريم؛ وساف عنق من أغضب أبي ذرّ؛ وساهر بين مكّة والشام، رهبانَ الصحارى؛ وفتح ختمَ واحدة من الدَّوَيات، فخرج منها رئيٌّ مِدادٍ وهتف: إليكَ عبدَك. فقال له: هات الخطّ والتّزيين، والضبط والشَّكْلة. والمِرْقم والنِّقْط، والمِبراةَ والسَّنّ، واللوحَ والرّقّ، واحمل إليّ من الكتب الخواتيمَ، والجوهرَ، والمختارَ، وأنت حرّ.

واستوى دياب يونس بين ما حمل الرّئيّ إليه، وراح يتبحّر في الأساليب، ويتنعّم في رفاه الملوك الصاغة سادةِ تنزيل الكلام، حتّى إذا توشّح بالقول، تأنّق؛ وخفّ إلى الخطّ، تغلّل؛ ومتَح من الدواة، تندّى؛ وورقَ حبرُه على المزيّحات، وَرَف؛ وحرّك النّطقَ عن خرس المعنى، ترقرق. وفَصُح وبَلُغ، وَلَسن وأبان. وفاه وطَلقُ، ورمَز وأشار، وأزاح وسدَل، وراح، كما اعتاد على البياض، يرسّم بالحروف وجوهَ المعاني...

.. واعتنق دياب يونس وحدانيّة القلم في ثالوثيّة الأصابع، ودخل كهنوت الكتابة في دير الدواة...

ومن رائيّة **جورج شكّور** التي بلغت خمسةً وأربعين بيتًا من ذهب، بضعة مختارة:

«ديــابُ»، يــا أُمّـةً تَـخـتــالُ فــي رَجُـلٍ ... يـا مُـفـردَ الـوثـبـاتِ الـكُـلُّـهـا كِـبَـرُ...
ضَـجَّـتْ مَـواقِـفُـكَ الـكُـبْـرى مُـجَـلْـجِـلـةً ... كـالـشَّـمْـسِ، شـارقـةً، مـا مَـسَّـهـا سُـتُـرُ
آمــنـتُ أنَّــكَ دَوْمًـا جَـوْهَـرِيٌّ حُـلًـى ... تَـفِـرُّ بـيـنَ يَـديكَ الأَحْـرُفُ الـدُّرَرُ
كـم صُـغْـتَ خـاطـرةً تُـغْـريكَ سـاحـرةً ... سَـكْـرى وآمـرةً، بـالـنُّـور تـأْتَـزِرُ
لَـكَ الـمَـواقِـفُ لا تُـنْـسَـى، وأَبْـلَـغُـهـا ... نَـقْـشٌ عـلـى جَـبْـهَـةِ الأَمْـجـادِ يَـنْـحَـفِرُ
لَـكَ الـمواهِـبُ نُـعْـمَـى من عُـلًـى هَـبَـطَتْ ... كـما عـلـى الرُّسْـلِ، عَفْوًا تَـهْـبِطُ السُّوَرُ
أَنْـتَ الـمُـعَـلِّـمُ أُسـتـاذُ الـخـطـابـةِ، قُـلْ ... أنْ «شَـيْـشَـرونَ» لَـنـا فـي مـجـدِهِ أَثَـرُ
أنتَ الـمُـدافِـعُ عـن عَـدْلٍ وعـن قِـيَـمٍ ... وبـالـمُـحـامـاةِ تَـحـمِـي حَـقَّ مَـنْ قُـهِـروا
كُـنْـتَ الـمُـحـافِـظَ لا إلاّ عـلـى نُـظُـمٍ ... أيُ غَـيْـرِكَ أَنَّ الـنُّـظْـمَ تَـنْـكَـسِـرُ
فـي يـومِ مَـجْـدِكَ خُـذْهـا قَـوْلَـةً عَـجَـبًـا ... إنَّ الـعـظـيـمَ مُـخـيـفٌ كُـلَّ مـن صَـغُـروا

٥ | أمّا **الدكتور يونس** فأنهى شكره للمشاركين والحضور بقوله: أيّها الصديقات والأصدقاء، أيّها الأحبّة والحبيبات، لا كتابًا من أوراق وأحبار ستتأبّطون، بل صديقًا، وقريبًا، ورفيقًا، وعزيزًا، ينثر مشاعر وخواطر، ستسمعونه يردّد ما ختمَ به «تمهيد» وقفاته.. ومواقفه مخاطبًا كلًّا منكم:

«لكنّك، لا محالة، لامح في ثناياها ملامح من فتوّتي، مستروح في سطورها نفحةً من دمي، مسترجع في انكسارها أنداء من دمعي، مستعيد في انتصارها أصداء من صوتي، مردّد أبدًا ترجيعًا من جَيَشان روحي، ومستمع، على الدوام، نبضًا من حبّ للبنان لا ينقضي».

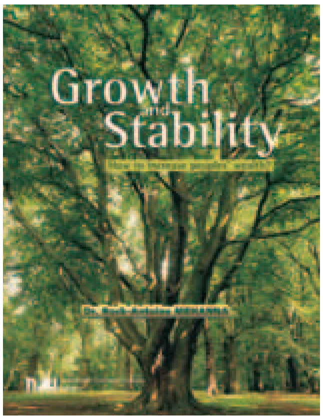

د. روك - أنطوان مهنّا يوقّع

النموّ والاستقرار

مساء اليوم التاسع من شهر أيّار ٢٠٠٧، تلاقت جمهرة عارفين وقادرين ومحبّين حول الدكتور روك- أنطوان مهنّا احتفاءً بكتابه الجديد بالإنكليزيّة: النموّ والاستقرار .Growth and Stability

○ | بدايةً، قدّم الأستاذ **سهيل مطر** صورةً شخصيّة موجزة عن المؤلّف منذ كان طالبًا طموحًا قياديًّا في الجامعة وإلى أن عاد إليها أستاذًا ساطعَ الوعد.

○ | ثمّ رأى رئيس الجامعة **الأب وليد موسى** أنّ الدكتور مهنّا يسهم، من موقعه كخبير اقتصاديّ وكأستاذ جامعيّ، في رسم صورة للاقتصاد اللبنانيّ، كما نشتهي أن يكون؛ معتبرًا أنّ هذا الاقتصاد قادر على التطوّر والازدهار، إن قُيّض له تخطيطٌ واعٍ ورجال أكفياء.

ولهذا، فهو يحاول، في كتابه، أن يحدّد، من خلال طرق علميّة ونظريّات اقتصاديّة حديثة، دور الحكومات والقطاع الخاصّ في تحفيز النموّ والتنمية المستدامة وزيادة ثروات الشعوب.

وأهمّ ما في الكتاب، تأكيده على دور الرأسمال البشريّ في النهضة الاقتصاديّة.

وإذ اعتبر أنّ موضوع الرأسمال البشريّ هو موضوعنا الرئيسيّ في هذه الجامعة قال: فإذا كان محور العمليّة الجامعيّة هو الطالب، فدورنا المبدئيّ الثابت هو إعداد هذا الطالب وتهيئته، نفسيًّا وعقليًّا، للدخول في زمن العولمة، وفي ثورة الاتصالات والتكنولوجيا، لا من باب الدراسة فقط، بل من باب التحكّم بالآلة واستيعابها واستخدامها لخدمة الانسان.

نحن، في الجامعة، ولاسيّما في كليّة الاقتصاد وإدارة الأعمال، نسعى، بكلّ جهد، لكي يتمتّع طلاّبنا بالكفاية العلميّة والأهليّة الإداريّة، اللتين تعتبران دعامة أساسيّة لبناء شخصيّة الانسان في هذا الزمن المفتوح على كلّ الآفاق والاحتمالات.

○ | أمّا الوزير السابق **د. جورج قرم**، الذي هنّأ مهنّا على كتابه والحضور الطالبيّ اللافت، فبادر إلى الإشادة برشاقة أسلوبه وسهولته وأناقته وإيجازه ودقّته ومنطقيّته، وبشموليّة المراجع ما يقدّم فائدة جلّى للطلاّب.

وبعد أن أشار إلى أنّ كلاًّ منهما من مدرسة مغايرة في علم الاقتصاد، نوّه بإيجابيّة الأبحاث في موضوع التبادل الحرّ وعوامل التنمية. ثمّ رأى أنّ مهنّا يتمسّك بلاهوت الليبراليّة، أي ما ليس رأسماليًّا وحشيًّا.

وأنهى مداخلته بالتمنّي على الجامعات مساعدة الطلاّب على تأمين فرص عمل من خلال الاتصال

بالشركات المتعدّدة الجنسيّة، ودفع الأساتذة إلى المزيد من الأبحاث والانتاج الفكريّ.

النائب د. **فريد الخازن** رأى أنّ الرسالة الأهمّ التي يتضمّنها الكتاب تكمن في تبنّي المؤلّف العولمة والانفتاح في التجارة الدوليّة، ما يعزّز النموّ الاقتصاديّ.

وأضاف: لا يكتفي المؤلّف بإبراز الجانب الإيجابيّ للتبادل الاقتصاديّ الحرّ، بل بالردّ على المشكّكين بالحجج، إمّا نافيًا التأثيرات السلبيّة على الاقتصاد المحليّ أو مؤكّدًا على إمكانيّة التأقلم والاستفادة من الانفتاح الاقتصاديّ. وهو يحاول أن يدحض المقولة الشائعة أنّ العولمة الاقتصاديّة تنتج بطالة أو تزيد في تفاوت الدخل، وفي عمالة الأولاد، وفي التردّي البيئيّ. كما أنّه ينفي وجود أيّ علاقة سببيّة بين الاثنين. ويعارض المؤلّف سياسات الحماية للاقتصاد المحليّ (Pritectionist policies) ليؤكّد على دور الدولة في إعادة الهيكلة المطلوبة (Restructuring) للتأقلم مع العولمة لخلق فرص عمل جديدة، ولإبراز الميزات التفاضليّة للاقتصادات المحليّة. وقد ينتج عن ذلك مرحلة انتقاليّة صعبة، إلاّ أنّه، بحسب المؤلّف، يمكن تجاوزها، عبر اتباع سياسات اقتصاديّة حكيمة ومرنة.

ولا يغيب عن بال المؤلّف، أضاف أنّ بعض الدول لن تتمكّن من اللحاق بركاب العولمة الاقتصاديّة، إمّا لأنّها تفتقر إلى ميزات تفاضليّة أو لأسباب تتعلّق بأسواقها الصغيرة أو مداخيلها المحدودة. لذلك، فهي بحاجة إلى اعتماد سياسات إصلاحيّة. كما يدعو إلى اعتماد الانفتاح على المستوى الاقليميّ والدخول في اتفاقات. ويقدّم توصيات مفصّلة، ومنها مسؤوليّة المؤسّسات الدوليّة في دعم الدول النامية لتسهيل انخراطها في العولمة.

وتابع الخازن: يضع الدكتور مهنّا القارئ أمام وصفة متكاملة لاعتماد عولمة اقتصاديّة بلا حدود، نظرًا لمردودها الايجابيّ على الدول وشعوبها.

أمّا الحالة اللبنانيّة (التي لا يتطرّق إليها الكاتب) فهي مزيج من الاقتصاد المعولم والفوضى المنظّمة وغير المنظّمة، مثلما هي حال السياسة في لبنان.

بكلام موجز، قال الخازن، لا اقتصاد فاعلاً ولا نموّ ممكنًا، قبل العولمة وبعدها، في ظلّ دولة تابعة، ناقصة السيادة، منقسمة على ذاتها، غير قادرة على اتخاذ القرار؛ وفي ظلّ حكم فاسد وقوانين منتهكة برعاية الدولة وإشرافها. فالآمال في لبنان معلّقة على المجتمع، المجتمع المدنيّ والمبادرات الخاصّة، والتواصل مع العالم.

وفي الختام، كانت كلمة شكر **للدكتور مهنّا** دعا فيها إلى تقليص دور الدولة، أي القطاع العامّ في المطلق، لصالح القطاع الخاصّ، ما يدفع بالعجلة الاقتصاديّة ويؤدّي إلى تحفيز الانتاجيّة. كما شدّد على ضرورة اعتماد اللامركزيّة الاداريّة التي يغيب عنها التركيز بشكل كاف حاليًّا في الطروحات الاصلاحيّة، مشيرًا إلى دور البلديّات واتحاداتها في هذا المجال، من خلال إنشاء مصانع لتصريف المحاصيل الزراعيّة. ورأى أنّ من الضروريّ القيام بإصلاحات اقتصاديّة ومؤسّساتيّة وقضائيّة، ومنها الخصخصة الشفّافة الضامنة لمساهمة الشعب فيها. وأكّد على ضرورة تحرير بعض القطاعات ومنها الطاقة والتخابر، وفي الوقت عينه رعاية بعض منها وتوجيهها كالتوجّه إلى صناعات وخدمات وزراعات ذات قيمة مضافة، مثل الزراعات العضويّة والأعشاب الطبيّة. وحضّ على تفعيل الدور السياحيّ والبيئيّ من خلال إنشاء محميّات اقتصاديّة، ما يشجّع المواطن على حماية البيئة لما لها من فوائد اقتصاديّة. وختم مؤكّدًا أنّ الشراكة بين القطاع العامّ والقطاع الخاصّ (مؤسّسات التعليم العالي والمصارف...) والقطاع الأهليّ تؤدّي إلى «كونسورتيوم» Consortium، أي تجمّعات زراعيّة صناعيّة ومصرفيّة، ما يساهم في إنشاء وتفعيل قطاعات واعدة ومنافسة إقليميًّا وعالميًّا.

عبدو القاعي يسأل عن مصيرالمجتمع اللبنانيّ

د. ميشال كعدي

"هل تنتهي؟"

فصولٌ ثلاثةٌ، كتبها ولعبها باحثٌ اجتماعيٌّ على خشبةِ المسرح، فتلقّفتها مئةُ صفحةٍ، وفيلسوفةٌ من لُبنان لها شأنٌ يتّسعُ لشهاماتٍ تُسجَّل.

المؤلِّف بنّاءٌ في مجتمع هدّته معاولُ الغدر، فحاول أن يوظِّفَ خبرتَه، لعلَّه يرمِّمُ جزءاً ممّا تَهدَّمَ في زمنِ الأَزمات والنّزاعات والحروب.

عبدو القاعي

مُلمٌّ في رصيفِ الكراماتِ، وفي تاريخ المجتمعاتِ البشريّة، وبخاصّةِ المتحدّرة من الجذورِ الإبراهيميّةِ؛ وقد خطا في المسافاتِ الوعرةِ، يحملُ في يُمناه ميزانًا دقيقًا لا يحيفُ، وفي يُسراه بوصلة ليراقب العُقَدَ، فوجدها دراما إنسانيّة، تتتابع فصولها عبر الزّمن.

الرجلُ مشدودُ الحجَّةِ.

نظامُهُ لا يندثر، ومقصودُهُ لا عيبَ فيه، ورؤيته صحيحة في الوصولِ إلى الهدف.

بما يقولُهُ سدادُ الهدف، ومشعب الحقّ، والرأي والحصاة.

فهو في موضع الحقِّ ثبيتٌ، يُبرهنُ عن المُغلقِ بموضوعيّةٍ، وإذا هو موقِّفٌ على المنطق، ومعقل التقدير، وملاذ الأحكام. يُحقِّق المفاهيم ويُثبت اليقين منها، من دون أن يتلوَّى في مُردَّدِهِ أو يتعوّج.

على أنَّ لعمرِهِ، متى اتّسع لعزٍّ إنسانيٍّ، تَشكَّلتْ أمامه مواجهاتٌ عاصفة، وإذا للنّاس معه غيرُ صدمةٍ، تَمرُّ وسطَ الذّات من دون توقّف، وتدخلُ من دون استئذانٍ لتؤلِّفَ في الأرض السوريَّةِ، وتحديدًا فلسطين ولبنان والعراقَ، سنوات عجافًا، وفي العالم الليبيراليّ قضايا عصبيّة.

«هل تنتهي؟»

مسرحيّةٌ يديرها بطلان، هما عبدو وأمل.

هي رواقيّةٌ، من مقوّماتها تَحدّي السّلطة القائمة بالقوّة. أمّا انطلاقةُ هذا التحدّي فمن لبنان.

أبطالُ «هل تنتهي؟»، صمّموا، إلى جانب المواجهةِ والتصدّي، أن يرسموا خطّة المقابلة بالإنسانيَّةِ، وتركيز الحوار على الإصغاء، لا على العنف ولا على الاستراتيجيّة الاستقوائيّة.

ثمّ رسمَ الكاتبُ ملامحَ من وجهِ المجتمع اللبنانيّ على كثير من النّفاذِ، ولا غرو، فهو يعرفُ الإحاطةَ، وترامي النّظر بأُخوَّةٍ فاعلةٍ، على أنَّها صهرت في موهبةٍ فذّةٍ، هي من الآمالِ الأكيدةِ في الوطن.

مُخطَّطُ عبدو القاعي فعلُ إيمانٍ، قبل أن يكونَ شيئًا آخر، وممارسةٌ في الأعماقِ لعقيدةٍ روحيَّةٍ.

المخطَّطُ أراده للرّجالِ والنّساء.

ثمّ طلبَ إلى الجميع أن يأخذوا جانبَ المناعةِ والعزم، والاستعداد للعمل في شقع المداميكِ والبناء، بناءِ الرّوحِ المجتمعيّة أوّلاً، ومن ثمّ بناء المجتمعِ الإنسانيّ في لبنان، متمنيًّا أن تمرّ الأجيال بسلامٍ وطمأنينة وهدوء.

والذي يلفتك في فصول الرواقيّةِ، الإلمام العلميّ، تحت صفاءٍ كلاميٍّ وبيانيّ. فهو عروفٌ بالمعضلاتِ، ومتبسِّطٌ فيها، على انضباطِ في السِّياقِ وتماسكٍ مستمرّ.

وعلى الرّغم من ذهابهِ تعميقًا في المشكلاتِ الاجتماعيَّةِ والبشريّةِ، لا يفتأ يُلقي بنظره المتمادي إلى مظاهرِ الأمورِ الخارجيّة.

وبينما هو في تطوافِهِ، في مسرحيَّتهِ «هل تنتهي؟»، يتَّسمُ قِممًا لاهوتيّةً وأخلاقيّةً، ونداءاتٍ روحيّة، أخذَ مساحاتها من لبِّ النّفس الآدميَّة، التي تغذِّيها قواعدُ الثقافةِ الاجتماعيّةِ في الوطن الذي هو أكبرُ من أرض، وأكبرُ من متنفَّسٍ حضاريّ.

وعبرَ كلِّ المنطلقات، يدعو الباحثُ والفيلسوفةُ بجُرأةٍ، وإن بدتِ الغُصَّةُ بعيدةَ الأغوارِ في الجوّانيَّةِ، إلى دعوةٍ أطلقاها علىَ الذين يؤخذون بالإنفراديّة البارزة. فالدعوة أبدًا إلى تجديدِ الحوارات التي يمتازُ بها المحيط اللبنانيّ.

في أيِّ حالٍ

حوارُ الباحثِ والفيلسوفة، يُجسِّدُ دستورًا مثاليًّا لبنانيًّا، وبالتالي يطلبُ إلى الجميع أن يصغوا إلى الضمير الحيّ، وأن يعملوا للبنَانَ ميثاقًا من بنودِهِ الحفاظُ على الكيانِ والإنسانِ، وأن يأخذوا بالمعتقداتِ والثقافاتِ الإبراهيميّة كلِّها، وحواضر «أور» الواقعة ما بين النهرين، مرورًا بالجذور المسيحيّة والإسلاميّة.

نادى عبدو القاعي، على شيءٍ من التشديد، أن تأخذ الأصول البشريّة مكانها على الأرض اللبنانيّة، من خلالِ حوارٍ دائم، يُمكِّنُ المنابعَ الروحيّةَ والخُلقيّةَ في المرءِ اللّبنانيّ، وقيم الحضارة الإبراهيميّة، وبعثها من جديد للكائن الحيّ في هذا العالم، والبشر الذين يشكّلون أكثرَ من ثلثي الخليقةِ في مختلفِ أصقاعِ الدّنيا.

ولم ينسَ المؤلّف أن يُشدّدَ أيضًا على الشّيم الديموقراطيّة، والتطوّر الجذريّ. أمّا العلاجُ فعلى النُخب الإبراهيميّة. وكلّ ذلك في إطارِ التّجاربِ الناجحة، وأخذ الأفضل من الديموقراطيّات، التي تتجدَّدُ مع تجدّدِ الفكر القانونيّ في العصور المستجدّة، سواء كان هذا الفكرُ في الشرقَ أو الغرب.

وقد طلب أن يكونَ الاستقواء، إذا كان لا بدَّ منه، إلى الأفضل في مساراتِ الحوار الفاعل، الذي يؤمِّنُ الإخاءَ والمواطنيّةَ ووعيَ الرّسالةِ الصالحة من دون حَيرةٍ أو قلق.

عبدو القاعي

رسمَ خطًّا للمكتسباتِ الثقافيّة التي توخّاها أن تتجمّع في مدينةِ بيروت، أمّ الشرائع.

رسمَ خطًّا للّقاءِ بين الشرق والغرب، وذلك لمصلحةِ الإنسانِ في بلدٍ تَمنّاهُ العالمُ أن يكونَ عن حقٍّ جسرَ عبورٍ للقارّات في الكون.

وفي نهاية المطاف، يسأل الكاتبُ قائلاً، في رصانةِ الوطنيّ وتفهّمه وإدراكه، هل تنتهي؟ وإلى أين ذهبَ المجتمعُ اللبنانيّ؟

▶ عبدو القاعي وأمل ديبو

احتفاءً بروايتين ومسرحيّتين لمنصور عيد

احتفاءً بكتب الدكتور منصور عيد: **شرارات الرماد وطائر الفينيق** (روايتان) وحكم **قرقوش وديدون** (مسرحيّتان)، دعت كليّة العلوم الانسانيّة في جامعة سيّدة اللويزة إلى لقاء، قدّمه الفنّان **منير كسرواني**، وشارك فيه رئيسُ الجامعة الأب وليد موسى وأمين عامّ اتحاد الكتّاب اللبنانيين غسّان مطر، ومن جمعيّة أهل الفكر فكتوريا سلموني نصراني، وعن الأصدقاء فؤاد دعبول، ومترجم طائر الفينيق إلى الفرنسيّة أمين زيدان.

ومّما قاله **الأب موسى**، الذي قدّم إلى المحتفى به درعًا تقديريّة:

نحن بحاجة إلى مثل هؤلاء الأساتذة: يبحثون، يبدعون، ينشرون، ولا يجلسون على رصيف الانتظار وهم يغازلون الضجر والموت.

ولا أخفي سرًّا، إن قلت، إنّ منصور كتب الكثير من مؤلّفاته بين جدران هذه الجامعة. في أيّام الآحاد، في أيّام الفرص، في ساعات الاستراحة والتسلية، نراهُ هنا، يحوّل الثواني إلى كلمات، والدقائق إلى جمل، والساعات والأيّام إلى أقاصيص وروايات وقصائد.

وتحت عنوان: كُتُبُه كرسيّ اعترافه، قال **غسّان مطر**:

ويستوقفك من همومه اثنان ثابتان: لبنان في إشكاليّاته كمجتمع، والانسان مرادفًا للحريّة والحقّ والكرامة.

أمّا لبنان عنده فمركّب معقّد لا تستقيم فيه النظريّات البسيطة، ولكنّه يُفتدى. هكذا يَغلب الحبُّ التحليل بضربة ساحر أو بلغة عاشق.

أمّا الهمُّ الثاني الذي هو الانسان مرادفًا للحقّ والحريّة والكرامة، فهمّ مثاليّ لا يخضع لمعايير الواقعيّة وقوانين العصر.

.. أمّا بعد،

فتحفر كثيرًا لتكتشفه. ولولا ما كتب لظلّ عصيًا ومقفلاً. في الرواية كما في المسرحيّة لا يختار منصور عيد إلاّ ما يشغل البال. يطرح الإشكاليّات الكبرى في الاجتماع الوطنيّ والانسانيّ، ويختصر الحلّ. وددتُ مرارًا أن أصرخ – وأنا أقرأ: «لا يا منصور، أترك لنا أن نحلّل ونختار، لا تفرض علينا قناعاتك». لكنّ منصور المشدود إلى رأيه وقناعاته ما كان ليجيب. تلك طبيعة الملتزم: الفنّ في خدمة الرأي ولا يعكس.

وعن القصّة عند منصور عيد قالت **فكتوريا سلموني**:

القصّة، عنده، مختبرُ أفكار تتواجه، تتماثل، تتشابك، تتطوّر، تتصارع... وفي النهاية، تصل إلى القارئ المتذوّق مباشرة حين المباشرة ضرورة، وإلماحًا حين الإلماح أجدى.

والقصّة، عنده، قطفٌ من حياة. فهو ملاحظ دقيق الملاحظة، فوصّاف بارع الريشة. وهو يسلسل الأحداث، يحسن توقيعها، فتبدو عفويّة

الترابط، متكاملة الانسجام، فتقع الموقع الحسن في أذهان المتلقّين ونفوسهم.

والقصّة، عنده، ذوب ذاتٍ/ذوات، وفيض قلبٍ/قلوب، وتفجّر عواطف وفكر. هكذا هو الصدق كلّه، الصدق القويّ الغنيّ العميق؛ الواقعيّة كلّها، إلاّ أنّها الواقعيّة التائقة الأرقى. فالقصص الأهمّ، هي النابعة من الوجدان، المتدفّقة من القلب، الجارية من العقل، وفي الوقت عينه.

ومنصور عيد، لا يعيد صياغة واقع حدث، بقدر ما يصف واقعًا سيحدث. لا يتذكّر الواقعة بقدر ما يخلقها. لا يصوغها بقدر ما يجعلها تسوق نفسها: بسيطة، عفويّة، بهيّة البساطة، متقنة العفويّة.

وهو، بطريقة ما، قاصّ ما يرى وما لا يرى. ما يلمس وما يشعر به. هكذا، هو يتجاوز الحاصل إلى الممكن؛ المرئيّ إلى المتخيّل؛ الواقعيّ إلى المتوهّم.

وإذ مَرّ **فؤاد دعبول** بصرخات منصور عيد ضدّ مظالم الحرب والطائفيّة والاقطاعيّات، مظهّرًا علاماتها في كتاباته، مرّ **أمين زيدان** بشمائله من افتخاره بأن يكون جبليًّا إلى عشقه الحريّة والسكينة والسلام...

أمّا **المنصور** فتخلّلَ شكرَه العميم اعترافٌ بقدَر ونذر، قائلاً: هذا هو قدري الذي نذرت نفسي لأن أسير في طريق جلجلته المزروعة بالتعب والحبّ والجمال والصداقات والوفاء. إنّها عناوين الحياة الحلوة، الثريّة، زرعتها في نفسي تجاربُ الأيّام..

ومن جمعيّة أهل الفكر كتب الأستاذ **زياد أبي فارس** عن مسرحيّتي حكم قرقوش وديدون، فقال: الأولى ملهاة كاريكاتوريّة فنيّة ذات أبعاد وطنيّة، مقتبسة من تاريخنا المتوسّط «أوائل القرن الثالث عشر»، تتكثّف فيها المشاهد واللوحات، فلا تكاد تستريح بين باب وباب حتى تفاجئك بجديد. والثانية دراما وطنيّة، من تاريخنا القديم – الفينيقيّ–، فصول في الوطنيّة والسياسة أَوْلى أن تُدرّس لأجيالنا الجديدة.

وأضاف: غبّ مطالعتك لمسرحيّة «قراقوش» ترى المشاهد المتلاحقة والمتباينة، وكلّها مضحك؛ فلا تقدر أن تلتقط أنفاسك إثر أغنية أو طرفة إلاّ أن تطالعك قصيدة قديمة أو حديثة أو زجليّة، وكلّها يحمل نقدًا أدبيًّا أو اجتماعيًّا، مبطّنًا تارة، وواضحًا جليًّا طورًا. أهكذا كان ذلك «القراقوش» أم شاءه هو أن يكون كذلك!

ومسرحيّة «ديدون» تسري هادئة رصينة، ويسري فيها الفخر مع الروح الوطنيّة والتضحيات الجسام في الدفاع عن المثل الوطنيّة والانسانيّة الكبرى؛ فترى المؤلّف هنا مختلفًا عنه في سابقتها، إذ القصّة والحوار يحملان الهمّ الحزين والبؤس والبأس والواجب معًا. إنّها اليقظة القوميّة.. والرسالة للأجيال الآتية.

وممّا كتبه د. **جورج كلاّس** في معرض تقويمه لرواية شرارات الرماد: هكذا، وببراعة البساطة التعبيريّة، قعَّد عيد للرواية كفنٍّ هجين من فنون سيرة الجماعة، والذي جمع فيه بين دقّة التحدّي التاريخيّ وجماليّة الإمتاع القصصيّ، حيث امتزاج الواقعيّ بالخياليّ، والاستناد إلى معلومات وتواريخ مرجعيّة، لها مطرحها في دفتر الوطن ووجدان الناس، حتّى لكأنّ القارئ المتذوّق يخال نفسه في سَفر زمنيّ، ينقله إلى قلب الأحداث وأزمانها، ويحيله بطلاً شريكًا في الرواية، لا قارئ نصّ أو ضَيْف شرف فيها.

وهكذا تمكّن من توظيف سرده النثريّ لخدمة هدفه الانسانيّ، متجاوزًا الفنّ المرويّ إلى الإصلاح والاتّعاظ، حيث أَسْبَغَ وجودًا واقعيًّا على الأشياء والأحداث والشخصيّات، بأسلوب تعبيريّ مُتَخَيّل أو مُخْتَلَق أو مؤلّف من عناصر حادثة ووهميّة، وحيث تصدّى لقضيّة الزواج المختلط وتحدّياته وإخفاقاته، مصوّرًا الأخلاق والعادات والسلوكيّات البشريّة، فأنزلَ شخصيّاته بمسمّياتهم الطبيعيّة ضمن إطار اجتماعيّ معيّن، أو مُذَوَّق، وفق متطلّبات السياق، الذي حمَّله غاية خُلقيّة وفلسفيّة ودينيّة ومجتمعيّة، هي، في بُعدها الرهانيّ، مغامرة واجبة الحدوث، كي لا يبقى لبنان ميدان تجاذبات إختباريّة وتجريبيّة.

سهيل مطر.... في زمن الجفاف[١]

د. جان توما

تنزل إليك كلمات «سهيل» من ذاك العلياء المتوهّج حيث عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ. فإذا كان النّجم «سهيل» تعريفًا معجميًّا هو من النجوم اليمانيّة ويُضرَب فيه المثل: إذا طلع سهيل، رُفِعَ كيلٌ ووضع كيلٌ، وهو يُضرب في تبدّل الأحكام، فـ«سهيل مطر» في «**كتاب للحبّ في زمن الحرب**» يثبّت المنحى العاطفيّ ولا يبدّل أحكامه في أنّ الجفاف قد ضرب الأرض والقلب، فيخلص إلى أنّ «الأرض لا تضمُّ المطر..الأرض تشرب» (ص ٦٢). لذا يدعو إلى طوفان مشاعريّ يعمّد بالنّور الشرايين لتنتفض على واقعٍ مرّ، سعيًا إلى تلك الجمهووريّة الفاضلة التي يبحث عنها المخلصون فلا يقعون إلاّ على أشلاء؛ لكنّهم، بالأمل والرّجاء، يستعيدون الإنتماء إلى وطن بعد أن رمى بعضهم صقيع الغربة في أرجاء الوطن حيث تحوّل إلى «قبائل وحقائب وشظايا» (ص ٨) إضافة إلى استعادة ألوهيّة الله بعد أن صار على ألسنة الدجّالين: «حفّار قبور وشاهد زور وبائع عقارات في جنائن السّماء» (ص ٩). ولكن، هل يحاول الشاعر أن يبدع وطنًا وإلهًا جديدًا؟! يبدو من مطلع قصيدته الأولى أنّه «أخا سفر جوّال أرض تقاذفته فلوات» بحثًا عن الوطن الذي «سرقوه» (ص ١١). ذاك الوطن الذي يراه في أحلامه ورؤياه، وذاك الذي يلتحف فيه السماء غير آبه بعاتيات الدّهر. وفيما هو باحث عن «الوطن المفقود» ينزل آمنًا مطمئنًّا في عيني حبيبته، وهذا شأن الشّعراء العاشقين الولهانين لتصير الحبيبة الملجأ الطبيعيّ للمقهور والمُتعَب ومخلّع الرُّكبتين «حاملاً على ظهريَ انكسارًا، وجراحًا في عيني» (ص ١١)، هي دعوة إلى ذاك العالم حيث «لا سؤال، لا كلام، وجهُكِ شعبي ومجدي، وعيناكِ وطن» (٤٤). أمّا الإله النازل في المآقي النازفة فيتماهى مع الوطن ووجه الحبيبة فهو «وحده القوميّة والحرّيّة والعالم» (ص ١١).كأنّ الإله هنا محاكاة مضادّة لمفهوم الإله في العهد القديم حيث لكلّ مدينة إلهها، لا يغادر أسوار المدينة ولا ينزل في أرض أخرى. سلطته تقف عند حدود البلد ولا تتخطّاه. ومن أخطأ إلى ربّ المدينة كان يخرج إلى خارج أسوارها فلا يطاله الغضب الإلهيّ الساطع، لذا دخل سهيل مطر في تجربة مماثلة لـ «يونان» الذي هرب من إلهه إلى خارج منطقة نفوذه عبر قارب في البحر بعيدًا ، إذ طلب منه ربّه أن يذهب مبشّرًا إلى نينوى فمضى إلى ترشيش، فعاقبه بوضعه في قلب الحوت، في رحلته البحريّة من يافا إلى ترشيش، ثلاثة أيّام ليطلقه حرًّا بعدها.سهيل مطر إلهه كونيّ، عولميّ، يعرف الجميع، وله كحبيبته سلطة، بها «يرتعش قلبٌ شرايينهُ غضب وحبّ» (ص ١١). هو حبٌّ يسمو فوق الأحاسيس «أنصحُكِ أن لا تقامري بالحبّ... وهل تقامر العصفورة بجناحيها؟» (ص ٦٢). هي دعوة إلى الألوهيّة حيث «صرتُ إلهًا أُحبُّ إلهة» (ص ٦١).

من «وجع الذاكرة» يرسم مطر وجه حبيبته: «عيناك... شعرك... شفتاك... العنق..»، كأنّه يلملم من الأشياء الحلوة أجملها وأتقنها، لعلّه كالعصفور يجمع القشّ لبناء عشّه في ذلك الأيك : «أتدفّأ بك من صقيع الأيّام... والوجع» (ص ١٩) ومن مُرّ الخيانة إذ لوهلة «شممتُ عطرًا لإمرأة، لا اسم لها، ونسيتُك بضع دقائق.. اغفري لي» (ص ٢١). هو الغفران والرضا يطلبه ليتمكّن من «الدخول إلى جسدك دون حواسّ، هو أجمل من الدخول بحاسّة مشوّهة» (ص ٢٢). هي دعوة ليكون الحبّ الكلّ في الكلّ. في هذا المنحنى الذي لا ينتهي في سفر «سفينتي الحلوة، الغرق لذيذ في المثلّث الممتدّ بين عينيك، ووردة القدمين» (٢٤).ولعلّ «مطر» إذ اشتدّت غيومه واكفهرّت سماؤه عاد إليها «لكأنّ لا فجر بدونك ولا ليل، ولا قمر» (٢٦). فرادة «مطر» أنّه بحاجة إلى تراب للتكامل وليصوغ خليقته الجديدة لسبب أوحد «لأرسمَكِ على جسدي، لأحملَكِ صليبًا وذخيرة، أتسلّح بكِ... وبعد... لتقف القيامة» (ص ٣١).لا شكّ في أنّ الصور التوراتيّة والكتابيّة تمرّ بوضوح في كتابات الشاعر كأنّه يكتب كلمته المقدّسة: «صام أربعين يومًا، أصلّي، تجلّي....» (ص ٢٢) أو في قوله «أحسّك أيقونتي.. عصا موسى يشقّ البحر» (٤٩) وكما في قوله «باطل الأباطيل» (ص ٦٥) و«الكذبة والفرّيسيين» (ص ٧٧). ربّما كنّا أمام كتابة معاصرة لنشيد إنشاد معاصر حيث يبحث الشّاعر وسط العولمة عن وجه حبيبته الضائعة بألف بهرجة وزخرفة. كأنّ الشاعر يسأل عن الوجه الأوّل، والملمس الأوّل، والحبّ الأوّل، فلا عجب إن خاطبها مرارًا: «كم أنت طفلة، أنتِ طفلة، بعذريّة عينيك، بارتجافة شفتيك، بالبراءة..» (ص ٣٥) و«الحبّ يا صغيرتي..» (ص ٦٢)، هذه الطفوليّة يعنونها «مطر»: «بجسد لا يعرف الخطيئة». هذا لا يعني أن الحبّ عنده من باب الزنى، بل هو انفتاح الأنا على الدنيا وجمالها، هو سقوط الحاجز المصطنع الذي «يسدّ الطريق بين فراشة الحبّ والوردة البريّة» (ص ٤١).ثمّ يُسقط «مطر» الطفولة على نفسه، «وكما الطفل، في قربانته الأولى، استقبل شفتيك/ أتلو فعل ندامة» (ص ٧٥).

يتقن «سهيل مطر»، في ريّان هطوله وفي طراوة غرته، فنّ الرسم بالكلمات وفنّ توليد المعاني من المعاني.ففي قصيدته «اسمها: حبّ» (ص ٨٣) نكتشف الخريطة الجينة لمولود «مطر» الشّعريّ. فالفاحص يلتقط شرارات المعاني المتوالدة، ويمكن ملاحظة ذلك مثلاً في المقطع الأوّل: «ضمير متصل - منفصل - المبتدأوالخبر - التمييز - المستقبل - المطلق -الرحيل - السّفر - الطريق» وفي المقطع الثاني: «الأعماق- العواصف - الهدير - البحر» وفي المقطع الثالث: «أعصاب - إيجابيّ سلبيّ - دم - شرايين - جسد - نبض»، وفي المقطع الخامس: «مفخّخ- انفجار - شظايا»، وأخيرًا في المقطع الخامس: «المحتلّ - المعسكر - السيف - الفروسيّة - العدوّ».

رغم كلّ الفنون الشّعريّة التي يتقنها «مطر»، إلاّ أنّه يبقى مصرًّا على التجوال، بوصلته استراحاته الطويلة «في ظلال عينيك» (ص ١١٤)، يعيش في التوتّر «بكلّ أعصابي المجنونة» (١١٤)، ولكنّه يعترف في الصفحة الأولى من الكتاب والأخيرة: «أحببتك، وكأنّك الأولى والأخيرة، وجرّحتني» (ص ١١٥). يجرّ سهيل مطر جسده المثقل بالجراح، وقد تكسّرت النصال على النصال، يسأل عفو الحبيبة، يستردّ «سهيلاً» موقعه في مجموعة النجوم قائلاً: «فشكرًا لك ولا وداع» (١١٥)، لكنّه ينكث بوعده فيرسل مطرًا غاضبًا جامحًا ليرتاح في مطر نيسان منعشًا الأفئدة الحجريّة لتذكر لحميّتها فيقوم للحبّ ولو قسا العمر في زمن الحرب.

(١) كتاب للحبّ في زمن الحرب: سهيل مطر، ٢٠٠٧، ١١٥ صفحة من القطع الصغير.

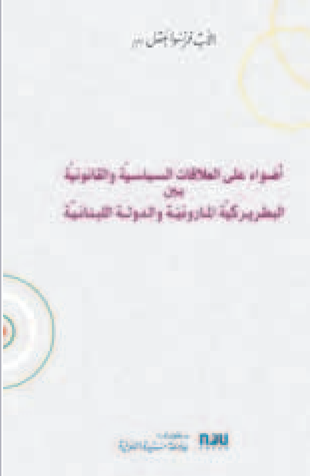

أضواء على العلاقات السياسيّة والقانونيّة بين البطريركيّة المارونيّة والدولة اللبنانيّة

ينطلق الأب فرنسوا عقل – كما جاء في مقدّمة الكردينال مار اغناطيوس موسى داود، رئيس مجمع الكنائس الشرقيّة- من قراءة تاريخ لبنان ونشأة الكنيسة المارونيّة قراءة جديدة، ليضيء على العلاقات السياسيّة والقانونيّة بين البطريركيّة المارونيّة والدولة اللبنانيّة، ممهّدًا بنظرة تاريخيّة تشمل تطوّر علاقات البطريركيّة مع مختلف العهود التي مرّ بها لبنان والمنطقة منذ العصر الأمويّ إلى العبّاسيّ، فحملات الفرنج والمماليك والعثمانيّين... حتى لبنان الحديث، متوقّفًا عند استقلال لبنان ودور البطريركيّة فيه.

ويدور الفصل الثاني حول المفهوم القانونيّ لسلطة البطريرك المارونيّ؛ في حين يتطرّق الفصل الثالث إلى الفكر الكنسيّ الجديد فيما يتعلّق بالشأن العامّ والسياسة والاجتماع، استنادًا إلى المجمع الفاتيكانيّ الثاني والقوانين الكنسيّة والمذكّرات العقيديّة والإرشاد الرسوليّ من أجل لبنان، ومختصر مذهب الكنيسة الاجتماعي. وفي الرابع، يستعرض المؤلّف أبرز ما ورد في الدستور اللبنانيّ وما نصّت عليه القوانين الوضعيّة التي رسمت الخطوط العريضة لعلاقة الدولة بالمرجعيّات الروحيّة عمومًا، وبالبطريركيّة المارونيّة خصوصًا.

وبعد إلقاء الضوء على مشاريع تطارحها البعض في لبنان كإلغاء الطائفيّة، وإلغاء الطائفيّة السياسيّة، وإقرار العلمانيّة الشاملة.. يذري الأب عقل، في الفصل الأخير، «بذور مشروع علمنة جزئيّة إيجابيّة تميّز بين الدين والدولة حتّى حدود الفصل كآليّة حديثة لتحقيق علمنة شاملة أو دولة مدنيّة حقيقيّة...».

يحتوي الكتاب على بيبليوغرافيا بالعربيّة والأجنبيّة.

المؤلّف: الأب فرنسوا عقل
الطبعة: ٢٠٠٧
اللغة: العربيّة
عدد الصّفحات: ٢٩٢

Highlighting the Political and Legal Relations between the Maronite Patriarchate and the Lebanese Government

As mentioned in the preface of Cardinal Mar Ignatius Moussa Daoud, head of the Sacred Congregation of the Oriental Churches, Father François Akl proceeds from a study of the history of Lebanon and of the foundation of the Maronite Church to highlighting the political and legal relations between the Maronite Patriarchate and the Lebanese Government. In so doing, he paves the way for a historical study which covers the development of the patriarchate's relations through the different eras that Lebanon and the region have passed through, starting with the Caliphate and passing on to the Abbasid Era and the attacks led by the Franks, the Mamelukes and the Ottomans, to end with the modern Lebanon. Father Akl examines as well the role of the patriarchate in the Lebanese independence.

The second chapter treats the legal concept of the Maronite Patriarch's power, while the third chapter deals with the new ecclesiastic notion regarding public, political and social affairs, according to the Second Vatican Council, the ecclesiastic norms, the doctrinal memorandum, the Apostolic Exhortation for Lebanon, and the outline of social Church ideology. The author reviews in the fourth chapter the most remarkable points of the Lebanese Constitution and the stipulations of the positive laws which determined the relation between the government and the spiritual authorities generally, and the Maronite Patriarchate specifically.

After having highlighted projects regarding the cancellation of confessionalism and of political denominationalism, and the adoption of global laicism, Father Akl lays down in the last chapter '"he seeds of the project of a positive partial laicity that distinguishes between religion and state and serves as a modern mechanism that achieves a global laicism or a true civil government..."

This book includes Arabic and English bibliographies.

Author: Father François Akl
Edition: 2007
Language: Arabic
Number of pages: 292